مروى جوهر

مستوحاه من
أحداث حقيقية

رواية

النوم الأسود

ليلة ظهور شبح غرفة الموسيقى

دار دوّن

مروى جوهر

النوم الأسود

ليلة ظهور شبح غرفة الموسيقى

روايـــة



إهداء

إلى كل من رحلوا واطمأنوا في دار القرار..

إلى لقاء قريب يجمعنا..

إلى كل من يلهثون وراء اللاشيء في دار الفناء..

أتمنى أن نلتقي من جديد.

مروى جوهر

(١)

كنت على يقين من قدومه في يوم من الأيام، تخيلت تفاصيله، رتبت له كل شيء وتدربت على مواجتهه، ملأت عقلي بكثير من عبارات الإيمان والمنطق، تأملت الكثير من المواعظ في قصص القرآن وفي السيرة، كل هذا لأصبر وأبقى صامدة حامدة حين موعده، ذلك الموعد الذي لا يخلفه أبدا، لكني الآن عندما وقفت أمامه وجها لوجه، خارت قواي، لم أتحمل المواجهة كما ظننت، فجأة نسيت كل الاستعدادت التي قمت بها على مر السنوات الماضية.

إنه الموت، تلك الكلمة التي نتحاشاها ونطلق عليها «شر»، المعنى الذي لا ندركه، الوجه الآخر للحياة، أو الحياة الأخرى التي سوف نحياها ولن نسردها أبدًا، لكنه يقينًا الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة.

عجبًا أن تكون الحقيقة الوحيدة في الحياة هي نهايتها، ليتنا لا ننسى أبدًا أن الوداع أمر محسوم، مكتوب علينا، فنُحسن لمن نحبهم تمامًا كما نحزن بعد فراقهم.

وقفت أمام جسد أبي المسجى أمامي، أنظر إليه، أتخيله يستفيق في أي لحظة من غفوته.. ينظر إليَّ في حنانٍ ويسأل «هل أذن الفجر بعد يا فريدة؟»

لكنه لم يفعل، إنما رقد في سلام لم أعهده عليه من قبل، طالما كان نومه متقطعا من كثرة التفكير في مسؤولياته تجاهنا، أراه رقد في سلام وهدوء دون أن يحمل همنا بعد الآن.

غسلوه ولا حول له ولا قوة، هذا الذي كان يومًا ما بطلًا رياضيًا يهتف الناس باسمه، الآن جرده الموت من كل شيء حتى اسمه! عندما فارقتنا روحه سمعتهم يقولون «أحضروا الميت هنا.. انقلوا المرحوم هناك.. أحضروا الكفن للميت»، لم يعد أحد يردد اسمه مرة أخرى!

حقيقة قاسية جدا، لكن عزائي الوحيد أنني سوف أذكر اسمه كل ليلة، بل كل ساعة، سوف يذكرك قلبي كل دقيقة يا أبي إذا لم يسعفني لساني وعقلي.

كنت أفكر في هذا اليوم يا أبي بعد كل مرة أحتضنك فيها، لكني لم أتوقع أن تتركني فجأة هكذا رغم علمي التام أن الموت لا يأتي إلا فجأة ودون استئذان.

تمنيت لو أنك تبقى قليلا لترى أحفادك كما فعلت مع أخواتي الثلاثة، أو على الأقل لتراني أنهي دراستي الجامعية، لأعوضك عن رسوبي في آخر سنة دراسية، تمنيت لو أخبرك أنني لن أخذلك ثانية وقد شجعتني على دراسة الشيء الوحيد الذي أحببته في الدنيا، «الموسيقى»، أدرسها وأعمل عازفة في فرقة موسيقية شهيرة تأخذ من وقتي الكثير، هل أجد السلوان فيها الآن؟ هل تعزف لي الكمنجة لحن بطعم الموت؟ هل تنقذني من

تعاسة آتية ووحدة طويلة؟ لا أدري، إنما أعلم أن روحك سوف تتابعني وتطمئن علي دومًا، استرح يا أبي ولتنعم بهدوء لم تذقه من قبل.

أحسست بخدر يسري في عقلي وقلبي قبل جسدي، كُنت أراني أفعل كما يُطلب مني رغما عني، تبكي أمي وتنهار أخواتي ولا أفعل مثلهم، أرى المشهد كأني أشاهد فيلما مكررا، أو لعله كابوس معتاد أتمنى فقط أن أستيقظ منه، فأرى أبي جالسًا بيننا في المنزل، أو آتيا من المسجد، أو حتى في المشفى كما كان، لكن لا.. لا أريد أن أراه يتألم مرة أخرى كما كان، فلينعم بالسلام الذي أنار وجهه وأراح روحه، وتلك الابتسامة الراضية التي باتت تزينه.. سلامًا عليك يا حبيبي إلى أن نلتقي.

جاء المشهد الذي لن يفارق ذاكرتي ما حييت، تعلقت عيناي بتابوت مُغلق على جسد أبي، يحمله أناس لا أميزهم أو ربما أعرفهم ونسيت، رأيت هذا المشهد مرارًا لأناس لا أعرفهم، فكان لساني ينطلق بالتوحيد من تلقاء نفسه، الآن لا أدري ماذا أقول أو أفعل! أشعر كأن قلبي يطير هناك معه.

وسط المقابر رأيت قبره هنالك مفتوحا من بعيد.. بيته الجديد، ها قد جاءت اللحظة الحاسمة، وهذا الـ «تُربي» كما يطلقون عليه ينتظر أبي ليواريه عن الدنيا! ازداد صوت النحيب عندما أنزلوه هناك، إنها اللحظة الأخيرة بلا شك، بعدها.. توقف الوقت ووقفت مع الجميع ندعو له بالرحمة قدر استطاعتنا.

انتهت مراسم الدفن التي جعلتني أستفيق رغمًا عني، ما أصعبها من مشاعر، عقلي لا يصدق أنه قبل قليل كان هنا معنا على الأرض، تساءلت هل يكون هناك نور في هذا الظلام كما ندعو له به؟ هل يشعر أبي بكل هذا؟ هل يسمعنا ويأنس بنا؟ شيء لا أعرفه بداخلي يؤكد لي صدق كل هذا.. فقط شيطاني يخالفني لكني أتغلب عليه دوما.

غريبة هي الدنيا بكل أفراحها وأحزانها، يتبادلان الأدوار على مر الزمان، لا ندري من فيهما يأتي أولًا، الفرح يتلاشى والحزن يندمل، الآن أُدرك القاعدة الوحيدة الثابتة في الحياة «لا شيء ثابت.. لا توجد ثوابت»، لذلك تعودت ألا أغتر بالفرحة أو أنغمس في الحزن، فكلاهما غير دائم، الآن أتمنى لو أتمسك بأحبتي وأعبر لهم عن حبي ثم أتجاوز عن أخطائهم، ففي كل الأحوال سنرحل لكننا لا ندري من منا السابقون ومن اللاحقون.

تأملت الميلاد والحياة وكل ما نواجهه عمدًا أو غصبًا، ما نفرح به لوقت قصير ونظنه دائما، أيذهب كل ما مررنا به من تجارب هباءً؟ أتكون حياتنا كلها لا شيء؟ وتساءلت حينها:

«ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟

وكانت الإجابة واضحة كنور شمس الصباح، ألا نأمن الدُنيا.. فالعُمر مهما طال بنا لابد في النهاية من دخول القبر».

❊ ❊ ❊

(٢)

أقام إخوتي معنا طوال فترة الحداد، ما أسخفه من مسمى!، هل يمكننا أن نحدد للحزن فترة؟!

إنما هي فترة المُؤازرة التي يجب أن تجتمع فيها العائلة ثم يذهب كل منهم إلى حياته التقليدية، زوج وأولاد ومدارس وعمل واحتياجات، الحياة ملهاة كبيرة أكبر من الحزن دومًا، والموت سُنة الحياة، ونحن جميعًا نعتاد الأمر بالتدريج، مر قليل من الوقت ورأيت جميع من حولي يمارس حياته الطبيعية وكأن شيئًا لم يكن! أما أنا فقد استسلمت لحزن عميق رغمًا عني. ورغم علمي أنه لابد منتهٍ في نهاية الأمر.

أيقنت أنه في الغالب لا أحد يهتم بمشاعرك.. بهمومك أو طموحك، بما جنيته أو فقدته.. بغناك أو فقرك.. بصحتك أو مرضك، لكنهم سوف يهتمون لكل ذلك ولكل تلك التفاصيل التي لم تعنيهم يومًا ويجتمعون فقط عند مماتك.

لذلك تعلمت أن لا أنتظر شيئًا من أحد وأعول روحي بنفسي فقط، ظل عقلي يحدثني ويردد عليَّ هذه الكلمات كثيرًا، لم أتحدث مع أحد أياما طويلة، أغلقت هاتفي وانقطعت عن الذهاب الى الكلية، اعتذرت عن كل حفلات الفرقة الموسيقية،

لُقيمات قليلة كانت تكفي لبقائي بين الأحياء، حتى إن أمي أرسلت إلى أفراد العائلة تستشيرهم في أمري.

لم أتوقع أن يهتم أحد من الكلية لقلة الأصدقاء بها، لكني فجأة في نهار يومٍ حزين وجدتهم على بابي.. وكان على رأسهم «يونس».

كان يونس معيدا بنفس الكلية، يشتهر بين الطلبة بحُسن خُلقه، تتهافت طالبات الكلية عليه طلبًا لوده، لكنه كان جادًا في عمله وفي سلوكه، مُتزنا وهادئ الطباع، يعلم الجميع أن أهله من الأثرياء ذوي النفوذ، يسكن في إحدى الفيلات بإحدى التجمعات السكنية الجديدة.

كان يونس بهي الطلعة مليح القسمات ويأخذ العين، وسيما يذكرني وجهه بملوك مصر القديمة، قسماته تبرز رجولة وله جسد رياضي رشيق وطويل، أسمر اللون وشعره أسود قصير، يهتم بمظهره كثيرًا، يكون دوما في أناقة واضحة، وكان له صوت رخيم، ما إن يتحدث حتى يلفت انتباهك على الفور، تدربت معه مرات قليلة من قبل وتبادلنا أحاديث عامة ولم أر منه إلا كل احترام، كانت سمعته الطيبة حقيقية تمامًا كشمس الصيف.

كانت «حنين» أيضًا من بين الزائرين ذلك اليوم، رُبما هي من أخبرتهم برحيل أبي لأنها تقطن في المبنى المُجاور لي وفي نفس صفي الدراسي بالكلية، لكنني لم أفكر يومًا في صداقتها على نحو جاد، لا أعلم لماذا؟ ربما كان مظهرها السبب، قصة شعرها التي تشبه الرجال، وملابسها الجريئة غير التقليدية، تضع الكثير

من المستحضرات التجميلية على جسدها لتبدو بشرتها بلون برونزي، تضعه باحترافية فيبدو غير مصطنع، وتملأ الأوشام غير المفهومة معظم جسدها، ربما شعرت أنها لا تهتم بالموسيقى أكثر من مظهرها، فلم أفتح لها بابي يوما.. فقد كُنت أنا الفتاة صاحبة الطلة البريئة كما يقولون، كانت تراني حنين في الكلية، فتسألني عن سر بياض بشرتي النقية وحمرة وجهي الطبيعية، هل أصبغ شعري باللون البني؟ هل أضع عدسة عين بنية اللون؟ كانت تهتم بتلك الأشياء كثيرًا، فتسألني، هل عالجتُ حاجباي ورموشي ليُصبحا كثيفيْن؟ هل أضع مرطبات بشرة مستوردة؟ لم تكن تعرف أنني لا أحب أي شيء صناعي على الإطلاق، فبرغم أنني لم أتخلف عن موضة الأزياء لكني لم أتعمد أبدًا لفت الأنظار، حتى إنني لا أرتدي الكعب العالي إلا في المناسبات فقد كان طول قامتي لا يحتاجه.

بالطبع أحب أن أبدو جميلة لكني أحب قبل ذلك أن أكون بسيطة ولا أقبل أن أكون مصطنعة، لا أحب أن أصبح محور حديث أو نظر المحيطين بي، فالمجتمع يعتبرني مختلفة بالفعل لمجرد وجودي في فرقة موسيقية، وتأخر موعد رجوعي إلى المنزل عن التقليدي كان يكفيني، لا أريد مزيدًا من لفت الانتباه، أريد أن أكون وشأني.

قامت أمي بتحية الزائرين وأدخلتهم أختي إلى غرفة الصالون، قمت لأرتدي ملابس مناسبة ثم خرجت أستقبلهم.. عرفت من صمتهم وأعينهم الحزينة أن الحزن قد بدلني على نحو

كبير.. سلمت عليهم في وهن وقلت:

- شكر الله سعيكم جميعًا

ردت حنين وهي تنظر إلى الجميع كأنها تتكلم بالنيابة عنهم..

- البقاء لله يا فريدة.. نعتذر عن المجيء دون ميعاد، هاتفك مغلق طوال الوقت كأنكِ في عُزلة، كما أنني عندما أبلغتهم في الكلية أردوا جميعا تقديم واجب العزاء.

قلت حينها في ثقة: كأنني أنفي تهمة عني..

- شكرا لكم جميعا.. لا أخاف العُزلة ولا أعتبرها علامة حزن، إنما هي وقت نلتقط فيه الأنفاس ونجمع شتات أمرنا لنستطيع المُواصلة.

دخلت أختي لتقدم القهوة، نهض يونس قبل الجميع وتناولها من يدها شاكرا، وأكمل الحديث ناظرا إليَّ:

- أوافقكِ الرأي تماما، كُل منا يحتاج مثل هذه العُزلة من وقت لآخر، لكننا لو نعلم لطف الله بنا في أشد الأوقات قسوة.. لتمنينا عدم زوالها خشية زوال رحمته، لكننا لم نستطيع تركك في مثل هذه المحنة، رحم الله والدك وألهمكم الصبر.

قلت حينها وقد غلبني الحزن..

- اللهمَّ رحمتك.

نظر إليَّ يونس طويلا، وشعرت أنه يشعر بي أكثر من الآخرين، ثم قال في نبرة جادة..

- أتمنى لو أن نكون عائلتك الجديدة.. على الأقل في الكلية،

فلتعتمدي علينا في أي طلب في مثل هذه الظروف..

جاءت أمي وقد سمعت ما يقول فابتسمت له، ابتسمت أيضا مُمتنة لما شعرت به من صدق عرضه وقلت:

- أشكرك.

نظرت إلينا حنين وأكملت..

- بالطبع يا يونس، لن نتركها من الآن، لتعلمي يا فريدة أن أمامنا عملا كثيرا لم يُنجز بعد في الكلية، نريدكِ أن تعودي في أقرب وقت.

تحدث يونس على الفور..

- خذي ما شئت من وقتٍ لراحتك لكن السرعة في العودة مهمة للغاية، أمامنا عمل كثير كما تقول حنين، شهور قلائل وتنتهي السنة الدراسية، اسمحي لي أن أتصل بكِ من حين لآخر لأطمئن عليك..

قلت..

- بالطبع يا يونس..

ثم وجدت أن الكلام موجه له فقط فتداركت مسرعة:

- أشكركم جميعًا.

كُنت أثق في يونس تحديدا لسبب لا أعلمه، تبادلنا أرقام هواتفنا وتقرب إليَّ حينها أو أقول: إننا تقاربنا شيئًا فشيئًا، ثم كثُرت مكالماتنا الهاتفية وطالت، حتى أصبحت دورية ثم يومية، ثم أغلب أوقات اليوم، وكان يونس كثيرًا ما يتحدث معي عن حُسن الظن بالله، لم أر في حياتي إنسانا بهذا اليقين الذي كان يملأ قلبه، كان في أبسط تعبير شديد الإيمان قوي الحُجة، ذكَّرني كثيرا بجزاء الصابرين عند

المصائب، وأن اليأس هو بداية الكفُر، فاحتسبت صبري عند الله على فراق أبي، ظل يُذكرني دون ملل مَنْ أكون.. ليعود إيماني من جديد حتى شعرت أنه كان يعرفني منذ مولدي!

تذكرت مع يونس نفسي..

أنا الفتاة التي امتلأ قلبها شغفًا بالحياة والحب والموسيقى، أنا التي ترى في نور كل فجر جديد أملا جديدا، أنا التي تؤمن ببداية مختلفة عقب كل نهاية مؤلمة، أنا فريدة، المُحبة للخالق والمُمتنة له لمنحي كل هذه النعم، أنا المُشتاقة للخير بكل أنواعه، والتي لا تهدأ حتى ترى حلمها حقيقة، أنا التي يجب أن تعوض أباها عن رسوبها وتنجح هذه المرة.. في الدراسة، وفي الحياة.. هل نسيت كل هذا؟!

بعد تلميح تجاهلته.. لحقه يونس بإلحاح لبيَّته على مهل، بدأنا نلتقي ثلاثتنا.. أنا وهو وحنين في كافيتيريا قريبة من بيتي، شجعني يونس حينها على الرجوع إلى الكلية وإلى العزف أيضًا، وقد وضع خطة مُحكمة لتعويض كل ما فاتني، فعزمت على المُواصلة من أجل أبي وتقديرًا لإخلاص يونس، لذلك شكرتهما في سري ألف مرة.

كان «يونس» يعشق «الكمنجة» و «البيانو» مثلي تمامًا، وكان له آراء ووجهات نظر في الحياة مشابهة لي أيضًا، لكنه جعلني لا أنظر للأشياء كما تبدو.. إنما إلى ما تحاول أن تخبرني هي به، علمني أن أرتدي حذاء الناس لأكون بمكانهم وأرى بأعينهم، مع كل ذلك لم أكن لأترك نفسي تميل إليه كما فعلت بحُمق من قبل مع شخص آخر.

وكيف لي أن أفعل؟ لم يحدث أن أحببت أحدًا وأحبني في المقابل، إما أن أحبه أنا أو يحبني هو، دائمًا هناك علاقة فردية بائسة، وحيدة أنا رغم وجود الكثيرين حولي، لا أعلم هل هذا قدري الذي لابد أن أواجهه؟ أم أنني السبب في كل ما يحدث لي؟

كانت تجربتي الأولى - والأخيرة أيضا - مليئة بالندم، كان عازفا في الفرقة الموسيقية، في البداية لم يلفت انتباهي، منذ أن رأيته لم يطمئن قلبي إليه، وأخبروني أن هذا الشخص أهوج لا يعرف ماذا يريد، لكنه كان حريصا على لقائنا بصفة دورية في أي فرصة تسمح بذلك، لم يتركني لأنفرد بنفسي ساعة واحدة دون السؤال عني، لم يكن يطيق غيابي، انتبه جميع من حولي لاهتمامه بي، بل أقنعوا قلبي أن يتجاوز ما أحس منه، قلبي لم يفعل في البداية لكنني سبقت قلبي، وياليتني ما فعلت، مع الوقت هُيئ لي أنني أشبهه، أنجذب إليه، بعد مرور أشهر من شحني بكثير من الاهتمام والحنان.

تشجعت لأول مرة في حياتي وصارحته، وبدلا من سماع كلمات إعجاب مُتبادلة أنتظرها بدا في صدمة! وضح أنه لم يكن يقصد كل ما ظننته.

ما ظننته!

وكأنني كنت أتخيل وحدي، صُدمت بشدة، لكنني كذبت نفسي ولم أبتعد عنه، إلى أن بدأت أفعاله تدريجيًا تثبت قوله، إنه لا يحبني فعلًا، ومع ذلك كنت قد عشقته للأسف، عشقت حتى

ملامحه، تغاضيت عن الاختلاف من أجل بقائي داخل دائرته التي أعلم أنني لا شيء فيها، لم يكن ليدري بغيابي إذا غبت أو يفرح بوجودي إذا رجعت، مع ذلك كُنت أتناسى وأختلق له الأعذار، سألت نفسي كثيرًا لماذا هو؟!

لكنها لم تجبني إجابة منطقية، وكأنني ابتلعت الطُعم ولا أستطيع الفرار، كرهت ضعفي أمامه كلما رأيته.. نسيت كل شيء، وبعد محاولات فاشلة لأبتعد عنه أحسست بالذنب تجاه نفسي، فجاء قراري حاسمًا، لابد أن أتغير من الداخل، لابد أن أقع في حب نفسي أولًا لأحب شخصًا آخر، تدربت على عدم الاكتراث له أو لكتاباته على مواقع التواصل الاجتماعي التي أرهقت قلوبنا.

حينها تعلمت أن القرار الأصعب على النفس هو الأصلح لها، لا لم يكن هناك تشابه بيننا، فقط أوهام تمنيتها، من أجل كل هذا لم يكن سهلًا أن أحب مرة ثانية، أظن أن «يونس» كان يراقبني من قبل، رُبما أعجبته، أو لعله لا يقصد شيئا، في جميع الأحوال لا أريد أن أنجرف في اتجاه لم أحدده لنفسي، لا أريد هذا الشلال الذي يُفقدني التحكم في التجديف، لا أستطيع أن أقع في نفس الفخ مرة أخرى، ربما من الحكمة أن أُقلل من معرفتي بيونس بشكل عام الآن.

***

(٣)

لن يشعر إنسان بآخر في أوقات الشدة الشديدة على النفس، قد يتعاطف معه أو يقدم ما يقدر عليه من واجبات، لكن بالتأكيد لن يرتدي حذائه مهما كان قريبا منه، والشرط الأساسي وإن لم يُعلن أن يكون هناك رصيد في العلاقة يسمح بذلك، أما علاقتي بحنين الآن شيء لم أره من قبل، أن أجد من يحنو عليَّ دون وجود رصيد مُسبق، دون مقابل، أن تتعاطف معي وتحاول أن تشعر بي دون خوض نفس تجربة الألم من قبل!

لم أستسغ ذلك في بادئ الأمر إلى أن بدأت معرفتنا تتطور إلى صداقة تتوطد أكثر فأكثر كل يوم، فصرتُ أنا وحنين أقرب إلى بعض من أي وقت مضى، أخبر بعضنا البعض بتلك الأسرار الخاصة كما تفعل البنات، الأمور العاطفية البائسة التي تجعل كلا منا تتأكد أنها ليست وحيدة في دنيا الحظ الخائن.

هذه الفتاة التي حكمت عليها لا إراديًا في عقلي الباطن، أنها بشكل قطعي لا تصلح للصداقة في يوم من الأيام، كانت الأفضل من بين أصدقائي القدامى من الفرقة الموسيقية التي عزفت بها لسنوات معهم، كانت الأكثر إخلاصا ومؤازرة في وقت محنتي.. فبعضهم قاموا بواجب العزاء عبر الهاتف،

والبعض الآخر لم يسأل عني ولو مرة واحدة، أعلم جيدًا أنهم لا يفضلون الانغماس في هذه المناسبات، لأنها تجلب الكثير من الطاقة السلبية على حد قولهم وقولي معهم في الماضي!

الآن أنا في مناسبة تجلب الكثير من الطاقة السلبية.. فأجد بجانبي.. صديقة جديدة، كانت أبعد ما تكون عن خاطري، وبالرغم من كونها الابنة الوحيدة لأبوين مُسنين يحتاجان الكثير من الرعاية اليومية، إلا أنها لم تُقصر معي في يوم من الأيام منذ رحيل أبي.

جلست معها في كافيتيريا على النيل مباشرة كانت قريبة من منازلنا، نظرنا طويلا إلى الماء الساكن في هدوء، كان هذا المشهد هو ما أحتاجه كل يوم، أن أنظر إلى هدوء النهر وأحدثه كأنني أحاور نفسي، لكن حنين كانت تُصر على مرافقتي كل مرة حتى لو جلست صامتة، هذه المرة نظرت إليَّ وسألتني كأنها تسأل نفسها هي الأخرى..

- قولي لي يا فريدة الآن.. ماذا تتمنين من الدنيا؟

تركت النهر ونظرت إليها وقد اكتشفت أنني لم أسأل نفسي سؤالا كهذا من قبل..وقلت شاردة.

- حقًا لا أعلم.

قالت هي..

- لابد أن تسألي لتعلمي.. أنا أسأل نفسي هذا السؤال بشكل دوري.

في فضول سألتها..

- وهل علمتِ؟

تنهدت وعادت تنظر إلى النهر وقالت..

- في كل مرة تتغير الإجابة، إلى الآن ما أتمناه من الدنيا مرتبط بشكل مباشر بظروفي وبأهوائي التي تتغير، وأهوائي تتغير كلما تغير عليَّ الأصدقاء والأحبة أو تطلعت إلى الحياة بشكل مختلف، كلما فقدت أحدهم أو كسبته، أحيانًا أعتقد أن ما أريده من الحياة هي المادة، أحيانًا أخرى أريد الحب والاستقرار الذي يخشاه أشباه الرجال، أحيانًا أريد صداقة لا تنضب أبدًا، أو خلودا للأهل، بلا مرض ولا فراق وموت!

ثم ضحكت بسخرية ونظرت إليَّ وقالت..

- أحلام.. أنتِ لم تفكري، ماذا تريدين من الحياة من قبل وأنا أفكر كثيرًا.. والنتيجة واحدة، لا نعرف ماذا نريد، أتعلمين شيئًا.. أتمنى أن نعرف في الوقت المناسب قبل أن يفوت الأوان.

لم أعُلق ونظرت إليها ولم أكن أتوقع أن هذه الفتاة التي تبدو متهورة من الخارج تحمل كل هذا في داخلها، قالت كأنها تذكرت شيئًا..

- هاتفني يونس اليوم ليطمئن عليكِ، ألا تتحدثان؟ هل صدر منه شيئ أزعجك؟

لاح على وجهي الارتباك ولم أعرف لماذا ثم قلت وأنا أنظر إلى النهر:

- لا شيء.. أريد أن أبقى وحدي فقط.

نظرت إليَّ وقد فهمت ما يدور بداخلي وقالت..

- فريدة.. أنتِ خائفة، الخوف يُعلِّم السلبية، الخوف للجبناء، الخوف يحجب مُتع الحياة، بل يُوقف الحياة نفسها، عودي إلى طبيعتك التي أثق أن اسمك أخذ نصيبا منها، كوني أنتِ.. كوني فريدة.

***

(٤)

كانت عودتي إلى الكلية وإلى الموسيقى أشبه بالعودة إلى الحياة، أشبه بالنجاة من غرفة «العناية المركزة»، تستمر الحياة رغم كل شيء، وهكذا استمرت معي مرة أخرى، أردت أن أملأ حياتي بالانجازات تمامًا كما أراد أبي وشجعني عليها، مازلت أسمع صوته يقول «ستصبح ما تصدقه عن نفسك يومًا ما»، لذلك تحولت إلى النقيض، فطوال السنوات الدراسية الفائتة لم أكوِّن صداقات بالكلية، لم أحضر بالكلية كثيرًا، لم أحضر محاضرات أو أتدرب على العزف الدوري في غرفة الموسيقى إلا قليلًا، اكتفيت بصداقات الفرقة وتدريباتها، وبالكاد اجتزت اختبارات الكلية السنوية رغم حبي الشديد للموسيقى، الآن تبدل كل هذا.

لكنني لا أعلم لماذا أرى الكلية الآن كأنني أرى تفاصيلها للمرة الأولى! مبنى عتيق من ثلاثة طوابق ضخم المساحة، يُطوق كل طابق بلكون طويل مُمتد بطول الدور يربط جميع غرفه، فإذا فُتحت باب بلكون أي غرفة من غرفه وصلك ببقية الغرف.

كان على يسار كل بلكون درج ثابت حديدي للطوارئ يصل كل طابق بالطابق الذي يليه عبر كل بلكون، أما الفناء فكان واسعا تملؤه أشجار وورود رائعة، وبعض البرجولات

الخشبية المُميزة بُنية اللون.

نظرت إلى الفناء وتساءلت، لماذا لم أُعره اهتمامًا من قبل؟ أراه مُبهجا لمن يدخل المكان لأول مرة، دائمًا يمتلئ بالطلبة بين عازف وراسم وناحت، فالكلية تُشعر من يدخلها كأنه دخل معبدًا للفن في التو واللحظة، كأنها تحتضن من يجلس فيها، لم أدخل المسرح القريب من البرجولات جهة اليمين الذي تنبعث منه أصوات الموسيقى التي أعشقها، فقط اضطررت أن أعزف فيه حفلات قليلة، لكني أعرف الكافيتيريا على جهة اليسار عن ظهر قلب لأنني كلما احتجت قهوة ذهبت لأحضرها من هناك، بجانبها مُباشرة مبنى رعاية الطلبة الذي لا أذكر أنني دخلته إلا قليلًا.

كما أنني لم أهتم بالتماثيل المنحوتة المنتشرة في مدخل المبنى، التي أطلق الطلبة عليها أسماء ونكات في النهار لكنني كنت أراهم يهابونها ليلًا، كما أنني لم أدقق يومًا في اللوحات الزيتية المُعلقة، خاصة وجه المرأة ذات العيون الكحيلة السوداء الواسعة والرموش الكثيفة.. اللوحة زيتية هائلة الحجم تتوسط كل اللوحات المعروضة.. بديعة الرسم لكننى لسبب ما كنت أجدها مُخيفة إذا ما حدقت قليلًا بعينيها! يُقسم الطلبة أن عينيها ترمش وتتحرك في الليل!

كان الطابقان الأول والثاني مخصصان لمحاضرات وسكاشن النحت والرسم، وكنت أمر عليهما مرور الكرام لعدم اضطراري لحضور أي منهما، ولأنني أيضا رأيت في جلسات الطلبة بها الكثير

من الأحاديث الفارغة التي لا تناسبني المشاركة فيها، حيث كان يتخلل معظمها إطلاق الإشاعات حول الآخرين من الزملاء، لم يكن يعنييني في المبنى إلا الطابق الثالث حيث توجد غرف عزف الموسيقى التي أدرسها.

بِتُّ أمكث عدة ساعات طويلة بين حضور المحاضرات صباحًا، وحضور محاضرات العزف ليلًا مع «يونس» في الغرف المخصصة لذلك بالطابق الثالث، ولم أكن أشعر بمرور الوقت، فهي في الغالب تكون مدة ساعة واحدة، مخصصة بين الدكتور والدارس فقط، وكنت قد أحببتها كثيرًا، ربما لأن يونس كان عازفًا ماهرًا بالفطرة، جعلني أكتشف مناطق جديدة بالكمنجة التي اشتريتها منذ فترة وأعزف عليها بشكل دوري منذ سنوات، أما البيانو فكان من الآلات الباهظة الثمن، ولأنني لا أستطيع اقتناءه بالمنزل، كنت أتدرب عليه بشكل مُكثف مع يونس، ذات مرة ألححت عليه في طلبه قائلة:

- لماذا لا تريدني أن أتدرب على البيانو بمفردي؟ طلبت منك هذا مرات عديدة!

قال وهو ينظم بعض النوت الموسيقية لديه..

- أنا لا أعترض على تدريبك بمفردك، أنا أعترض على وجودك ليلًا بمفردك يا فريدة.

قلت في ضيق:

- أريد أن أعرف السبب؟

قال يونس وهو يزفر أنفاسه في نبرة عصبية يعرف كيف يسيطر عليها..

- إذا كنتِ تثقين بي، أنصتي جيدًا.. سأقولها مرة أخيرة، لا يجب أن توجدي ليلًا بالمبنى بمفردك.. تحديدا في الطابق الثالث، ليس فقط أنتِ ولكن هذا ينطبق على أي طالب أو طالبة أخرى، أتمنى ألا تناقشيني في هذا الأمر، سوف نتدرب في أي وقت ولكن يجب ألا تكوني وحيدة.

لم أقتنع لأن كل محاضرات العزف موعدها مسائي، ولأنني أعلم أن الطلبة تمكث بعدها لمزيد من العزف المنفرد، اعتقدت بيني وبين نفسي أنه شديد الخوف على الآلات، أو أنه يريد أن يبدي اهتماما أكثر بي، ظننت أن هذا كل ما في الأمر لكنني أدركت بعدها كم كنت مخطئة! خاصة أنه لم يرد أن يستفيض في شرح أسبابه في البداية مهما حاولت.

أرشدتني حنين داخل الكلية كأنني طالبة بالسنة الأولى أستكشف المكان، هناك نوعان من الطلبة يأتون إلى الكلية، نوع أتى بهم مجموع الثانوية العامة وترتيب ترشيحات مكتب التنسيق، هؤلاء عادةً لا يفلحون في كلية كهذه بسهولة، النجاح في هذا المجال مبني في الأساس على الشغف، وترتيب الدرجات لا يصنع شغفا، ومن ثم فإن هؤلاء الطلبة ينقلون أوراقهم إلى إحدى الكليات أو المعاهد الخاصة سريعا.

النوع الثاني: يعشق الموسيقى والفن عامة.. لا يدرس

الموسيقى بل يعيش فيها وبها ويبدعها؛ ذلك لأن دراسة الموسيقى تتطلب الكثير من الجهد والتمرين، الطالب يعزف الموسيقى ويؤلفها في نفس الوقت، لابد أن يكون عاشقا وليس طالبا، اكتشفت أن حنين واحدة من هؤلاء، تتنفس الموسيقى مثلي تمامًا، وتقربنا أكثر فصرت أرتاح لصحبتها، حينها قررت تأجيل حضوري لبروفات الفرقة وحفلاتها لما بعد فترة الدراسة، فعلمت أنهم بالفعل قد استعانوا بعازفة أخرى، قلت لنفسي «لا بأس.. أعرف تمامًا ما يجب عليَّ فعله الآن».

ذات يوم كنت أجلس في فناء الكلية، جاءت حنين وأمسكت بيدي مُسرعة إلى داخل المبنى وهي تقول..

- أنتِ هنا وأنا ويونس نبحث عنك في كل مكان، هاتفك لا يعمل أم ماذا؟

قلت وأنا أسرع معها..

- جعلته صامتا ونسيته.

كان الطلبة يصعدون ويهبطون الدرج ممسكين بأوراق يقرأونها، قالت دون أن تلتفت إليَّ وهي تصعد بسرعة:

- أسرعي يجب أن نختار النوتة الموسيقية الخاصة بحفل التخرج لكل منا، إنها محدودة وغير مكررة، عددها مطابق لعدد الطلبة في الدفعة تمامًا، نريد أن نلحق بنوتة موسيقية نحبها يا فريدة.

أسرعت معها ودخلنا إحدى غرف العزف الممتلئة بالطلبة،

كانت النوتات الموسيقية موضوعة داخل صندوق خشبي، وكان الطلبة يختارون ما يبتغونه ثم يسرعون إلى الخارج، بجانب الصندوق كان يونس واقفا ينظر إليَّ ويبتسم، ثم غمز بإحدى عينيه وقال مُشجعًا..

- نصيبك ينتظرك فلا تفقديه..

كان ذكيًا فلم يلحظ كلامه أحد سواي أنا وحنين، كنت أحس أنه وحنين صديقان مقربان، ابتسمت رغمًا عني، فقد كان كلامه مزدوج المعنى، أعطتني حنين كومة من النوتات الموسيقية لأختار من بينها، بعض الورق كان مُتهالكا وبعضه طُبع حديثًا، جاء يونس ووقف بيني وبين حنين ليساعدنا قائلًا..

- اختاروا ما يروق لأنفسكم، لا تنظروا إلى سهولته أو صعوبته، فكل صعبٍ يهون طريقه إذا أحببناه وآمنا به.

أعجبني ما قال وأخذت أنظر في النوت، فلم أجد أيا منها تحفزني لأختارها، وضعت كل ما معي في الصندوق مرة أخرى، نظرت إلى يونس كأنني أريد مساعدته فقال متسائلًا..

- ألم يعجبكِ شيء؟

أومأت برأسي قائلة:

- لا أعرف.. لم يجذبني شيء بعينه

تحدث يونس إلى حنين وكانت قد اختارت نوتتها الموسيقية بالفعل، بدأت أعداد الطلبة تقل وعدد النوت الموسيقية يقل بالتبعية، إلى أن همت حنين بإعادة ما معها من

نوت، فسقطت واحدة منها، أثار فضولي بشدة لون ورقها الأصفر شبه المهترئ الذي يعلن عن قِدم طباعتها، أخذتها من على الأرض وأخذت أقلب في صفحاتها باهتمام، فقال يونس وهو ينظر إليها وإليَّ في تبادل..

- هذه نوتة غريبة يا فريدة!

أخذ يونس النوتة بيده وتفحصها برهة ثم قال:

- غريبٌ هذا، كأنني أرى هذه النوتة أول مرة!

للمرة الثانية تبسمت رغمًا عني وقلت في تلقائية:

- اسمها جذبني بشدة.

رفعها يونس بيديه عاليا تجاه الضوء كأنه يتفحصها ثم ردد اسمها بصوت عالٍ:

- النوم الأسود.

ولا أعرف لماذا ارتجف قلبي وقتها بشدة، أحسست أنني أعرفها وأن الاسم مألوف لدي بشدة، سألته عن المؤلف وتاريخ المقطوعة فردَّ بغموض شديد:

- مجهول، هذا متوقع بالتأكيد..

- تابعت قائلة:

- تعلم أنني أنا أيضًا يثيرني الغموض ويزيد فضولي.

ثم بدت نظراته لها مغزى آخر وهو يقول..

- هناك مكان بعيد في قلب كل منا، أكثر نورًا وأكثر شفافية، مكان يجتمع فيه القلب والروح معًا، مكان لا يدخله أحد أو

شيء بسهولة، أحيانًا يُخترق هذا المكان رغمًا عنك.. هذا ما يُسمى بالحب، فإذا حدث شيء كهذا لا تقاوميه.. صدقي قلبك وحسب.

نظرت إليه واختلجت مشاعري ولم أعرف أن أصفها لنفسي، شعرت أنه لاحظ هذا، فابتسم ورأيت بريقا جذابا لم أره بعينيه من قبل، أخذ النوتة من يدي يتصفحها وقال..

- هناك أثر حريق على أطراف الصفحات.. ثم يبدو أن..

وعاد يتقلبها بين يديه مرة أخرى وتابع مكملا:

- ثم إن عدد صفحاتها يبدو أنه غير مُكتمل للنهاية.. هذا غريب!

نظرت إليها في اهتمام أكثر وقلت:

- لا يهم، أعتقد أن هذه فرصة جديدة لي للمزج بين العزف والتأليف، ربما أكمل ما نقص منها بنفسي لو أحببتها، لكني لم ألحظ أثر الحريق، هل تقترح أن أبدلها؟

قال وقد ثبتت عينيه في عيني..

- لا تتركي أيَّ شيء إذا راق لروحك، فلا يوجد شيء في الدنيا كامل بلا عيوب، أن تقبلي بما لديك بكل العيوب والمميزات وتفرحي به، أو لا تقبلي بشيء ألبتة، القرار لكِ.

اختلسنا لحظات ممن حولنا في عالم آخر، جاءت حنين تنظر إلينا وابتسمت في خبث وقالت..

- هل اخترتِ شيئا أخيرًا؟

رددتُ بشرود:

– نعم، النوم الأسود.

وكنت شاردة في النوتة وفي نظرات يونس في نفس الوقت، وشعرت أن عينَي حنين مثبتتان عليَّ، فتحرجت منها ومنه وما كان لي أن أفعل، إذ اعتقدت أن مشاعري الحقيقية قد فضحتني للتو، ولم أستطع كبح لجامها، فاستأذنتهم في ارتباك:

– عذرًا.. يجب أن أذهب الآن.

***

(٥)

ومثل حنين لم يتركني يونس يوما واحدا دون توجيه رغم انشغاله، نفذت كل تعليماته ووجدت نفسي أنخرط شيئًا فشيئًا في حياة أكثر جدية، كان يراني فتبتسم عيناه في صدق أحسه، يحاول دومًا أن يخبئ مشاعر لا تقوى عيناه على تحمل كتمانها فتظهر واضحة في تعاملاته، تخيلت الأمر كذلك ودعوت الله ألا يبوح بها أبدًا، لا أريد أن أجرحه أو أخسره وقد أصبح الصديق الأمثل الذي عرف كيف يُخرجني من محنتي، لا أريد ذنبًا من نوع آخر في حياتي، لكنني أعترف أنه كان وحده قادرًا على إزاحة الستار قليلا حتى أرى ضوء الحياة من جديد، وأستعيد نفسي التي كادت أن تذهب بلا رجعة.

ذات يوم كان موعد محاضرة الكمنجة في الثامنة مساء مع يونس، كنت في الكلية منذ الصباح، فقط خرجت مع حنين بعد انتهاء المحاضرات لتناول وجبة الغداء، ودعتني بعدها وذهبت هي لانشغالها، لم أجد ما أفعله في الساعة السابعة والنصف إلا انتظار يونس، كان عدد الطلبة الموجودين هذا المساء قليلا جدا على غير العادة، بينما أصعد الدرج إلى الطابق الثالث سمعت صوت أحد الزملاء أثناء هبوطهم منه يناديني:

- فريدة.. الطابق الثالث أصبح خاليا تمامًا الآن.

لم أفهم ما يقصده بالضبط فأجبته..

- وماذا في الأمر؟.. سوف أنتظر يونس.

نظر نظرة لم أفهمها ثم همهم بكلمات لزميل آخر لم أسمعها ثم قال..

- كما تحبين.. لكن لا تنسي غلق الإضاءة كلها لأن العم سيد لن يصعد لإغلاقها أبدًا.

تفهمت ما قال؛ لأن حنين أخبرتني أن العم سيد هو أحد أهم أفراد الأمن وأكبرهم سنًا، أجبته بصوت عالٍ:

- سوف أفعل..

أكملت صعودي، أنوار الطابق الثالث كلها مُضاءة، ضوء الطرقة الطويلة التي تمتلئ بعدة غرف صغيرة مُتجاورة جهة اليسار، كلها مُعدة لمحاضرات العزف فقط، ومُجهزة بجميع الآلات الموسيقية وخاصة الثقيلة منها التي يصعب على الطلبة حملها، مثل البيانو، والـ تشيلو، دخلت الغرفة الثالثة وكان بعدها أربع غرف أخرى مثلها تمامًا، ثم غرفة أخيرة تستخدم كمخزن للآلات القديمة الهالكة، ثم المرحاض آخرهم في جهة اليمين، يتوسط المرحاض والغرف في المواجهة صندوق الكهرباء الخاص بالطابق الثالث.

دخلت الغرفة الثالثة ووضعت الكمنجة جانبًا، فقد وجدت البيانو وهو الأحب إلى نفسي جاهزا أمامي مع مقعدين

من الخشب، مقعد للعازف وآخر للمُعلم، المخرج إلى البلكونة مُغلق ومُثبت بمسامير، نافذة الغرفة الصغيرة فوق البيانو بمساحة لا تكفي لأن أنظر منها، كان مستوى النافذة يفوق طولي، فقط يسمح للعازف بالنظر إلى السماء، وكان هذا ما أحببته عندما تدربت سابقًا في الصباح مُنفردة، صوت البيانو والطيور المُحلقة خارج النافذة الصغيرة، أن أعزف الموسيقى وأرى السماء معًا فيخبراني بأسرار نفسي التي لا أعرفها، كم أعشقهما،الغرفة صغيرة لكنها كافية لاحتواء الآلات والعازفين معًا، رُبما لاحتواء أرواحنا التائهة، أرضيتها من خشب الباركيه العتيق الذي يضفي أصالة للمكان، في السقف عُلقت مروحة للتهوية تعمل بزر جانب زر الكهرباء، وضعت حقيبتي على الأرض وجلست في مواجهة النافذة، فأصبح باب الغرفة خلفي مباشرة، كذلك كانت هناك نافذة زجاجية صغيرة مربعة مُتحركة في مجرى مخصص لها تتيح لمن بداخل الغرفة أو بخارجها التواصل إذا ما احتاج الأمر، نظرت إلى ساعة يدي، فوجدتها توقفت تمامًا، لحسن حظي كانت ساعة الحائط في الغرفة بجانب النافذة تعمل.

الساعة السابعة والأربعون دقيقة، جلست خمس دقائق أخرى في هدوء ثم في ملل حيث بدأت كل الأصوات بالأسفل تهدأ أيضًا، والظلام يطل عبر النافذة الصغيرة في غموض، تركت باب الغرفة مفتوحا وقررت أن أفتح النوتة الخاصة بي وأبدأ العزف لحين ميعاد وصول يونس، كنت أتدرب على مقطوعة

خاصة بحفلة التخرج، بدأت بالفعل أعزف وكانت عيني مُعلقة على الساعةالتي كانت تشير عقاربها إلى السابعة والخمس والأربعين دقيقة، فجأة سمعت صوت إغلاق نور الطرقة قويًا من لوحة المفاتيح.

أوقفت العزف بغتة والْتفتُّ خلفي، فوجدت النور قد أغلق بالفعل، أتراهم يظنون أن الطابق الثالث خالٍ تمامًا كما نبهني زميلي؟ لكن كيف ذلك وموعد المحاضرة الأخيرة لم يحن بعد! كيف قام أحد أفراد الأمن بإطفاء الإضاءة دون أن يراني جالسة أو يسمع عزفي!

خرجت لأعلن لمن أغلق النور أنني أنتظر محاضرة العزف، لكنني لم أجد أحدًا، نظرت يمينًا ويسارًا.. كانت الغرف كلها مغلقة! الدرج إلى اليمين خالٍ والهدوء يسيطر على المكان!

على ضوء كشاف هاتفي المحمول ذهبت إلى لوحة الكهرباء الرئيسية في آخر الطرقة، فوجدت بالفعل الزر وقد حركه أحدهم لأسفل، عدلت من وضعه لأعلى، فصدر منه نفس الصوت الأول عند إغلاقه وأُضيئ نور الطرقة!

ذهبت مرة أخرى إلى الغرفة لكن ظللت أفكر كيف لم يرني من أغلق الإضاءة ولم أشعر به؟!

المسافة طويلة بين لوحة الكهرباء والدرج! هل من الطبيعي أن يمر بي دون سماع صوت عزفي؟!

لن أقضي الوقت في التفكير الآن، ربما حدث ذلك من تلقاء

نفسه جراء استخدام مفرط للكهرباء.. تحدث أحيانًا بالمنزل، كانت الساعة السابعة والخمسون دقيقة، فما بال الوقت لا يمضي!

بدأت مرة أخرى بالعزف، وما إن وصلت إلى نفس الجزء الذي وصلت إليه سابقا حتى سمعت نفس صوت مفتاح الكهرباء.. كان صوته أعلى من صوت العزف، توقفت والتفتُّ إلى الوراء، فوجدت الظلام قد حل بالطرقة من جديد! لم أكن خائفة لكن ما يحدث آثار فضولي، خرجت على مهل أنظر يمينًا ويسارًا من جديد، لا يوجد أحد! غرف العزف خالية والمرحاض مُغلق ومُظلم.

ذهبت للمرة الثانية إلى لوحة الكهرباء، فوجدت المفتاح لأسفل مرة أخرى، تعجبت، لابد أن يكون هناك تفسير، أعدته إلى الأعلى كالمرة السابقة، ثم ذهبت إلى الدرج، وناديت على أفراد الأمن فلم يجبني أحد، رجعت مرة أخرى ونظرت إلى الغرفة لا إراديًا وبالطبع كانت خاوية، أكملت سيري إلى أن وصلت إلى الدرج، فيما يبدو كانت الطوابق خالية تمامًا وليس الطابق الثالث فقط.

عُدت إلى الغرفة وكانت الساعة السابعة والخمس والخمسون دقيقة، شرعت في تكملة المقطوعة حيث توقفت، بدأت العزف ولم تمر دقيقة واحدة إلا وقد انقطعت الإضاءة كلها للمرة الثالثة، توقفت وتجمدت للحظات مكاني، ثم أسرعت في هذا الظلام الدامس والهدوء المُخيف، فأحضرت هاتفي المحمول

من جديد، أضأت نوره وحركته بالغرفة على شكل نصف دائرة إلى أن وصلت للباب، حينها سمعت صوت خطوات قريبة بالطرقة، ظننته يونس قد وصل أو أحد أفراد الأمن، لابد أن النور العمومي قد انقطع عن الكلية بأسرها، أخذت حقيبتي وخرجت من الغرفة على ضوء هاتفي، سمعت صوت الخطوات مرة أخرى، فناديت بصوت مرتعش..

- يونس.. أنت هنا؟

لكن لم يجيبني أحد؛ لأنه بالفعل لم يكن هناك أحد! الغريب في الأمر أن صوت الخطوات لم ينقطع، عندما وصلت إلى الدرج وهممت بالهبوط سمعت صوت زر الكهرباء قويًا، فأضاء الغرفة والطرقة معًا! توقفت ونظرت إلى يساري في تعجب.. كانت الطرقة خالية تمامًا إلا من طيف أبيض يُحلق في الهواء! أسرعت فسمعت صوت الخطوات يقترب أكثر تجاهي واختفى الطيف.. بدأت أهبط الدرج سريعًا كأنني أهرب من شيء لا أراه! إلى أن اصطدمت بجسد ما، أغلقت عيني وصرخت عاليا ثم سمعت صوت يونس:

- فريدة.. اهدئي أنا يونس.. ماذا حدث؟

***

(٦)

بغريزة الأنثى التي وهبها لنا الله أستطيع أن أميز نظرات الرجل، صدقه من عدمه، رأيت الخوف في عين يونس ليلة أمس، خوف رجل مُحب، أمسك يدي المُرتعشة محاولا تهدئتي ثم هبطنا الدرج معا، في الواقع كان جسدي كله يرتجف ولم أفهم شيئًا، خرجنا معًا وعبرنا الطريق، كانت الكلية خالية تمامًا حتى من فرد الأمن عند البوابة، لم أتحدث ولم يُصر على أن أفعل، رأيته يفتح باب سيارته لي، ويشير أن أركب، ففعلت دون تفكير.

دائمًا أرى أن الرجل إذا حمل صفات الرجولة كان رمز الحماية الأول، شعرت بأمان في صحبته لم أعهده من قبل مع رجل آخر، كان شيئا غير منطقي آخر يحدث بداخلي تجاهه، لم أشعر بالوقت وأنا أنظر عبر زجاج السيارة إلى المارة التُعساء، السيارات القديمة والأبنية المُترهلة، الأشجار البائسة والحيوانات التي لم تعد أليفة، هكذا رأيتهم كأنني أراهم أول مرة، كان مشهد صندوق الكهرباء وكل ما حدث يعيد نفسه مرات ومرات دون تفسير.

في الصباح ذهبت إلى الكلية، أمام المبنى وقبل أن أدخله بعفوية كعادتي، وقفت أنظر إليه بفضول، لمحني «العم سيد» الذي كانت نظرته ذات معنى كما خمنت، هذا الرجل مملوء

البنية وطويل ذو شارب ضخم وعجيب، نظراته دائمًا تذكرني بالمُخبرين في الأفلام القديمة، نظرت إليه وقبل أن أتحدث سمعت صوت «حنين» تناديني فذهبت إليها مباشرة، جلسنا في الكافيتيريا بالطابق الأرضي، جلست ومازالت نظرة «العم سيد» تسيطر على تفكيري، هذا المجتمع الذي لا يفهم ولا يرحم يتجسد في شخصيات كهذه، ذهبت حنين لإحضار كوبين من القهوة، نظرت إلىَّ وتبسمت في خبث ثم جلست وبدأت حديثًا غير معهود بيننا:

- أعلم أن عمر صداقتنا صغير، لكني صريحة ولا أحب أن أخفي عنكِ شيئًا أريد البوح به.

لفت حديثها انتباهي فقلت:

- بالتأكيد يا حنين، قولي ما شئتِ فلا قيود بيننا، يكفي ما فعلته من أجلي طوال الشهور الفائتة لأعوض ما فاتني من دراسة، حقًا الصداقة لا تقاس بأعمارها.

تشجعت حنين وأزاحت مقعدها للأمام قليلًا ثم مالت نحوي بجسدها وقد باتت ابتسامتها عريضة ثم قالت.

- فريدة.. الجميع يلاحظ اهتمام يونس بكِ.. لعلكِ لم تلاحظيه فترة من الزمن، لكن الآن.. أنتِ فتاة ذكية وتعلمين ما أقصده بالطبع، كل ما في الأمر أردت أن أؤكد أن الرجل لم يلتفت طوال السنوات الماضية إلا لكِ أنتِ، رغم عدم حضورك المنتظم بالكلية في الماضي، إلا أن الجميع كان يلاحظ مدى إعجابه

بكِ، حتى «العم سيد» قال لي: إنه رآكما البارحة وهو يمسك يدك لتعبري الطريق.. كل ما أريد قوله هو أنني أتمنى لو تعطيه فرصته بحق فهو يستحق.

نظرت إليها في ذهول وقد أرعبني ما جاء على لسان «العم سيد»! ثم تنبهت إلى أنني ناديت عليه ولم يكن بالأسفل! ثم أنني لم أره حين خرجنا أيضًا! ارتشفت القهوة في هدوء ولم أعلق فقالت حنين:

- لا تدعي ماضيكِ يأكل من فرصك في الحياة، كُلنا مررنا بتجارب سيئة، رُبما لا تُعجبنا أقدارنا الآن، لكننا في كل مرة نتخطاها، وبعد أن تنكشف الحقائق نحمد الله أنه لم يستجب دعاءنا، هل بوسعنا أن نغير الماضي أو نمحوه؟ هل بوسعنا أن نختار المستقبل؟ الشيء الوحيد الممكن الآن هو أن نعطي فرصة حقيقية للحاضر الذي نملكه.

علقت في هدوء وثبات.:

- هل هو من طلب منك قول كل هذا؟

تغيرت ملامحها في لحظات لكثير من الجدية وقالت سريعا:

- فريدة.. لا تسيئي الظن به، أنا أدعم صدقه، أحب الصادقين ولم أر منه معك إلا الصدق، هذا رجل صفاته نادرة يا فريدة، أتعلمين كم من طالبات الكلية أردن صداقته؟ لم يعط إشارة إيجابية لأي منهم، أردت أن أريح ضميري بنُصحك ولتفعلي أنتِ ما تشائين.

ابتسمت لها ولم أعلق ثم ربت على يديها بشكل ودود يتناسب مع ما شعرت به حينما تحدثت، فغريزة الأنثى قادرة أيضًا على قراءة مشاعر أي أنثى أخرى تجاهها، ثم قالت حنين «ها هو قادم نحونا».

رأيت يونس قادما نحونا، كأنني أراه أول مرة بتصوير بطيء، هل ازداد وسامة؟ أراه وسيما جدًا الآن، لم أره بهذه الهيئة من قبل؟ كنت غارقة في حب شخص لا يستحقني قديما، أو هكذا ظننت، حتى إنني كنت أراه في كل الرجال عندما يبتعد عني، لم أنتبه أن سر حبي له منذ البداية كان اهتمامه بي لا شيء آخر، ألهذا الحد نحتاج الاهتمام؟ ألهذا الحد كُنت بلهاء؟ اقترب يونس وبدا عليه شيء من الجدية أو ربما القلق، فقامت حنين وهي تقول..:

- لابد أن أذهب الآن.. أراك في موعد الغداء.. سوف أنتظر رسالتك.

أومأت لها إيجابا في حين تبادلت هي ويونس التحية وغادرت، جلس يونس ينظر إليَّ في ود وقلق، أحسست أن مشاعري في حالة تضارب لا أفهمه لكنه باغتني بسؤال لم أجبه البارحة:

- الآن هل ستحكين لي ما حدث البارحة يا فريدة؟ لم أشأ أن أثقل عليكِ لكنني مهتم بأن أعرف حقيقة الأمر.

نظرت إلى عينيه مباشرة أول مرة، أعجبني ما رأيت منهما من قلق، فقلت:

- صباح الخير.

ابتسم يونس ابتسامة واسعة ثم قال بصوت خافت..

- آسف.. صباح النور.

باغته بسؤالي:

- لماذا أنت مهتم يا يونس بما حدث لي بالأمس؟

ارتبك للحظات لكنه تدارك أمره سريعًا ثم قال مُبررًا في ثقة وقد علت نبرة صوته بتحكم:

- لأنك لا تعلمين شيئًا عن المكان.. أقصد مبنى الكلية، أنت لم تدركي كم كنتِ مذعورة بالأمس، أنا رأيتك، وقد نبهتك من قبل ألا تمكثي فيها ليلًا بمفردك، أنت لا تأخذين ما أقول على محمل الجد.

رجعت بمقعدي إلى الوراء قليلًا وفكرت.. هل الرجل مهتم بمعرفة ما وراء ما حدث؟ أم مهتم بي؟ أترى حنين تتخيل أشياء مثلما تخيلت أنا وأصدقائي في الفرقة مع من أحببت سابقًا؟ كان يونس يردد مقولة الدكتور «مصطفى محمود» بين الحين والآخر «ليعد كل منا إلى قلبه في ساعة الخلوة.. وسوف يدله قلبه على كل شيء»، تنبهت إلى يونس الذي بات يراقب تعبيرات وجهي جيدًا الآن ثم قلت:

- هل ثمة أمر مُريب هُنا في المبنى؟

همَّ أن يجيبني إلا أن الدكتور «صالح» مر بجوارنا، كان أقدم أساتذة الكلية وأكبرهم سنًا وأكثرهم ثقلا وقتامة على الروح، ذو طلة مهيبة وله جسد عريض وقامة طويلة، إذا ما ظهر تشعر كأنه

قد احتل المكان بوجوده، أنيق الملبس، جسده مشدود تماما رغم ضخامته، شاربه أبيض اللون مختلط ببعض السواد يعطيه هيبة على هيبته، ولسبب لم أعرفه أبدًا لم ترتح نفسي إليه من أول مرة.

كان بصحبتة رجل قصير نحيف وأنيق أيضًا، أبيض اللون، شعره باد عليه أثر صبغة صناعية حديثة، حليق الذقن والشارب، يرتدي نظارة طبية لا يخلعها عن وجهه أبدًا، وكان هذا هو الدكتور»قابيل«.. وبالنسبة إليَّ على نقيض الدكتور صالح كان الدكتور قابيل هو المحبوب من جميع العاملين بالكلية ومن الطلبة أيضًا، ألقى الدكتور صالح التحية باقتضاب ولم ينتظر من يونس رد تحيته وأكمل سيره، بينما ألقى الدكتور قابيل التحية علينا في بشاشته المعهودة ووزع علينا ابتساماته الطيبة الحنون إلى أن رحل، ظل يونس يتابعهما ببصره حتى اختفيا، ناديته لينتبه:

- يونس.. سوف أحكي ما حدث معي على أن تشاركني ما تعلمه.. لم يتوقف عقلي عن التفكير منذ ليلة أمس.

رد على الفور:

- لابد أن أعلم ماذا حدث بالأمس.. أما أنا سوف أحكي لك عندما يتضح الأمر أكثر..

تأملت عينيه لثوان، أعجبتاني ثانية ورأيته حاسمًا فيما يقول، فقلت في استسلام.

- كما ترى.

***

(٧)

رأيت الوهج الأحمر من الأسفل يزداد أكثر وأكثر عند دخولي بهو المبنى، لم أستبن ماهيته بشكل قطعي، هل يستبدلون الإضاءة بلون أحمر؟! لكني لا أرى عمالا في الأدوار كما يحدث أثناء القيام بأعمال الصيانة! واللون الأحمر غير منطقي بالتأكيد لغرف العزف!

دققت النظر قليلًا فخُيل إليَّ أنه دخان أحمر أو برتقالي اللون، ترددت في الصعود للطابق الثالث وكُنت أوشك أن أفعل قبل رؤية كل هذا، لكنني بعد مفاوضات مع نفسي قررت أن أصعد لأعرف ما يحدث، صعدت الدرج بحذر وكلما انتهيت من طابق وجدته مهجورا، كان صوت بداخلي يجذبني مرة أخرى إلى الأسفل، لكن فضولي والسعي وراء الغموض يحرك قدماي لتصعدان إلى آخر طابق بالكلية رغمًا عني.

على مشارف «الطابق الثالث» أحسست بسخونة تملأ أجواءه، كأنها رياح غاضبة مُحذرة تُلهب كل من يفكر بالاقتراب، لكنني رغم ذلك اقتربت، كان باب الغرفة التي أتدرب بها مُغلقا ويرتج بشدة من الداخل! وكأن ضغطا داخل الغرفة يحاول أن يخلعه من مكانه.

كان دخان كثيف يملأ الغرفة يخرج من تحت عقب بابها، حتى بدت مُوشكة على الانفجار، نظرت عبر النافذة الزجاجية بالخارج، فوجدت كل ذلك لا وجود له، ثم رأيت خيالات لأناس لا أعرفهم وسط تكوينات ضبابية خفيفة جدا بالكاد ألمحها.

تبينت أكثر فوجدت فتاة في مثل عمري تقريبًا لا تتضح ملامحها، ترتدي رداء أبيض أنيقا وكأنها عروس، تحمل ورودا بيضاء وتبحث عن شيء ما.. ثم تلاشت وتلاشى كل شيء!

اقتربت أكثر من النافذة لأرى بوضوح، ويا لهول ما رأيت، فجأة بدأت الغرفة تحترق! احتراق بدأ صغيرا ثم تحول لاحتراق شامل فجأة في لحظة واحدة وكأنه انفجار ما.. سمعت أصوات استغاثة لم أتبينها.. هممت أن أهرول وأصرخ فآتي بأحد أفراد الأمن لإنقاذ من بالداخل، لكنني لم أبلغ الدرج قط، يد ما امتدت وأمسكت بقدمي أو شيء لا أعرفه، شعرت أنها تود لو أن أدخل فأحترق معهم! صرخت كما لم أفعل من قبل.. صرخت وصرخت حتى استيقظت.

في البداية لم أكن استطيع أن أتنفس بشكل طبيعي، تناولت جرعة من الماء وحمدت الله أنه كان كابوسا وأن صوت صراخي لم يزعج أمي، كانت الستائر المخملية بغرفتي مُنسدلة، فحجبت ضوء أشعة الشروق التي كانت قد بدأت تتكشف.

قمت من مكاني على عجلة لأفتح الستائر ونافذة الغرفة لأرى من بعيد منظر نهر النيل الذي يريح نفسي بهدوئه الدائم

وغموضه الأبدي، أتنسم ما بقي من هواء الفجر المُنعش لعله ينسيني ما رأيته في هذا الكابوس القاتم، ثم سمعت ما بقي من أصوات،من مسجد بعيد، روح الفجر الذي ولى منذ دقائق.

اطمئن قلبي كثيرا، دئمًا ما يذكرني الفجر بيونس، هل أرى يونس بداية جديدة؟ أم رُبما لتعلقه بصلاة الفجر؟ ربما لحديثه الدائم عنها.. عن صعوبة الاستجابة لها، وعن فضلها وإخلاص المؤمن في المحافظة على صلاتها، لكن يا تُرى هل كان ما رأيته رؤيا أم كابوسا؟ هل احترق من بالداخل بالفعل؟ وأين ذهبت الفتاة؟

لا أعلم لماذا تذكرت أبي.. فقد ارتبط أبي والموت معًا في ذهني، لكن كل هذا ليس بجديد! الناس تموت كل يوم، تموت بصور عديدة لا اختيار لهم فيها، لقد سيطر الموت على عقلي بكآبته منذ رحيل أبي، وتساءلت إذا كانت الحياة تقدم لنا الكثير من الألم والأمل معًا.. فماذا يقدم لنا الموت؟

صليت الصبح والضحى وارتديت ملابسي واكتفيت بكوب كبير من القهوة لأعود مرة أخرى لواقع بلا حرائق أو خيالات، قررت أن أتنفس الهواء مرة أخرى في صحبة كورنيش النيل على غير عادتي، في هذا الصباح الباكر تكون شوارع القاهرة شبه خالية من السيارات والمارة، كم أحب هذه الأوقات، وكأنني أتمشى في حقبة الخمسينيات، ما قبلها أو بعدها، أنا الوحيدة بين أقراني التي تعشق الماضي البعيد وترى نفسها في تفاصيله.

كم كان خياليا جميلًا إلى أن تتبعتني فتاة صغيرة متمرسة تبيع

الزهور، ألحت في أن أبتاع وردة بيضاء ذابلة تحتضر، أعطيتها ما أرادت من نقود لتنصرف لكنها أصرت أن آخذها، وبعد أن فعلت نظرت لي وتبسمت ابتسامة مُخيفة ثم تولت عني وهرولت بعيدًا، نظرت إليها مُتعجبة ثم أكملت السير وأنا أحاول أن أستنشق بقايا وردة، حينها قفز إلى ذهني الكابوس أو الرؤيا مرة أخرى.

لكن لماذا أسميها رؤيا؟

هل سوف يحدث حريق بالكلية فعلا؟! هل تكون من رأيتها تحمل الورود بداخل الغرفة هي أنا؟! ولماذا أسير وحدي باكرًا ثم أبتاع وردة بيضاء تموت اليوم بالتحديد! هل بتُّ أخاف من الموت إلى هذه الدرجة؟ هدأت نفسي فلم تتحقق أحلامي ولو مرة واحدة، لا أريد أن يسيطر على ذهني شيء ويشتته، أريد أن أتذكر أبي وأهديه نجاحي، ثم فكرت كثيرا كم هو مزعج الموت بجميع صوره وأشكاله.

لم أنتبه أنني قد اقتربت من الكلية بشكل كبير، حتى إنني لم أستقل الحافلة ولا التاكسي، فأكملت الطريق سيرًا حتى وصلت، كان «العم سيد» حارس الأمن ما زال يرتدي زيه في الغرفة المخصصة له على أغلب الظن، كُنت أول من يصل الكلية، دخلت بتلقائية إلى المبنى دون تفكير، بطريقة لا إرادية نظرت للأعلى وتحديدًا إلى الطابق الثالث، أريد فقط أن أكمل التدريب على (النوم الأسود) تلك النوتة الموسيقية العجيبة التي سوف أعزفها بحفلة التخرج بعد أشهر قليلة، ترُى هل ستشتعل

الغرفة الآن؟ هل تتحقق الرؤيا أو الكابوس؟ وهل لهذا علاقة ما بالنوتة العجيبة مجهولة المؤلف؟ هل حقًا تتحقق الكوابيس فتُصبح حقائق؟ وقفت مكاني للحظات ثم صعدت في هدوء محاولة طرد كل هذه الهواجس من رأسي.

كانت إضاءة ربانية تُشع من خلال النوافذ الزجاجية الملونة المنتشرة في بهو المكان لتنقل روحانيات مُختلفة، الهدوء يخيم عليه ولعله يضيف شيئا من الغموض كُنت أحسبه سكينة في الماضي القريب، لكني أرى وجهِ المرأة ذات العيون الواسعة في اللوحة الزيتية تنظر إليَّ في وداعة، رُبما تبتسم أيضا! جميع التماثيل تبدو كأنها أُناس مُتجمدون!

بدأت في الصعود ببطء، كأنني أرى المكان أول مرة، استخدمت هاتفي المحمول في إنارة إضافية أثناء صعودي على الرغم من عدم احتياجي لها، تنبهت أنني كلما صعدت ومررت بطابق من الطوابق نظرت إليه متوجسة، تمامًا كما كنت أفعل منذ ساعات قليلة في الحلم! مرة أخرى أحاول أن أبقى فريدة الواقعيةالتي لا تؤمن بأي من الأشياء غير المنطقية، اللامنطق في حياة الإنسان يُحدث نوعا من البلبلة والانجراف وراء المجهول، فقط لإثبات وجود المنطق، وأنا لا أريد كل هذا العبث، فقط أريد أن أحيا في سلام وبساطة.

أخيرًا وصلت الطابق الثالث، مرت الدقائق كأنها ساعات على روحي، ذهبت إلى صندوق الكهرباء الرئيسي بالطابق

وأضأت كل ما به، تفحصت عيناي ممر الطرقة والغرف وحتى المرحاض المغلق، كل الغرف مغلقة وخالية، دخلت غرفة العزف أول مرة تمنيت أن يكون موضع البيانو في مقابلة باب الغرفة لأرى من بالخارج، أول مرة لا أتوق لرؤية السماء من خلال النافذة المربعة الصغيرة فوق البيانو أثناء العزف، لم أكن أعلم أنني أخاف إلى هذا الحد! رُبما لأنني لا أؤمن إلا بالعلم والمنطق، ولا أجد تفسيرا منطقيا لما حدث معي إلى الآن، كما أن إجابة يونس عندما سألته لم تُرحني أيضًا.

وضعت حقيبتي جانبًا وأخرجت النوتة ووضعتها على حامل النوت الموسيقية، أغمضت عيني للحظات حتى أستعيد قليلًا من سلامي الداخلي، فتحت عيناي فوجدت السماء صافية تنتظر نغمات عزفي، ابتسمت وبدأت في العزف، ظللت أعزف النوتة الموسيقية، استمتعت كثيرًا بعزفها وقد نسيت كل ما حدث وأنا أنظر إلى السماء مرة ثانية، أحدثها وتحدثني بما تسره الأنفس، ها هي الطيور تُحلق مرة أخرى، انتهيت من العزف وقد وصلت لنشوة لم أدركها منذ فترة، فأعدت العزف مرة ثانية مع استمتاع أكبر، استمتعت كثيرًا، انتهيت ونظرت حولي مُتفقدة المكان، فوجدته كسابق عهده، به كثير من الجمال رغم قدمه.

أثناء العزف للمرة الثالثة سمعت صوت خرير ماء قريب، صوت بدأ خافتا لكنه واضح بشدة وأخذ يزداد بشكل منتظم، تجاهلته ببساطة، فربما أحد العاملين يروي أشجار حديقة الكلية

بالأسفل ويصلني الصوت لهدوء المكان، استمر عزفي واستمر صوت الماء أيضًا، بات صوت الماء قريبًا من أذني..

فتوقفت أصابعي عن العزف.. كان صوت الماء أقوى بدون عزف، بشكل تلقائي نظرت إلى أرض الغرفة، فوجدت الخشب مُبللا بماء يستمر في التدفق والارتفاع، رفعت حقيبتي من الأرض بسرعة ووضعتها فوق البيانو، ثم وجدت إضاءة الطابق كله مظلمة إلا غرفتي، من أغلق الإضاءة ولم أشعر به مرة ثانية؟!

رأيت ممر الطرقة أيضًا يغمره الماء، تتبعت مصدره فوجدته آتيًا من المرحاض، وجدت بابه مفتوحا! ألم يكن مغلقًا حين أتيت؟ استخدمت هاتفي في الإنارة وذهبت إليه في توجس لأتفقد صنبور المياه، لكن قُبيل دخولي إليه سمعت صوت امرأة تهمس..

- فريداااااااا

كان صوتا لم أعهده من قبل، أجبتها تلقائيا دون وعي:

- من؟ من يُنادي؟

لم تجبني! اقتربت أكثر وصوت المياه ينبعث بقوة والمياه تفيض حتى امتلأ المكان.. خِفت أن تفسد الأرض الخشبية، أعدت سؤالي بصوت أعلى..

- من بالداخل؟

لم تجبني! ثم سمعت أنينًا كأنها تتألم! للمرة الأولى يغلب عقلي فضولي، شعرت أنه من الحكمة ألا أقترب أكثر ولا أعرف لماذا، تراجعت في هدوء وهبطت الدرج في سرعة وهرولت إلى

«العم سيد» أطلب عونه وأنا ألهث.. كان يجلس مسترخيًا يحتسي كوبًا من الشاي حين رآني مذعورة أناديه:

- العم سيد... المياه... المياه بالأعلى.. يبدو أن..

نظر إليَّ الرجل في ذهول وقاطعني..

- أستاذة فريدة.. متى وصلتِ؟ وأين هذه المياه؟!

أكملت وأنا ألتقط أنفاسي:

- يبدو أن ماسورة المياه انفجرت في مرحاض الطابق الثالث، ويبدو أنك لم تلحظ وجودي أو تلحظ وجود الفتاة الأخرى أيضًا:

قال متعجبا:

- بالفعل لم ألحظ وجودك.. هل يوجد طلاب آخرون؟

- نعم هناك واحدة بالأعلى.. لقد سمعتها تبكي بالمرحاض.. فلنسرع لا يوجد وقت.. لابد من إغلاق محابس المياه.. ستفسد الأرض الخشبية إذا تركناها كثيرًا.

وضع الرجل كوب الشاي جانبًا وأتى معي على عجلة، صعدنا الطابق الأول والثاني وكنت في المقدمة كي أريه ما حدث، وعندما وصلنا إلى الطابق الثالث، تسمرت في مكاني وفغر فاهي عن آخره، ونظرت إليه في ذهول!

الأرضية الخشبية بالطابق الثالث جافة تمامًا!

كما أن جميع الأنوار مضاءة! أخذ الرجل يتفحص الأرض يمينًا ويسارًا وينظر إليَّ، تجهمت ملامحي وأنا أتفقد كل هذا، نظرت إلى

باب المرحاض فوجدته مغلقًا! ذهب الرجل دون أن ينبس بكلمة إلى المرحاض ودخله ثم خرج لينظر إليَّ ويقول متسائلًا:

- أين كل الماء المتدفق والمرحاض العائم؟ ومن هي التي تبكي؟ لا يوجد سوانا في الطابق كله! كل شيء على ما يبدو في أحسن حال، أكنت تتدربين هنا؟

ثم دخل غرفة العزف ودخلت وراءه أجر قدماي، فرأيت حقيبتي ما زالت على الأرض! أحسست أنني أريد كوبًا من الماء، فقد جف حلقي تمامًا، أو رُبما أريد سكبها على رأسي لأستفيق، نظرت إليه وأنا لا أستطيع النطق، وضعت النوتة الموسيقية في حقيبتي وخرجت من الغرفة دون أن أجيب أسئلته التي لا أملك لها جوابا، هبطت الدرج في سرعة.

بينما لمحته يحاول أن يلحق بي ليفهم ما حدث، كانت الكلية قد بدأت تمتلئ بالطلبة في ذلك الوقت، كانت حنين تصعد الدرج وأنا هابطة، رأيتها تبتسم وتلقي التحية لكنني لم أجبها، كما أنني رأيت الدكتور صالح يصعد الدرج أيضًا وينظر إليَّ وإلى العم سيد في فضول، فلم أعره انتباهي، ولم أكن لأفعل أي شيء إلا أن أخرج من هذا المكان سريعًا لألتقط أنفاسي.

***

(٨)

قضيت كثيرا من الوقت بصحبة نفسي في إحدى الكافيتيرات المنتشرة على ضفاف نهر النيل بمنطقة المنيل، هذا المكان الذي نشأت فيه وتسكن فيه روحي، لم يعد قلبي يطمئن لقرب أحد؛ لأنه لابد مُفارق بطريقة ما، أصبحت لا أجد الألفة والانسجام إلا في القرب من الله، الذي لن يفارقني ولن يخذلني ولن يضيعني.

ظللت أفكر ساعات لم أشعر بمرورها، أطلب كثيرًا من المشروبات ولا أرتشف منها إلا الرشفة الأولى فقط! ماذا حل بعقلي؟ هل توهمت كل ما حدث؟ وهل أصدق إلا ما أرى؟ لكنني رأيت الأرض مبللة ورأيتها أيضًا جافة! فماذا أصدق؟

سألتني حنين ذات مرة ماذا أريد من الحياة؟ إلى الآن لم أجد الإجابة الحقيقية بداخلي، لأن عقلي مُوجه نحو الموت وليس الحياة، حينئذ تنبهت أن الموت ليس نقيض الحياة وإنما هو وجه الحياة الحقيقي بعد التخلي عن زيف الدنيا.

سألت نفسي «ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ أن نختار رفقاء رحلتنا بعناية كي لا يكون المزيد من الوقت الضائع والكثير من الندم.»

كنت قد أغلقت هاتفي لتفادي التحدث إلى أي إنسان، نظرت إليه في تردد ثم فتحته فكان سيلًا من المكالمات والرسائل، كان يونس أكثرهم اتصالًا، جزء مني حثني على الاتصال به،

ففعلت.. جاء رده سريعًا:

- فريدة.. أين أنتِ؟ وماذا حدث اليوم؟

فكرت أن العم سيد لابد أنه نشر بين الطلبة والأساتذة كل ما حدث.. رددت في يأس:

- لا شيء.

جاء رده أسرع..

- أين أنتِ؟ أريد أن أراكِ:

حينها فقط كنت أريد الحديث عما جرى، ربما كان يونس الرفيق الأمثل الآن، مرَّ أقل من نصف ساعة، فوجدته أمامي! تجمدت لحظات عندما رأيته ينظر إليَّ في شوق، أو ربما يُهيئ لي قلبي سخافات أريد تصديقها، كانت المرة الأولى التي أراه فيها بدون حنين، اقترب وتبسم قلبي رغمًا عني وسألته:

- كيف جئت بهذه السرعة في الزحام؟

أشار إلى النادل وطلب قهوته، ولم أكن قد أكملت قهوتي بعد ثم استرسل:

- المكان ليس ببعيد عن الكلية..

سمعت الكلمة الأخيرة منه، فعاد امتقاع وجهي مرة أخرى ولم أعلق، أشحت بوجهي تجاه النيل، فقال يونس:

- ألا تودين أن تُلقي ببعض مما تعانيه على عاتقي يا فريدة؟

التفت إليه في غضب وقلت مسرعة.

- أنا لا أعاني شيئًا.. فقط بعض الكوابيس.

تبسم في هدوء، وقال:

- أعلم تمامًا أنكِ بخير، لكن جميعنا يعاني في الحياة وهذا ليس بالشيء المعيب، إنها طبيعة الحياة التي تلقي إلينا بمتاعبها لا لكي نتألم فحسب بل لنتعلم أيضًا، والحمد لله الذي جعل الصديق سندا وقت الحاجة والضيق.

نظرت إليه وقد هدأ غضبي ولم أعلق، فأكمل بصوت رخيم وهو ملتفت بجسده تجاهي:

- علمت من الدكتور صالح اليوم ما نقله العم سيد له، ثم تحدثت إلى حنين لأفهم منها فوجدتها مثلي تمامًا لا تفهم شيئًا، رأتكِ تغادرين مسرعة إلى الخارج دون أن تلتفتي إلى أحد، قالت: إن المنظر العام بدا غير مطمئن؛ فقد كُنتِ شاحبة الوجه والعم سيد يحاول أن يلحق بكِ! إنها قلقة عليكِ وأنا أيضًا.

دون قصد التفتُّ إليه مرة أخرى، هذه المرة لأتحقق من عينيه بعدما قفز إلى ذهني حديث حنين عنه، هربت عيناه مني في سرعة بعد أن استشف سؤال عيناي، اعتدل في جلسته وأخذ يصفف شعره كمن يحاول تشتيت انتباهي، لا أعلم لماذا فرح شيء بداخلي حتى مع احتمال وجود معنى مزدوج لحديثه، تشجعت لأقص عليه ما حدث بالتفصيل، رأيته مُهتمًا ولا يُسفِّه من شيء ولم يقاطعني.

كُنت كمن يتحدث إلى نفسه دون خجل، الآن عرفت لماذا أحب صحبته مهما كان قِصَر مدتها، ففي صحبته أكون كما أحب أن أكون، لا أخاف ردة فعله أو حديث نفسه لنفسه ورأيه عني،

أنا أعلم أنه يفهمني ويرى ما بداخلي مُباشرة، لذلك أتحدث فقط ولا أبالي، بعد أن انتهيت، كان يونس قد استغرق في التفكير، لم نتحدث دقائق، ثم التفت إليَّ في جدية وقال:

- فريدة.. أنا أصدقك وأدعمك، وأعلم أن هناك شيئا غريبا بل غير منطقي أيضا في هذا المكان، وبالتحديد في الطابق الثالث، يبدو أن كل ما حسبناه أساطير عن المبنى حقيقي، اسمعي.. أنا أعلم أنكِ لا تؤمنين إلا بكل ما هو واقعي ومنطقي، كُنت مثلك ثم اكتشفت أن الأمور لا تقاس بهذه الطريقة، نحن نؤمن بوجود الله والملائكة والشياطين والأنبياء والمعجزات، لكننا لم نرهم، بل نرى الدلالة على وجودهم.

أجبته فورًا:

- بلا أدنى شك..

ابتسم ورأيت جمال روحه فابتسمت، شعرت أن لأول مرة يربطنا خيط مُضيء، شيء روحي نقي، ربما لنكون أصدقاء أوفياء أو ربما أكثر من هذا، قال حينها:

- سوف نكتشف معًا ما يحدث يا فريدة، فقط دعيني أكون جوارك دائمًا، لا أريد أن يحدث مكروه لكِ.

حاولت أن أُخفي شعاع فرحة وليدة في عيني لكني أجبته في سرعة..

- اتفقنا.

***

(٩)

في اليوم التالي كنت أستعد للذهاب إلى الكلية، يوم آخر في هذه الحياة الجميلة البائسة، أمل آخر، فرصة أخرى، نور آخر وظلام أيضًا، وقت إضافي إلى الرحلة نقضيه في شقاء أو في هناء، الرحلة التي مهما طالت حتمًا ستنتهي! ركض متواصل لا ينقطع من أجل الوصول لأشياء زائلة، وماذا يُضيرنا لو عرفنا النهاية قبل البداية؟ هل كنا نتكلف عناء المعيشة من الأساس؟ هل ننعم بالعيش إذا ما عرفنا الغيب؟ إذا ما تيقنا من أقدارنا؟ هل نسعد إذا ما كان كُل منا يمُسك بكتاب سُجلت فيه حياتنا مُسبقًا، فإذا ما جاء الصباح كان كل ما علينا هو تطبيقه حتى المساء؟ وما هو حقيقة الشعور مع اقتراب الأجل؟ هل نفرح بالفراق؟ أم نسعد به ونستعد له؟ هل كان يُحدث فرقًا في حياتنا؟ أم أن مُتعة الرحلة كلها في الغموض؟ في الأمل والتمني؟ في الترقب والمغامرة؟ هل كنا سنطبق ما نقرأه في هذا الكتاب عن رضا؟ أم نعترض عليه لنخُط بأيدينا مصائر أكثر بؤسًا بكل جهل وغباء؟

في وسط كل هذا كُنت دومًا أتذكر صدق عين يونس وهو يقول «أنا أصدقك وأدعمك..»، أليس رائعًا أن تجد من يصدقك ويدعمك في الحياة؟ هل كان يقصدها حقًا؟ أم أن هذه

أعراض الفراغ العاطفي اللعين؟ لم أصدق مشاعري التي بدأت تميل إليه كل هذا الميل! هل التفت إليه قلبي؟ هل نجح يونس في هذا بالفعل دون جُهد؟ ولكن لم لا وأنا التي تبتاع لافتة «أنا أتبع قلبي» وتعلقها على جدران غرفتها في فخر، ثم تنظر إليها بإصرار وتقول «نعم أنا أتبع قلبي بكل شجاعة»، «أنا مُحاربة».

الغريب أن عقلي بدأ ينحاز إليه ويصدقه! لكني لم أحبه بعد، فقط بدأت أراه بشكل مختلف...وليكن ما يكن، أنا فقط لا أريد حيرة مرة ثانية في حياتي؛ فقد تعلمت الدرس جيدًا، لن أفلت زمام قلبي أبدًا إلا بعد تقديم الطرف الآخر كافة شروط الأمان، أعلم أنني أخدع نفسي بلا شك، ليس هناك ما يسمى بالأمان في الحب أو في صحبة البشر، القلوب عادة متقلبة لا عهد دائم لها، ألم تُسمى قلوبا من فرط تقلبها! الله سوف يُبصرني.

كان هذا حديثي الصامت بين قلبي وعقلي، أعلم أنهما لن يتفقا أبدًا.. أعلم ذلك، لكنني لم أبالِ بحوارهما، فتحت هاتفي لأجد رسالة من يونس «لابد أن نتحدث اليوم لأمر هام»، تبسمت فرحة وأرسلت له «أنا في الطريق إلى الكلية.. أراك هناك»، فتحت حقيبتي لأخذ شيء منها، فوجدت الوردة البيضاء الذابلة قد جفت تمامًا، أمسكتها وبقيت أنظر إليها، فأستعيد صوت المرأة التي كانت تهمس باسمي ولم يكن لها وجود! ألقيتها بعيدًا عني فسحقتها على الفور سيارة جاءت مُسرعة في نفس اللحظة، سعدت بذلك وكأنني أرى ذلك الكابوس اللعين

ينسحق أمامي.

استقللت سيارة أجرة، وعندما وصلت الكلية ودخلت فناءها، كان شيئًا غير طبيعي يحدث بين الطلبة، التجمعات في الفناء كثيرة، على غير العادة يتهامسون، رأيت الدكتور قابيل يعطي «العم سيد» نقودا كعادته، فهو يشتهر بكرمه مع الجميع، هل ما زال ما حدث معي حديث الكلية؟ رأيت حنين تشير إليَّ من بعيد، ذهبت إليها فرأيت عينيها لامعة إلى حد كبير، جذبتني من يدي بعيدًا عن الطلبة وقالت كمن تعلن عن خبر حصري..

- ألم تعلمي ما حدث البارحة؟ كان يجب ألا يفوتك ما حدث..

أثارت فضولي لكنها استرسلت على الفور كأنها تعلم جهلي بالأمر..

- بعد أن غادرتِ البارحة، كان الجميع يتحدث عما ردده العم سيد مع البعض، تعلمين بالطبع لا توجد أسرار داخل هذه الأسوار، كان البعض يتحدث عن الطابق الثالث وكيف أنه مكان ثقيل الظل، أحيانًا تحدث به بعض الأشياء الغريبة، لكن ليس إلى الحد الذي حدث معكِ، كان البعض يكذب الرواية من الأساس، لكن ما حدث بالأمس ليلًا جعل الجميع ذاهلا، بل إنهم تذكروا روايتك وصدقوها بلا شك!

قلت في سرعة..

- لم تقولي شيئًا إلى الآن يا حنين! ماذا حدث؟

أكملت كمن تروي قصة خرافية..

- امتلأت غرف العزف بالطلبة والدكاترة والمعيدين البارحة ليلاً، فلم تكن غرفة واحدة شاغرة، بدأ العزف وبدا كل شيء على ما يُرام، وفجأة انقطعت الكهرباء عن الكلية بأسرها.

تنهدت في ملل وقلت..

- وماذا في ذلك؟

- اصبري حتى أُكمل، خرج الجميع من الغرف وذهب الدكتور قابيل إلى صندق الكهرباء ليتفحصه، فوجده لا يعمل! حينها هبط يونس الدرج وخرج من المبنى كله ليسأل العم سيد عن المشكلة، لكنه وجد إضاءة الكلية كلها مُنارة من الخارج، فحسب أن الكهرباء قد عادت، لكنه عندما دخل وجد الغرف مظلمة، فخرج مرة ثانية فوجد الغرف مُنارة!

حينها هاتف الدكتور صالح ليخرج بنفسه ويرى ما يرى، لكن الدكتور صالح بدا غريبًا وغير مهتم، في حين اهتم الدكتور قابيل وتعجب مما يراه، عندما عادوا إلى الغرف سألوا إذا ما كانت الكهرباء قد عادت وانطفأت مرة أخرى؟ فأجبنا بالنفي! حينها قال الدكتور قابيل «إن من الحكمة ترك المكان الآن»، في حين كان رد فعل الدكتور صالح مقتضبًا غير إيجابي وبه كثير من الخوف!

الآن فهمت رسالة يونس، لم تكن سببًا يتصنعه ليراني، إنما كانت لأمر مهم حدث بالأمس، شعرت بخيبة تسري في قلبي ولم أعلق، فتعجبت حنين وقالت:

- أراكِ لا تهتمي ولا تتعجبي مثل الدكتور صالح! حتى إنكِ لم تخافي مثله! هل تعلمين شيئًا لا نعلمه يا فريدة؟

انتبهت أنها قد وضعتني والدكتور صالح في خانة واحدة، فلم أفضل الفكرة فقلت..

- ما لي والدكتور صالح يا حنين؟! بل أفكر في تلك الأمور الغريبة المتتالية علينا، لماذا تحدث الآن؟ أفكر في المكان وانشغالنا جميعًا بها، هل كانت تحدث مثل هذه الأمور في الماضي مع دُفعات سبقتنا؟ أنا لا أريد الانخراط في هذا كله.. أريد فقط أن أنجح وأمضي من هنا.

نظرت حنين إليَّ طويلًا وابتسمت في خبث ثم قالت غير مقتنعة:

- ربما تفكرين في المكان يا فريدة.. وربما في رواد المكان أيضًا..

تحاشيت النظر إليها كأنني لم أفهم تلميحها فقلت في حزم:

- أنا لا أفكر إلا في النجاح..

عادت إلى جديتها وسرحت وهي تقول:

- دعك من النجاح والرسوب، أثق في أننا سوف ننجح، ما يشغلني ويشغلنا جميعًا الآن ما يحدث حولنا دون تفسير.. أم أن فضولك قد انتحر؟

بقيت شاردة أفكر في يونس وحنين تتحدث ولا أسمعها، هل بدأ ذلك الشعور السخيف مرة أخرى، أردت أن أراه، هو

وحده ولم أبالِ بوجود حنين معي! ثم رأيتها تشير وتصيح.. «يونس».. خفق قلبي قليلًا وشعرت بتوتر ملحوظ، لاحظت أنها تراقبني عن كثب وتبتسم، لمحت «العم سيد» يتابعنا من بعيد، أو هكذا رأيته، أشار يونس من بعيد ثم جاء إلينا يبتسم في وقار وسلم علينا.. فقالت حنين وفي نبرتها لؤم ملحوظ..

- فريدة تنتظرك بشدة..

نظر إليَّ يونس وابتسم وقد بدا أكثر وسامة فقالت حنين:

- لمعرفة ما حدث بالأمس..

ثم استأذنت في الذهاب لانشغالها وكُنت أعلم أنها تفتعل ذلك لتتركنا معًا، بات مقصدها واضحًا كلما رأته، نظر إليَّ يونس كأنه يتساءل هل قصصت مقابلتنا على حنين وكذلك رسائلنا؟ فرددت مُتسرعة دون أن ينطق لسانه السؤال..

- حنين لا تعلم أي شيء عنا، هي فقط تُخمن..

ابتسم يونس في عذوبة ولُؤم أحببته ثم قال وعيناه تنظران إليَّ نظرة جعلت قلبي يخفق بشدة..

- تُخمن ماذا؟

قلت وقد بدا عليَّ خجل لم أشعر به من قبل كأنني بتُّ مراهقة في لحظات..

- إننا تقابلنا بدونها أو رُبما نتحدث..

اتسعت ابتسامته وقال:

- وما الذي يجعلها تُخمن هذا؟

لم أعلق فأراد ألا أتحرج أكثر من ذلك فقال:

- على كل الأحوال دعيها تُخمن كما تريد..

لا أعلم لماذا كنت خجلة متوترة إلى هذا الحد! إلى أن تحدث هو في أمر الكلية مُبتسمًا..

- بالطبع علمتِ ما حدث البارحة؟ فشعارنا لا يوجد أسرار في هذا المبنى.

تحدثت وقد عدت إلى طبيعتي قليلًا..

- بالطبع.. الآن تأكد للجميع أن المكان مريب، ماذا نفعل بهذا الشأن؟ هل ينقلون مكان الكلية؟

ضحك بصوت عال وقد مال بجسده إلى الوراء بحركة لا إرادية.. ثم اعتدل واقترب فأجابني..

- بالطبع لا يا فريدة، هذا مكان حكومي للدراسة، تعلمت فيه أجيال كثيرة، لا تنسي أن تاريخ المكان قديم، لقد اقترح الدكتور قابيل هذا الأمر من قبل لكنه لم يكن بهذه السهولة.

استنشقت رائحته الذكية دون أن يلحظني وقلت في ثقة..

- وهل عانى الدكتور قابيل من أمور مُماثلة في الماضي أيضًا؟

نظر إليَّ يونس كأنه يطرح السؤال على نفسه أول مرة.. وبدا كأنه يفكر ثم قال في صوت خافت..

- لم أسأله من قبل يا فريدة..

ساد الصمت لحظات أردت فيها أن تأتيني رائحته مرة أخرى، رأيته ما زال مُنشغلًا بسؤالي فقلت..

- وهل بوسعنا فعل أي شيء؟
نظر إليَّ كمن حسم أمرا طال فيه الجدل ثم قال..
- لا شيء غير البحث يا فريدة.
لمحني يونس وأنا أُطيل النظر إلى العم سيد الذي بدا مهتمًا بنا كما أراه، فنظر بدوره إليه، وللحظات بدونا كأننا مثلث يرأسه العم سيد، وتساءل عقلي هل يعلم هذا الرجل شيئًا لا نعلمه؟

***

(١٠)

استمرت تجمعات الطلبة في فناء الكلية في التزايد كل صباح، لاستكمال الحديث المثير اللا منقطع عن الأحداث شبه اليوميه أثناء تناول فطورهم، كل القصص تدور في فلك الطابق الثالث وما يحمله من شياطين وأشباح، كُثرت الحكايات والخزعبلات، خيالهم تمادى أكثر مما ينبغي، شققت التجمعات فنادتني حنين بلهفة لأجلس معها، كانت تتوسط دائرة من التجمعات التي لا أعرف أكثرها، كان الحديث على أشده، عزمت على الرفض بإشارة بسيطة لكنها أشارت بإصرار أن أحضر، مع رؤية الجميع مُنتبهين للغاية غلبني الفضول وذهبت، جلست بجانبها فهمست في أذني..

- «استمعي جيدًا لما يقوله هذا الطالب السابق، تخرج في الكلية منذ عدة سنوات، لكنه يعمل بإحدى الدول العربية وجاء في إجازة سنوية، يقول: إنه مر بتجارب كثيرة في المكان نظرًا لرسوبه المتكرر..

بدا لي أكبر عمرًا ليكون طالبا منذ سنوات قليلة! قاطعتها وهمست في أذنها:

- هل ذكر لماذا كان يرسب كثيرًا؟!

همست مرة أخرى في أذني:

- ذكر أنه لم يكن بحاجة للدراسة إلا لاقتناء الشهادة وإرضاء أبيه، ثم أراد فك اللغز بشدة ولم يكن الحظ حليفه، فلما سمع بما يجري الآن أراد نقل خبراته لعلنا نهتدي إلى ما عجز عنه، فريدة... ألم تسألي عن ماضي المكان؟ وكأن الله استجاب لما في نفسك وأعطاكِ إياه!

نظرت إليها وشعرت أنها علامة من علامات الله التي لا أتجاهلها أبدًا، نظرت إليه وبدأت أتفحصه جيدًا، أنا أمرر كل من أراهم أول مرة على قلبي، لم يخذلني مرة واحدة فيما أخبرني عن الأشخاص الجدد، فإما أن أفتح باب حياتي أو أغلقه، كل ما على أن أصدقه فقط، مهما بدا الأمر عكس ما نبهني إليه، كان شخصًا يبدو عليه شيء من الرزانة، بدا تخمين سنه لي مُحيرًا بعض الشيء، فمن الواضح أنه يهتم بممارسة الرياضة ومظهره العام، يتحدث بلباقة وثقة، مظهره وطريقته في الحديث تقول: إنه يحب إظهار نفسه بشكل مُبالغ فيه، ربما يعاني من حب الأنا كثيرًا، بدأ بالحديث قائلا:

- بالطبع لا يُسمح لنا بالتدخين في غرف العزف كما تعلمون جميعًا، فكيف يُقيَّد الحريق نتيجة إلقاء سيجارة مُشتعلة؟! الحريق كان غير مبرر بالمرة لأن الغرف كانت خالية، ويعلم هذا جيدًا «العم سيد» لكنه أنكر وقال في تحقيق الشرطة «لم أكن متأكدًا من وجود أحد بغرفة العزف!»

هذا الرجل يعلم دبيب النمل وأماكن بيوته تحت أسوار الكلية، فكيف لم يكن يعرف؟ الشيء الغريب في الحريق أن الخشب هو أكثر الأشياء اشتعالًا، مع ذلك كانت الخسائر في الأرضية والجدران المغطاة بالخشب محدودة! كما أننا جميعا نعلم أن مادة العاج الطبيعي المصَّنعة منها أصابع البيانو لا يمكن أن تحترق أو يتغير حتى لونها، ومع ذلك كانت الأكثر تضررًا!! والأشد غرابة أن الضرر ارتسم في أماكن وضع الأصابع على البيانو استعدادًا للعزف! كل ذلك وأكثر لم نجد له إجابات شافية تُريح عقولنا..

انتشرت الهمهمات بين الدائرة، شعرت بصدقه، شعرت بكل علامة تعجب سردها، قطعت الهمهمات مُتسائلة..

- وأين مكان هذا البيانو الآن؟

نظر إليَّ ثم إلى باقي دائرة الطلاب سريعًا وقال:

- لا أستطيع أن أجزم بمكانه؛ لأن سنة حريق الغرفة كانت سنة تخرجي، مرت سنوات عدة، لكنه ربما في «مخزن الهالك»..

سألت في تلقائية بلهاء:

- ومن المسئول عن هذا المخزن؟

ابتسم ونظر إلى الجميع، فأجابتني حنين:

- الدكتور صالح يا فريدة هو المسئول عنه بالطابق الثالث..

ثم نظرت إلى الرجل وقالت:

- فريدة لا تأتي إلى الكلية إلا أيام الامتحانات فقط، لذلك

لا تعرف الكثير عن المكان.

أومأ بالفهم وتابع حديثه الذي لم أنتبه إليه، همست في أذن حنين «أريد أن أرى هذا البيانو»، تراجعت حنين إلى الوراء قليلا لتنظر في عيني مُتسائلة.. «لماذا؟»، ثم همست في أذني دون أن أجيب «لن تستطيعي فعل ذلك إلا بمساعدة الدكتور صالح لأنه في عهدته.. لكن يجب أن أنبهك أنه طلب غريب!».

ثم علا صوت الطالب السابق مرة أخرى وهو يقول..

- اعتقدوا أنني أهذي حينها.. لكنني رأيتها بعيني وهي تخرج من الغرفة من وسط الحريق.. ألقت بشيء محروق في يديها.. واتجهت إلى الدرج لتهبط منه وسط ذهولي.. تتبعتها فتوقفت مكانها ثم أصبحت أمامي في لحظة واحدة وقد كان بيننا مسافة أكثر من مترين على الأقل.. وضعت إصبعها في منتصف جبهتي، فشعرت بألم شديد..

تذكرت الحُلم أو الكابوس.. صاح أحد الطلبة في لهفة مُتسائلًا قبل أن أفعل أنا:

- وماذا بعد؟

أكمل هو وقد تصبب عرقًا وهو ينظر إلى المبنى ويستعيد ذكرياته الغريبة..

- لا شيء.. فقدت الوعي تمامًا وعندما أفقت وجدوا آثار حريق على جبهتي!!

حينها فغرت جميع الأفواه محدقين إلى بعضهم البعض، وساد

الصمت المكان.. لكنني سألته..

- هل كانت ترتدي رداء أبيض اللون؟

التفَّت أعناق وأعين الجمع كله إليَّ في تساؤل... في حين أجابني الرجل على الفور فالتفتوا إليه:

- لا أتذكر لونه، لكنني أتذكر آثار الحروق عليها وعلى ملابسها.. الأفظع من كل هذا كان نظرتها الشيطانية كأنها أرادت أن تؤذيني.. لكن لماذا تسألين هذا السؤال بالتحديد؟ هل رأيتها مثلي؟

عادت جميع العيون إليَّ تنتظر إجابتي بلهفة.. فقلت:

- بالطبع لم يحدث.. أنا أرتجل الحديث فقط ربما تتذكر تفاصيل أخرى.

لا أعلم لماذا لم أسرد الكابوس اللعين، ربما كان عنده إجابة لا أعلمها، ظلت الجموع تتابعني إلى أن خرجت من الدائرة لأتحدث إلى يونس عبر الهاتف، رن هاتفه كثيرًا ثم جاء صوته مبحوحًا، يبدو أنني أيقظته من النوم، لكنه لم يكن كذلك، إنما هو مُصاب ببرد الشتاء اللعين الذي منعني في خجل أن أُكمل محادثتنا القصيرة خشية أن أرهقه.

أغلقت الهاتف ومكثت وحيدة في إحدى البرجولات بالفناء، أفكر في كل ما حدث ويحدث وما سوف يحدث، إلى أن قاطعني نفس صوت المُتحدث منذ قليل بصحبة حنين، كان الطالب السابق يقف على بعد أمتار مني، نظرت إليه، فقدمتنا

حنين إلى بعض:

- كريم.. فريدة..

مد يده للمصافحة وقال:

- أعطيت رقمي الخاص لحنين، سأكون في مساعدتكما إذا أردتما في أي وقت، أو إن كنت أملك معلومة إضافية أو استفسارا مهما لكما، تواصلا معي إذا ما واجهتكما مشكلة ما.. أو ربما مع أحدهم!

قالها وهو ينظر إلى المبنى ثم أعطاني ورقة صغيرة ولم ينتظر إجابتي وانطلق، هل ساوره الشك تجاهي؟ هل كان ما أصابه كابوس مثلي أم حقيقة؟ هل كان ما رأيته كابوسا أم حقيقة؟

الآن أصبحت مشوشة لا أدرك الحقيقة من الأحلام! أين أنت يا يونس..

***

(١١)

كانت تجلس في غرفة العزف تعزف على البيانو نوتة موسيقية لم أميزها في البداية، يقف بجانبها شاب يبدو أكبر منها بعدة سنوات قليلة، يستمع في اهتمام، ثم يصفق ويعيطها إرشادات، فتعزف من جديد بحماس، وهو يستمع أيضًا بحماس كبير، كانا يتحدثان بصوت عالٍ لكنه غير واضح، وفجأة تحول حديثهما إلى همس بعد أن تلفتا وأنصتا خشية أن يسمعهما أحد في الجوار، كانت تهمس في أذنه وتتلفت حولها.

لكنني رأيت شخصًا آخر يراقبهما من خلال النافذة الزجاجية لباب الغرفة، لم أستطع أن أرى وجهه، اقتربت هي مرة أخرى من صديقها لتخبره بشيء، فلمحت هذا الغريب الذي يراقبهما، فتحولت عيناها إلى اللون الأحمر! وبدت ملامحها مخيفة إلى حد بعيد! في حين لم يلتفت صديقها الشاب أبدًا، فجأة اختفى هذا الرجل المُتنصت عليهما، وبدت كأنها لمحتني أنا! ثم وجدت نفسي أقف مكان الرجل المتنصت لا أدري كيف حدث هذا!

نظرت إليَّ في غضب وكدت أموت خوفًا، أردت أن أوضح الأمر فلم أستطع، فبيني وبينها حاجز غريب، أراهن أنها لن تسمعني، ابتعدت فاقتربت هي وفي يدها شيء لم أره من شدة الرعب.. أوشكت أن تخترق الحاجز وتلمس جبهتي، فصرخت مرة أخرى.. ونهضت من نومي يتقطر العرق من جبيني وسط

أنفاس لا ألتقطها.. فاستعذت بالله من الشيطان الرجيم.

وجدت نفسي لأول مرة في حياتي أهاتف رجلا وقت الفجر، كان يونس أول شخص أفكر فيه كي أحتمي به.. جاء صوتي باكيًا مرتعشًا فجاءني صوته قلقًا مهتمًا، حاول تهدئتي دون جدوى وأخيرًا تحدثت في تلعثم واضح:

- يونس.. أريد أن أراك الآن..

- كابوس آخر؟

بكيت على الفور، مرت ساعة ثم هاتفني يونس مؤكدًا أنه ينتظرني أمام سينما «فاتن حمامة» بالمنيل، كانت السينما قد خربت الآن لكننا ما زلنا نطلق عليها سينما، فهي أقرب نقطة التقاء لبيتي، كنت قد استعددت واطمأننت أنني لم أزعج أمي.

كانت المسافة بين غرفتي وغرفة أمي تخدمني في هذا الأمر، فمنزلنا واسع المساحة عتيق التصميم، غادرته مع أول شعاع نور يشق السماء، في طقس بارد لا يدعوك إلا لمشاعر متضاربة بين يأس وهروب، مشيت شارعا طويلا وسط نباح كثير من الكلاب الضالة، كنت أنا المارة الوحيدة في الشارع بأسره في هذا التوقيت، رأيت أنوار سيارة يونس من بعيد تُطفأ وتُضاء في انتظاري، أسرعت الخطى حتى أراه وآنس بوجوده ورائحته التي أحببتها.

فتحت باب السيارة وركبت، فأغلق يونس زر التحكم في الأبواب من الداخل حتى شعرت بالأمان، كأنه قد أغلق علينا أبواب الشر! غريب أن أشعر بالأمان معه لفعله أشياء عادية يفعلها كل من أعرفهم ولا أطمئن بجوارهم! نظر إليَّ في قلق

ومسح دمعة جرت على وجنتي لم أشعر بها، ثم نظر أمامه وانطلق في الطرقات، مضت لحظات صامتة لم نتحدث فيها، تفكيري في شعوري الحقيقي تجاهه غلب على تفكيري في كل ما يدور حولي وعلى أحلامي عندما رأيته.

لماذا أريده بجانبي لهذا الحد؟ لماذا أريده هو بالذات في أحلك أوقاتي وأشدها صعوبة؟ هل أثق فيه حد المُجازفة؟ أم أنني أحتاج إلى السند الذي فقدته بفقد أبي؟ أم أنه هو الرسالة الأهم التي أنتظرها في حياتي؟

«ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ ألا يسرقنا الوقت، لذلك سوف أفصح عن شعوري بشجاعة بلا خوف، لأنه لا حياة مع ضعف وتردد.. فالحياة تعطينا ما حاربنا من أجله وليس ما طمحنا إليه دون بوح»

أردت أن أعيش الحاضر بكل ما يحمله من آمال وخيبات ومُغامرة، فتوقفت عن التفكير، ووثقت لا إراديًا بقلبي للمرة الثانية، وقررت أن أصارحه بما أشعر به، لم أبال بردة فعله، لم أبال إذا ما رأيته نسخة من شخص صارحته فخذلني في الماضي، كان قلبي صادقًا معي منذ البداية لكنني تجاهلته، لم يكذب على قلبي بشأن الأشخاص ولم يخذلني أبدًا لكنني فعلت، أخذت نفسًا عميقًا جعل يونس ينظر إليَّ قلقًا، نظرت إليه وطلبت أن يتوقف بالسيارة في أي مكان، كانت عينيه مرهقة من أثر مرضه واستيقاظه مُبكرًا، نظر إليَّ في جدية وتوقف عند أقرب مكان مُناسب بكورنيش النيل، التفت بجسدي نحوه وقلت في نبرة ثابتة..

- يونس.. لا تقاطعني حتى أنتهي.

بدت نظراته أكثر جدية وأومأ برأسه بالإيجاب، كنت أنظر إلى الطريق أمامنا، إلى السيارات القليلة المُسرعة التي تتجاوزنا، ثم استرسلت في هدوء دون أن أنظر إليه.

- سوف أتحدث في عشوائية ولامنطقية تامة لا تمت إلى شخصيتي بشيء، يونس.. أنا أطمئن إلى جوارك ولا أعلم لماذا؟ أكون أنا عندما أكون معك.. دون رتوش أو تجميل، في أشد أوقات حياتي ظلمة ظهرت أنت، ولا أرى غيرك حينها أواجه مثيلاتها مرة أخرى، أتذكر وجهك في انتصاراتي الصغيرة.. بل أود لو أن تكون معي حينها، أستطيع أن أقول: إنني لن أخجل إذا ما رأيت كل ضعفي، آلامي، شكوكي وخيبات أحلامي، أنا لا أعلم لماذا أنت، ولم أخطط أن أقول ما أقول منذ ساعة مضت، وهذه هي حلاوة الأوقات معك، إنها تأتي طبيعية خالية من الأشياء الروتينية، أنا حقًا لا أعلم لماذا أقول كل هذا الآن في وسط كل هذا الخوف والتساؤلات والكثير من الأشياء اللامنطقية!

توقفت عن الحديث ولم يقاطعني ولم أنظر إليه ولو مرة واحدة، ساد الصمت، ارتجف عقلي وأعاد عليَّ السيناريو القديم المُتعفن فلم أتحمله، هل يخذلني يونس؟ لكنني لم أقل إلا الحقيقة، فهل تأتي الحقيقة من باب واحد فقط لتصطدم بحائط؟ أم أنها تدخل إلى الباب المقابل المفتوح؟ لم يتخل يونس عن صمته، فقررت أن أواجه عيناه وأواجه قلبي معه.

نظرت إليه، فوجدت وجه رجل وسيم تبدل إلى وجه طفل

يترقرق دمعه أمامي في فرحة دون خجل، كانت فرحتي به وبصدق قلبي تدعوني بشدة أن أحتضنهما معًا وبقوة، ابتسمت له وتبدل الصمت إلى لغة أخرى لا يعرفها إلا المحبون، نعم أستطيع الآن أن أفهم معنى الحب، فاض الدمع من عيناه فأسرع في مسحه وابتسم، فابتسمت فضحك فضحكت، أخيرًا تحدث يونس في فرحة واضحة..

- لم أكن لأحلم بنصف كل هذا.. حديثك هذا كان حلمًا بعيدًا، كل ما تمنيته أن تكوني بقربي في يوم من الأيام، لا أنكر أنني تجرأت في بداية الأمر واقتحمت خصوصيتك وبيتك، لكن الله كان قد هيأ سببًا قويًا لذلك، أردت بصدق أن أكون عونًا لكِ، يعلم الله أنني لم أنو استغلال الفرصة، كان لابد أن أذهب لبيتك وأراك وأطمئن عليكِ، وكنت قد فكرت مرارًا كيف أجعلك تنتظمين في حضور المحاضرات وكل تلك الأمور المتعلقة بالدراسة حتى أتقرب منكِ..

سكت عن الكلام ونظر إلى عيني مباشرة، فنظرت إليه كأني أراه أول مرة.. فقال في حنان:

- كنت على يقين أن بابك سوف يُفتح لي يومًا ما، أنا أصدق قلبي يا فريدة.. الصدق يصل بقلب صاحبه للأمان مهما طال الزمن، أردت بشدة أن أكون مصدر أمان لكِ وها أنت لا تطمئني إلا بجواري، فريدة.. أنا سعيد.

* * *

(١٢)

بعد عدة أيام استيقظت ذلك الصباح الباكر وباتت عندي رغبة قوية في الذهاب إلى الكلية، رغبة لمعرفة ذلك الشيء المُريب، شعور عميق يزداد بأن ما حدث معي يُجبرني على البحث، لكني راقبت نفسي وأنا أتهيأ للخروج، رأيتني أنتقي ملابسي على غير عادتي اللامبالية، أضع قليلًا جدا من مساحيق التجميل.. أنسق خصلات شعري بشغف وحب له، ربما تماديت قليلًا في زينتي دون أن أشعر، هل أفعل ذلك من أجل يونس أم من أجلي؟ لا أريد تضليل نفسي، لكنني بعد أن عرفته علمت أنه في الحب هناك من يُظهر أجمل صفات حبيبه أو أسوأها.

شعور بالذنب متوازٍ مع كل ذلك لإهمالي مذاكرتي مؤخرا، أؤمن أن النجاح لا يأتي صدفة، لابد من بذل الجهد والوقت لجعله ممكنًا، كان يونس يدعمني لاكتشاف الأمر كما قال ويذكرني بدراستي أيضًا، معادلة صعبة لكنها ممكنة مع إنسان مثله، يونس إنسان نادر الوجود كما قالت حنين، عرفت ذلك بعد أن عرفته عن قُرب، في إحدى مُقابلاتنا أبدى رغبته في التقدم لخطبتي ونعلن الأمر، لكنني كنت أجبن وأضعف من خطوة كهذه، على الأقل في هذا التوقيت، طلبت منه تأجيلها لميعاد أنسب فوافق في

تفهم وحُلم.

أتذكر أثناء إحدى لقاءاتنا في الكلية أخبرته بأمر الطالب السابق وما قاله، كنت حريصة على أن يعلم كل شيء أعلمه أو أمر به، لكنه قال في سلاسة:

- سمعت بشأن هذا الحريق بالطبع، يقولون: إنه كان أمرا مفجعا، بعض الطلبة احترقوا بإحدى غرف العزف، والمُحزن أنهم لم يستطيعوا إنقاذهم!

كُلما تذكرت ما قاله أصابني التوتر، كانت الأحداث الصغيرة تتوالى في الطابق الثالث مع الطلاب كما تناثرت الأقوال، لعلهم يحلمون مثلي، كنت أُصر على وجود تفسير لما حدث معي في غرفة العزف، كنت على وشك الوصول إلى الكلية، لم أدرِ هل كان الطريق مزدحمًا أم لا؟

فأفكاري وتوقعاتي وتخوفاتي قد ازدحمت برأسي حتى إنني فقدت الإحساس بالزمن، وجدتني فجأة أعبر حديقة الكلية لأجد نفسي مباشرة أمام المبنى، «العم سيد» ينظر إليَّ ويبتسم في وداعة! هذا المبنى وهذه الوجوه تبدو طبيعية جدًا في وضح النهار، يُخيل إليَّ أن العم سيد هذا تتبدل ملامحه ليلًا ليصبح نسخة مُحتملة لشيطان ماكر، تجاهلته ثم توجهت إلى حضور المحاضرات.

بدا لي نهارًا ثقيلًا مملًا بدون يونس، قررت أن أن أركز وأنغمس في الدراسة لكي لا أشعر ببطء الوقت، وقد كان، أسرعت ساعة الوقت في مرورها وقد اقترب ميعاد التدريب في

غرفة العزف، لاحظت أنني لم أتناول شيئًا من الصباح فذهبت إلى الكافيتيريا لأبتاع شيئا، كان الدكتور قابيل يشرب قهوته على منضدة قريبة مني، قابلني بابتسامته المعهودة وبشاشته التي تشعرني بالاطمئنان، وكان البائع يعطيني شطيرتي والقهوة، ذهبت لأسلم على الدكتور قابيل فهو شخص ودود مع جميع الطلاب ولم يرفض لأحد طلبا قط، عرض عليَّ أن أشاركه المنضدة فرحبت، كان يونس لم يأتِ بعد، لم يكن ليأتي إلا في ميعاده الطبيعي لئلا نثير الشكوك حولنا، أخذ الدكتور قابيل يتحدث معي في ود:

- هل تسير أمور الدراسة والعزف معكِ على نحو جيد يا فريدة؟

أجبت سؤاله الروتيني..

- إلى حد كبير نعم.

أكمل وهو يرتشف القهوة ولا ينظر إليَّ:

- هذا شيء عظيم؛ لأن غالبية الطلاب خائفون من المبنى، ولا يأتون إلا في النهار، جميل أن أراكِ في هذه الساعة المتأخرة في الكلية.. تعجبني شجاعتك وإخلاصك للموسيقى يا فريدة.

قلت في حماس واندفاع:

- أنا لا أستسلم يا دكتور..

قال في تلقائية وهو ينظر إليَّ بإعجاب:

- جميل.. جميل.

فكرت في أن أسأله عن المبنى وما يحدث فيه ولماذا اقترح في الماضي نقل الكلية لكنني ترددت ويبدو أنه لاحظ فقال:

- أتريدين قول شيء ما؟

قلت في تردد:

- لا شيء سوى غرابة ما يحدث فعلا يا دكتور قابيل، سمعت من بعض الزملاء أنك طلبت سابقًا أن يُنقل مقر الكلية إلى مبنى آخر لكن تم رفض طلبك من الوزارة! هل هذا حقيقي؟

ابتسم وقال في عدم اكتراث:

- هذا المبنى لعين لا تعيش فيه الأسرار.. إنما الأشباح فقط:

ثم أطلق ضحكة على ما قال كأنها نكتة، فابتسمت مُجاملة وقلت بنبرة تائهة:

- من يدري؟

أكمل قهوته ووضعها على المنضدة وبدا يلملم أغراضه استعدادًا للمغادرة وهو يكمل حديثه:

- المبنى كما ترين غير مناسب للدراسة، الكثير من القصص ولا أحد يدري أين الحقيقة:

لمح يونس فعلا صوته وهو يصافحه:

- ها هو بطلي الهُمام قد أتى.. لابد أنها حصة عزف:

صافحه يونس مبتسمًا وناظرًا إليَّ وقال..

- ها هي أمامك في إنتظاري لا يفوتها شيء إلا وتدربت عليه..

نظر إليَّ الدكتور قابيل في مرح وقال:

- فنانة مجتهدة يا ابنتي.. سيكون المستقبل أجمل بإذن الله.. ثقي في نفسك قبل أي شيء.

نظرت إليه في ود وقلت:

- أشكرك يا دكتور وأتمنى ذلك.

رحل الدكتور قابيل وكان لكلماته وقع طيب جميل على روحي، جلس يونس ينظر إليَّ لحظات في حب صريح أشبع روحي أكثر بعد كلمات الدكتور قابيل، فتوقفت عن كل شيء أفعله إلا أن أملأ عيني ونفسي منه، فهم يونس كل هذا وأراد أن يقطعه عن عمد لمصلحتنا، كما اتفقنا وأصررت أنا من قبل ألا يعلم أحد عنا، وياليتني ما فعلت، أريد أن أبقى في حرية معه الآن، نظر يونس حولنا وقال في حماس:

- كم تدفعين لمعرفة خبر مثير؟

كان ذكيًا ليحول تفكيري إلى شيء مختلف تمامًا، الآن أخمن ماذا يقصد؟ نظرت إليه وابتسمت وأنا أريد أن أفهم..

- خبر مثير متعلق بأي أمر؟

قال في سرعة:

- وهل يوجد الكثير من الأمور المهمة هنا؟

فكرت أنه ربما خطبني من والدتي كمفاجئة؟ فقد اقترب يوم مولدي وسيكون يوم حفل التخرج أيضًا.. ابتسمت وقلت في بلاهة لم يعهدها عليَّ..

- لا أعلم.. ولا أريد أن أخمن.. فلتقل في سرعة:

تلفت في حذر واقترب ثم قال..

- أخيرًا تمكنت من أخذ موافقة الدكتور صالح لفتح غرفة مخزن الهالك، أتتذكرين ما قاله الطالب السابق؟ أتتذكرين أنكِ أردتِ رؤية البيانو المحروق؟ غدًا يحدث هذا.

رغم أهمية ما قاله إلا أن أملي قد خاب كثيرًا، ثم انتبهت أنني أصبحت مثل بقية البنات بعمري أو مثل بقية البنات فحسب، كلنا نملك نفس العقلية في الحب مهما كبر أو صغر العمر، حاولت أن أرسم الحماس على وجهي وأفتعل صوتًا آخر ثم قلت:

- فعلا؟ هذا أمر أنتظره بشدة.. وكيف حدث هذا؟

نظر إليَّ يونس وقد اكتشف أمري وتبسم في لؤم ثم قال:

- قلت له إنني بصدد عمل بحث عن عمر الآلات الموسيقية الافتراضي، لذلك أريد أن ألجأ لمخزن الهالك لرؤية بعض الأمور عمليًا، لم يكن الأمر سهلًا أبدًا، هذا الرجل لا يريحني يا فريدة.. أعني الدكتور صالح.

قلت..

- أوافقك الرأي تمامًا.

سرح يونس قليلًا ثم قال..

- لقد وافق على مضض وبعد كثير من الإلحاح، أعلم أنه ليس من صلاحياتي لكن تمسكه بأن يؤجل الأمر لكي يكون معي كان لافتا للنظر والبحث وراءه أيضًا.

قلت بعد تفكير:

- هل تظن أننا يمكن أن نستعين بالدكتور قابيل إذا ما تطلب الأمر؟

كان يونس يفكر فيما قلت ثم رد:

- ربما نفعل ذلك.. دعينا لا نستبق الأحداث.

جاء ميعاد العزف فصعدت الدرج بجانبه، وكلما صعدنا طابق نظرنا إلى بعض، تبوح العين بما يعجز اللسان عن البوح به، نسيت أمر الطابق الثالث فترة ولو قصيرة من الزمن معه، أشعر كأنه يفك كل قيودي دون أن يفعل شيئا ملموسا، لكنه يفعل كل هذا بروحي في انسيابية لا مجهود ولا تصنع فيها.

الطابق الثالث بكامل إضاءته، دخلنا الغرفة، وبدأنا بتجهيز البيانو ومقطوعة النوم الأسود وبدا كل شيء طبيعيا، يُخيل إليَّ أن النوتة الموسيقية بانتظاري أيضًا، أتعامل معها كمُعلم ثانٍ، نظرت إلى يونس فوجدته مشغولًا.. فسألته.

- بماذا تفكر؟

نظر إليَّ وقال:

- كل ما أنتظره أن أجد في المخزن هذا البيانو المحروق الذي يتردد أنه شهد حريق غرفة العزف:

نظرت إليه وتذكرت الحلم على الفور:

- أتمنى لو أعرف أسباب الحريق الحقيقية وكل شيء عن هذا المكان.

قال يونس:

- علمت من بعض أقاربي أن ما قاله كريم الطالب السابق هو بالفعل ما يتردد، أن النيابة حينها أغلقت الغرفة بشمع أحمر لحين الانتهاء من جمع الأدلة، وتم فتحها مرة أخرى بعد سنوات بعد أن قُيدت أسباب الحريق نتيجة سيجارة مشتعلة، هراء أصدقه في مكان آخر.. لكن ليس هنا.

تذكرت ما قاله عمن ماتوا محترقين فسألته:

- أتعلم أي الغرف التي احترق بداخلها الطلاب كما ذكرت؟

أجاب في بساطة:

- هنا، غرفتنا هذه التي نتدرب فيها يا فريدة! هيا فلنبدأ العزف!

***

(١٣)

كان عزفي ليلتها مُرتعشًا خائفًا، وهذه النوتة الموسيقية صعبة ومعقدة، لكن بها شيء ما يجذبني بشدة كمغناطيس قوي، لا أستطيع أن أتركها أبدا، حتى إنني في أوقات شرودي أجد نفسي أدندن ببعض نغماتها دون وعي.

لكنها تحتاج إلى تمكن من الآلة الموسيقية، وأنا الليلة خائفة، نعم كُنت خائفة، فهذه هي نفس الغرفة التي تُغلق فيها الإضاءة دون سبب، وهي الغرفة التي امتلأت بالمياه وكانت جافة تمامًا! وهي الغرفة التي تدور فيها كل أحلامي المزعجة، وهي الغرفة التي احترق فيها أحدهم!

أحس يونس بحالتي وفهم أنني لن أستفيد من العزف تلك الليلة، فاقترح أن نرحل وأوصلني إلى البيت قبل الانتهاء من التدريب.. وفي الطريق شردت منه كثيرًا.. هذا الصوت الآتي من أعماقي قد ملأني إصرار بتغيير كل ما لا أرغب في وجوده في حياتي، أن أمحو هذا الخوف بداخلي، لأكون حقًا ما أردت أن أكون، لأصبح كل الأحلام التي راودتني حين كُنت على يقين من تحقيقها، أنا الثائرة على الحياة بكل ما تحمله من خوف وإحباط لنا، هذا الصوت الذي أسمعه الآن، إنه ليس صوت عقلي اللاواعي،

إنما هو صوت ضميري الذي استيقظ معي هذا الصباح.

كُنت قد سألت كثيرا زملائي عن أحلامهم، فلم يذكر أحد منهم شيئًا مُزعجًا، فكرت حينها لماذا أنا؟ لكنني الآن أرى أحلامي رسالة لابد أن أتتبعها، بل إنني أتوق إلى معرفة المزيد، هل اختارني الله لمعرفة سر ما؟ إذا كان الأمر كذلك فلتكن مشيئة الله.

ذهبت إلى الكلية في الصباح، عند البوابة رأيت «العم سيد» يشير إليَّ بالتحية، فتظاهرت أنني لا أراه مستغلة نظارتي الشمسية، اتجهت مباشرة إلى غرفة العزف لأتدرب ولأكسر في نفسي خوفا أحاطها، صعدت الدرج في نشاط كأنني في مهمة، قابلت الكثير من الزملاء في طريقي ورددت تحيتهم، جاءني صوت أحدهم مُنبهًا:

- الطابق الثالث خالٍ الآن يا فريدة..

الآن أعلم مغزى التنبيه، أومأت برأسي أنني أعلم دون أن أرى المُتحدث، ثم ابتسمت كأنني على ميعاد أنتظره، تخطيت الغرفة وذهبت أولا إلى صندوق الكهرباء وتأكدت من فتح أزرار الإضاءة كلها، ثم رجعت إلى غرفة العزف.

ها هي غرفتي المفضلة للعزف، عند مدخل الغرفة وقفت أنظر إليها في حيرة، ليت الجدران والأرض والنوافذ تحكي عن ماضيها وساكنيها، من صانها ومن أساء إليها، ليقولوا: إنهم كانوا هنا يتحدثون ويضحكون، يرقصون ويلعبون، يبكون في قوة، أو أنهم كانوا تُعساء لم تُحبهم الحياة، أو جُبناء لم يقدروا على

مواجهتها، سيكون الجماد أصدق من كل ابن آدم بلا شك، فليس له غرض ليكذب أو يزور الحقائق.

فتحت معزوفة «النوم الأسود» أمامي و بدأت بالعزف في تحدٍ كأنني أتمنى لو كان صوت البيانو أعلى من ذلك، كنت أضغط على أصابعه في عصبية، جاء اللحن مُبتذلًا لم تحبه أذني، توقفت وأخذت نفسًا عميقًا ثم بدأت من جديد، كان بلا شك أجمل من سابقه، خاصة أني أنظر إلى السماء عبر النافذة أمامي، لكنه ما زال لا يروقني، انتهيت من العزف ولم يحدث شيء! الاضاءة كما هي لم تُغلق، هل كان يجب أن أخاف لتحدث الأشياء الغريبة؟ أم أنها لا تحدث إلا للخائفين فقط؟

ما زال الوقت مبكرًا للمغادرة، أردت أن أتدرب أكثر على أية حال عزفا وغناء، وعند مقطع معين رأيت يمامة بيضاء تقف عند النافذة، تنظر لي وللغرفة، توقفت عن العزف والغناء فنظرت اليمامة من النافذة إلى الخارج كأنها ستطير، ثم بدأت العزف مرة أخرى فرأيتها تدقق النظر في الغرفة مرة أخرى! هنا علمت أنني بصدد الجنون إذا ما تماديت أكثر من هذا، إنها حركات اليمام الطبيعية، فقط يظل ينظر في كل الاتجاهات، توقفت عن كل شيء.. فجأة طارت اليمامة لأعود إلى تركيزي.

أغمضت عيني وأخذت نفسًا أعمق ثم بسملت وبدأت من جديد، كان العزف هذه المرة في تمهل قصدته، استمتعت كثيرًا ونسيت كل شيء، أنا أعشق الموسيقى حد التقديس، فبها ومعها

أنسى كل شيء ولا يبقى من الدنيا إلا أنا وهي فقط.

بعد أن انتهيت لملمت أشيائي واستعددت للمغادرة بعد أن وصلت لمستوى أكاد أرضى عنه، نظرت للغرفة نظرة أخيرة فلم يحدث شيء، أغلقت الباب وانصرفت، كان الوقت باكرًا لحضور الطلبة إلى غرف العزف، ذهبت إلى صندوق الكهرباء وأطفأت كل الإضاءة مرة واحدة، ثم مشيت إلى الدرج مرورًا بالغرفة وشرعت في هبوطه، وما إن هبطت بضع درجات حتى سمعت النوتة الموسيقية تُعزف وحدها!

توقفت مكاني بُرهة قصيرة، التفتُّ إلى الطرقة وقد بات كل الطابق مظلمًا الآن، بقيت أستمع في إنصات وأراجع بضع معلومات لا تحتاج إلى مُراجعة، إنها نفس النوتة الموسيقية الذي أتدرب عليها! «النوم الأسود»!! الطابق الثالث خالٍ تمامًا! جميع الآلات في الطابق الثالث فقط! الجميع في الطابق الأول والثاني لحضور المحاضرات، أو للرسم أو للنحت فقط! ها قد بدأت اللعبة!

قررت أن أصعد مرة أخرى على مهل، فتحت كشاف هاتفي المحمول وكُلما صعدت درجة واقتربت وضح صوت البيانو أكثر، كانت مشاعري تختلط وتموج كالبحر الهائج بين تحدٍ وخوف أحاول التغلب عليه، أخذت أقترب أكثر وأكثر من الغرفة والصوت يتضح أكثر وأكثر، بدأت في قراءة آية «الكرسي» حتى أتحصن مما لا أعرفه، وقد علمني يونس التعوُّد على ذكر الله، كنت أطمئن نفسي أن الله معي في كل خطوة أخطوها، وأنه خالق

الأسرار وما لا أستطيع رؤيته أو معرفته كما خلقني، فهو الحافظ على أية حال ولا ينبغي أن أخاف.

أخذ الصوت يزداد علوًا، لم أسمع عزفا متقنا كهذا في حياتي! هذا العازف ماهر جدًا، لولا أنني لا أراه لاستمتعت بحق، قُبيل باب الغرفة أغمضت عيني وأخذت أعمق نفس في حياتي وفتحتها، ياللا المفاجأة.. لم يكن العزف آتيًا منها! العزف مازال مستمرا لكنه يأتي من غرفة ما قريبة جدا لكني لست أعلم ما هي.. هل أتفقدهم جميعًا؟ على أية حال عدد الغرف ليس بالكثير، سوف أفعل، أم أن من يعزف يتنقل بين الغرف على سبيل اللعب معي؟ سخف خطر ببالي.. هل سينقل نفس البيانو معه أيضا؟! ياالغبائي!

وقفت عند باب الغرفة أنظر للغرف بالخلف ناحية الدرج، وقتها خُيل إليَّ أنني أرى طيفًا أبيض ورائي عند صندوق الكهرباء، التفتت في سرعة ووجهت الإضاءة نحوه.. فلم أجد شيئًا، لكن بات واضحًا أن الصوت يأتي من الأمام وليس الخلف، بدأت في السير نحو صندوق الكهرباء في آخر الطرقة مرورًا بالغرف، أقف عند كل باب أفتحه فلا أجد شيئًا، ويستمر العزف ويستمر إبهاري من شدة إتقانه وعذوبته! كُلما اقتربت من صندوق الكهرباء سمعت اللحن أوضح وأعلى، لم أعرف هل أخاف أم أستمتع بهذا اللحن الذي أتمنى أن يأتي يومًا أعزف نصف جماله!

وقفت عند صندوق الكهرباء أخيرًا، وهنا كانت المفاجأة.

كان اللحن آتيًا من غرفة مخزن الهالك! وضعت أذني عند الباب ولم أكن بحاجة لذلك، فالغرفة مصدر الصوت بلا شك، كيف يكون العزف بهذه الدقة على بيانو غير صالح للعزف في مخزن الهالك؟ فجميع الآلات به لا تصلح للعزف! وفي ظل وجود هذا القفل الكبير على بابه.. من دخل ومكث وعزف في الظلام!

ظللت واقفة دقيقة كاملة أستمع باقي اللحن إلى أن انتهت مقطوعتي الغريبة الرائعة! وبدون تفكير طرقت الباب، رغم القفل على الباب، ما زلت أتعامل مع الأشياء على أنها لابد أن تكون منطقية، فقط لأنني لم أر حولي أشياء غير منطقية من قبل!

وضعت أذني عند الباب لعلي أسمع شيئًا آخر، لكنني لم أسمع غير صوت السكون، فجأة رن صوت هاتفي وجاء مزعجا للغاية في هذا السكون.. انتفضت وكاد قلبي أن يتوقف، إنه يونس يتصل أخيرًا.

***

(١٤)

في هذا اليوم لم أستطع حضور أي من المحاضرات، لم أتناول الطعام، الكثير من القهوة ولا شيء آخر، كنت ألوم نفسي لعدم تسجيل العزف الذي سمعته من مخزن الآلات الهالكة، لم أحسن التصرف، مكثت في كافيتريا الكلية أنتظر يونس الذي قلق لما سمع صوتي خائفة حين رن الهاتف، رأيت «العم سيد» يراقبني، كلما رأيت هذا الرجل ونظراته الغريبة سيطر على تفكيري شعور أنه يراقبني لسبب ما غير مراقبته المعتادة لبقية الطالبات؟ بدأت أشك في أن هذا الرجل يتتبعني! إنه كما قال كريم «يعرف دبيب النمل وأماكن بيوته»، لم أكن خائفة من شيء أو أحد وقتها، فقط أفكر في الكثير من الأسئلة، هل نجد لها إجابات شافية؟ أم نظل مثل كريم وجميع الدفعات السابقة لا نعلم شيئًا؟

مر الدكتور صالح من أمامي، أشعر أن هذا الرجل يعرف شيئًا، شخصية تحمل الكثير من الغموض، ثم جاء الدكتور قابيل يبتاع قهوته ويسلم عليَّ في عجلة، استوقفته لأقول له شيئًا لم أرتبه ولم أكن واثقة في الحديث معه قبل أن يوافق يونس فهو شريكي في الأمر، ولا أريد أن أتسبب في مشاكل له، ابتسم الدكتور قابيل وتساءل:

- أراكِ شاحبة هذا المساء يا فريدة.. هل أنتِ بخير؟

قلت:

- أنا بخير فقط تواجهني صعوبة في النوم هذه الأيام..

جاء يونس وكان قلقًا على إثر المكالمة التليفونية الأخيرة، توجه مباشرة نحوي كأنه لا يرى الدكتور قابيل من فرط قلقه، وقال بصوت مسموع:

- ماذا حدث؟

لا ألومه في ذلك فقد كنت خائفة إلى حد الموت عندما رن هاتفي كأنني نسيت وظيفته الأساسية، نظر إلينا الدكتور قابيل وقال:

- يبدو أن الأمر أكبر من مجرد صعوبات في النوم!

هنا انتبه يونس إليه وألقى سلامه ثم قال في تلقائية:

- تحدثت معي فريدة بالفعل وكانت مريضة لتلغي عزف اليوم، فلماذا لم تغادري إلى الآن؟

نظر إلينا الدكتور قابيل نظرة ذات مغزى وقد فهم أن يونس يُواري أمرًا عنه ثم قال بحرج:

- ألف سلامة يا فريدة.. على العموم سأكون مستعدًا لمساعدتكما في أي وقت على الرحب.

في هدوء قال له يونس متداركا:

- أشكرك يا دكتور.. سننتظر قليلًا لنرى حالتها، فإذا تحسنت نبدأ العزف وإذا انتكست أوصلتها لبيتها.. لا تقلق، لكن ألم تبدأ إجازتك اليوم؟

قال الدكتور قابيل:

- بدأت إجازتي من اليوم بالفعل لكنني اضطررت أن أعطي

الدكتور صالح بعض الأوراق، ثم أسافر مع العائلة، تعلم أنني أفضل السفر ليلًا.

رد يونس بود ملحوظ:

- لتنتبه إلى الطريق إذًا ولتصحبك السلامة.

شكر الدكتور قابيل يونس ثم رحل.. جلس يونس وقد عاد إليه قلقه من جديد وسألني:

- ماذا حدث؟ أخبريني بالتفصيل.

سردت له ما حدث فلامني على جرأتي كثيرًا، وعلى وعدي الذي نقضته بأن أبقى إلى جانبه طوال الوقت خاصة في هذا الأمر، جددت وعدي مرة أخرى في صدق، وبعد أن انتهينا من القهوة، قال يونس:

- الآن يجب أن نصل إلى غرفة العزف للتدريب كما أخبرنا الدكتور قابيل والا سيشك في أمرنا.

قلت متسائلة..

- هذا يعني أننا لن ندخل مخزن الهالك الليلة؟

قال في ثبات:

- في منتصف وقت العزف وعندما يخلو المبنى من الطلاب والأساتذة أتركك بمفردك آسفًا لتفقد المكان لأي حُجة، إذا ما كان قد رحل الدكتور قابيل ندخل مخزن الهالك.

أومات بنعم، وتمنيت أن يرحل الدكتور قابيل الآن.

ذهبنا إلى الغرفة وكانت بقية الغرف مُزدحمة هذه الليلة،

تعُج بالمتدربين على جميع الآلات، بدأت العزف ومع كل هذه الأصوات لا تملك إلا أن تحب الحياة من جديد، وتنسى كل شيء يزعجك رغمًا عنك، في استراحة قصيرة خارج الغرفة بدأ العازفون في الرحيل واحدًا تلو الآخر، أيضًا المعيدون والدكاترة، ولمحت الدكتور صالح ينظر إليَّ كما ينظر العم سيد تمامًا! بدأ الطابق الثالث يهدأ رويدًا رويدًا، وكنت قد تدربت بما يكفي ولا أستطيع الانتظار أكثر من هذا، فدخلت الغرفة وقلت ليونس..

- مر نصف الوقت.. ألن تذهب كما قُلت؟

ابتسم يونس كأنه ينظر إلى طفلة وقال:

- أنتِ مُتحمسة حقًا..

- بالتأكيد..

نظر يونس إلى الساعة وأخذ مفتاح سيارته وقال:

- لن أتأخر.. كوني حذرة ولاتندفعي في فعل أي شيء..

أومأت له إيجابا وشعرت بكثير من الآمان، بدا لي أبا حنونا أكثر من حبيب، أحببت فكرة أن يكون أبا لأولادي حينها، أحيانًا أفكر في أشياء لا تمت بصلة لما أنا فيه من مواقف! خرج يونس وبقيت أنظر إلى الجدران وأتمشى في الغرفة الصغيرة، وأسمع الطلبة ينسحبون بهدوء من الطابق الثالث.

خرجت من الغرفة على استحياء لأستكشف بنفسي ماذا يحدث خارجها، الغرف شبه خالية إلا من طلبة قلائل يستعدون للرحيل؛ لأن الطابق بدا شبه خالٍ، وهذا أمر يزعج الطلاب

خشية أن يحدث شيء غير منطقي آخر، عُدت إلى الغرفة وبدأت في إصدار أصوات من الحقيبة والنوتة وكأنني أستعد للرحيل مثلهم، بعد برهة أتى يونس ترتسم ملامح الجدية على وجهه، نظر إليَّ فرأى أنني أستعد للرحيل فقال:

- هل حدث شيء؟ هل تغادرين؟

تبسمت وأجبته بصوت خافت..

- لملمت أغراضي لأوحي لمن يتفقدني أنني أغادر بالفعل، تحسبًا لأي موقف.

- يعجبني تفكيرك، الآن.. غادر جميع الطلبة، والأساتذة والمعيدون جميعهم.. بالطبع إلا «العم سيد»، لا أريده أن يشك في أمرنا، سوف أدخل أنا الغرفة أولًا لأرى ما بها وأتفقدها.. أريدك أن ترحلي فعلًا، بعد مرور دقائق أمامه وعند البوابة تظاهري أنك نسيت هاتفك لنكسب مزيدا من الوقت وتصعدي من جديد، حينما تأتين إلى المخزن لا يجب أن يستغرق الأمر أكثر من دقائق معدودة.

كنت أثبت عيني في عينه لأستمد منها قوة لا أعلم مصدرها، قلت في ثبات:

- فهمت..

ذهب يونس ووقفت مكاني أسمع صوت خطواته على الأرض، صوت المفتاح في باب الغرفة، صوت الباب يُفتح ويُصدر صريرًا خفيفًا، ثم سكونا، تعلقت عيني على الساعة فوق

البيانو، بعد دقائق هبطت الدرج بالفعل، المبنى خالٍ تمامًا، في بهو المبنى سمعت صوت «العم سيد» عاليا يتحدث عبر الهاتف في الخارج، أو لعله يتحدث مع فرد أمن آخر، مررت بجانبه دون أن أنظر إليه، عبرت البوابة وانتظرت قليلًا ثم تفقدت حقيبتي كثيرًا، ثم تفقدت جيوبي كأني أبحث عن شيء، ثم هرولت إلى الداخل مرة أخرى كأنني على عجلة من أمري.

وهكذا دخلت المبنى مرة أخرى، في البهو كان الظلام قد حل به من كل جانب فأصبح مخيفًا، خرجت لأخبر «العم سيد» بأن يضيء بعض المصابيح لكنني ترددت، لم يخبرني يونس أن أفعل ذلك، ربما أفسدت خطته؟ لكنني أردت أن أجعل الأمر طبيعيًا، قبل أن أصل إليه سمعته يقول مطمئنًا «لا يوجد غيرهما بالداخل»! تسمرت مكاني قبل أن أصل إليه وقفز الدكتور صالح إلى ذهني، لم أعرف هل أفاجئه ليعلم أنني سمعته أم أتركه وأراقبه؟

اخترت ألا يعلم، فناديت عليه قبل أن أصل إليه بحُجة الخوف من الظلام، لما وصلت إليه كان مرتبكًا بعض الشيء، لقد أغلق هاتفه في الحال، عرفت ذلك لأن إضاءته ما زالت تعمل، أعتقد أن هذا الرجل لم يعتد ما هو عليه، أو على الأقل يشعر بفعل خطأ بداخله، فلو كان كاذبًا محترفًا لكان في قمة الثبات الآن، أخذ يتفحص وجهي كأنه يسألني «هل سمعتيني؟».. بادرت في تلقائية وقلت..

- الظلام بالداخل مخيف.. لم أستطع أن أصعد، هل تُنير

بعض المصابيح في بهو المبنى من فضلك يا عم سيد؟

قال في سرعة..

- بالطبع.. لم ألحظ ذلك.. شكرًا لكِ.

ابتسمت له في سذاجة وقلت..

- أشكرك.

ابتسم الرجل في شك وظلت نظراته تُلاحقني إلى أن اختفيت من أمامه، صعدت إلى يونس الذي بدأ القلق يتسرب إلى قلبه، اتجهت مباشرة إلى غرفة المخزن، مرة أخرى تلفتُّ حولي لأتأكد من عدم وجود أحد، إذ إنني لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن أكون في هذه الغرفة مع يونس، دخلت الغرفة فاستقبلني يونس في قلق:

- لماذا تأخرت هكذا؟

- ليس الآن.. أخبرك لاحقًا، لابد أن نسرع.. أين هو البيانو؟

أشار إلى بيانو من النوع الكبير في زاوية من زوايا الغرفة مُغطى بقماش أبيض مُتسخ وقال..

- لقد تفقدت أغلب الآلات ولم أجده.. أشك في أنه المُغطى في الزاوية هناك..

الغرفة حقًا كبيرة، حجمها ككل غرف العزف مُجتمعة، مررت عبر كثير من الآلات الهالكة كما يسمونها، لا أحب أن أرى الآلات بهذه الحالة أبدًا، وقفت أمام البيانو وقد كشف يونس عن لوحة مفاتيحه، وبالفعل كان هو.. العجيب أن ما

ذكره (كريم) حقيقي، البيانو كله بحالة جيدة جدًا، بيانو كبير غالي الثمن، كيف يحترق العاج؟! بل يحترق في أماكن وضع أصابع اليد فقط! يحترق على هيئة أصابع!

في سرعة كان هاتفي يحتفظ بصور كثيرة للبيانو كله، من بعيد ومن قريب ومن زوايا مختلفة، كان يونس يتفقد الطرقة كأنه يتفقد صندوق الكهرباء، عندما هممت أن أخرج كان صوت داخلي يحثني أن أكشف الغطاء عن البيانو كله، كان الفرق بين تكوينه الخارجي والأصابع المحروقة رهيبا، كأنه بيانو لم يستعمل وقد ركبوا عليه أصابع عاج محروقة!

نظرت إليه في تمعن وأردت أن أراه من الداخل، فتحت الذراع الخشبية فشهقت، أتى يونس مُسرعًا، وقفنا مذهولين مما وجدنا، قد يكون بداية الخيط الذي نبحث عنه، جزء من نوتة موسيقية محروقة الأطراف وظرف كبير، لم أعُرِ النوتة الموسيقية انتباهي.. أردت أن أرى ما بداخل الظرف، الظرف الأبيض الذي اصفر لونه بمرور الوقت، فتحنا الظرف في وجل، كان مملؤا بالصور القديمة، صور أناس لا أعرفهم، أخذنا نقلب فيهم بسرعة من فرط فضولنا، فشهقت مرة ثانية، هنا أمسك يونس بقايا النوتة الموسيقية وأخذ مني الصور ووضعها في الظرف ثانية ثم في حقيبتي وقال في حزم..

- لابد أن تغادري الآن..

أجبته على الفور:

- هل تعلم من في الصور؟

أجابني بصوت خافض وهو يتلفت حوله..

- لدينا كل الوقت لنكتشف لاحقًا..

خرجت ووقفت أمام باب الغرفة ثم قلت:

- هل أقابلك بعد قليل؟

ربت يونس على كتفي في مودة وقال:

- بل أقابلك في الصباح الباكر في الكافيتيريا القريبة من بيتك، الوقت تأخر الآن، كان يومًا مليئًا بالأحداث، نشرب القهوة في الصباح.

- وأنت لا ترهق نفسك أكثر من اللازم.. أراك في الصباح.

ابتسم يونس، كنت مستعدة لأذهب فتفاجأت بالعم سيد يقف عند بداية الدرج ينظر إليَّ ويقول في شك:

- وجدتك قد تأخرتِ.. فصعدت لأطمئن على سلامتك..

علا صوت يونس عن عمد وهو يغطي البيانو بهدوء:

- جئت في وقتك يا عم سيد.. أين أنت يا رجل، تعال لتساعدني..

قلت بصوت عالٍ أيضًا..

- أقترح عليك أن تلغي هذا البحث يا يونس، يكفي رائحة الغرفة العفنة..

ثم نظرت إلى رجل الأمن في خُبث وقُلت:

- لا تقلق يا عم سيد فقد وجدت ما أبحث عنه أخيرا

***

(١٥)

لم أستطع النوم ليلتها أبدًا، كُنت مع يونس عبر الهاتف في هدوء الليل، قلت في همس لكي لا أزعج أمي..

- يونس.. أنا لا أصدق صور البيانو الجديد وأصابع العاج المحروقة! هذه النوتة الموسيقية القديمة هي الصفحة الأخيرة الناقصة لمعزوفة «النوم الأسود» أتصدق هذا؟! ما وجدناه كان الجزء المفقود من النوتة الأصلية التي وقعت من حنين واخترتها أنا! نفس النوتة التي أتدرب عليها لحفل التخرج! هل هذا طبيعي! أم أنها صدفة! لا أصدق أن الفتاة ذات الرداء الأبيض الأنيق في الصور هي فتاة أحلامي! هي الفتاة التي كانت في الغرفة قبل أن أراها تحترق! هي التي أراها الآن في يدي الآن في صور عدة بنفس الرداء! هي الفتاة التي تحمل الزهور البيضاء! الآن أتذكر الوردة البيضاء الذابلة التي ابتعتها.. أتراها علامة؟ لكن لماذا أنا؟

قال يونس في قلق:

- هذه الأشياء لا تحدث صدفة يا فريدة، هذه العلامات في طريقنا ترشدنا لنُكمل ما بدأناه.

بقيت أتهامس مع يونس عبر الهاتف ليلًا وأحدق في النوتة

والصور وأقول:

- لقد أرسلت لك جميع الصور عبر «واتس آب»، كما ترى الفتاة تبدو في حفلة في الكلية وتعزف على البيانو، في صور أخرى تعزف وتغني، صورة أخرى لها مع شاب يبدوان فيه كحبيبين، الصور المُحيرة هي التي تجمعهما مع طاقم التدريس في الكلية، بعض الطاقم لا أعرفهم، لابد أنهم في سن المعاش الآن، صورة تجمعها بشخص يشبه العم سيد! صورة أخرى تجمعها بالدكتور صالح في سن صغيرة بكثير، وصورة أخرى للدكتور قابيل، أُخذت الصور أثناء حفل وربما أثناء تدريب على العزف.

قال يونس:

- من هي الفتاة؟ وهل كانت تعزف نفس النوتة الموسيقية؟ ومن خبأ هذه الأشياء داخل البيانو المحترق؟ ولماذا؟!

- يونس.. لابد أن نعرف ماذا حدث؟

قال في رفق:

- أوفقك الرأي، والآن لابد أن نُريح عقولنا قليلًا، اذهبي لتنامي كي لا توقظي أمك وسوف أراكِ في الصباح بإذن الله.

أنهيت المكالمة معه وتوضأت وصليت لله ركعتين ودعوته كما كان يفعل أبي في مواجهة الشدائد، ثم غلبني النوم.. قُبيل الفجر بوقت قصير، رأيت أحلاما مُتداخلة لا تمت لبعضها بصلة، تارة أرى يونس يتحدث معي، تارة أرى الدكتور صالح يتحدث إلى العم سيد، عقلي الباطن لا ينام أبدًا، هذا الفتاة في

الصور تبكي وتُشير إلى شيء لا أراه، أمي تبكي لرسوبي المتكرر، أبي غير راضٍ عني ولا يريد مُحادثتي، هنا استيقظت غير راضية عن نفسي، وجدت رسالة من يونس أن أنتظره التاسعة صباحًا في مكاننا المعتاد، كانت الساعة السابعة صباحًا.. صليت الصبح والضحى، وأخذت أستعد لمقابلة يونس، بالطبع وضعت الظرف في حقيبتي، كانت أمي مستيقظة تُراقبني نظراتها في فضول وشك، فقبلت يدها وجبينها قبل أن أرحل.

كان الوقت مُبكرًا عندما ذهبت إلى الكافيتيريا؛ فمازال الجميع هناك يُنظف المكان ويعده لاستقبال رواده، جلست أمام النيل كعادتي أفكر في انغماسي في هذه المسألة، هل أنا على صواب أم خطأ؟ لابد أن أنجح هذه السنة، لن أتحمل فكرة رسوبي مرة أخرى، لا أريد أن أسبب لأمي إزعاجًا، ولا أريد أن يشعر أبي بسوء مرة ثانية، كل زملائي يعيشون نفس التجربة معي.. ولم أرَ أيًّا منهم مهتما بمعرفة الحقيقة! ربما أعيش أحداثًا إضافية، لكن لماذا لا أجاريهم وأركز في دراستي فقط؟، ولماذا لا أتجاهل كل شيء غير منطقي إلى أن تمضي السنة الدراسية وأنجح، ثم أقطع علاقتي بالمكان؟ لماذا لا أستطيع فعل ذلك؟

هنا فكرت من زاوية أخرى.. «ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ أن نترك العلامات لكشف الحقائق، فنترك أثرًا طيبًا نُحمد عليه بعد رحيلنا».

جاء يونس من بعيد يرتدي نظارته الشمسية التي تزيده

جاذبية كما أراه، أعتقد أنه قد أطال شعره قليلًا، اقترب وسلم عليَّ في ود حقيقي، ود لا ينقطع أشعر به دائمًا في صحبته، هذا الشعور النقي الذي لا أستطيع وصفه، إنما هو شيء حقيقي، لماذا أنسى كل شيء بمجرد أن أراه أمامي؟ أحب هذا الشعور وأحب أيضًا أنني لا أجد تفسيرا منطقيا! ألاحظ أن ثمة تحولا قد حدث لشخصيتي بالفعل، فليس بمقدورنا أن نُمنطق كل الأشياء في حياتنا، حينئذ تُصبح مُملة بلا روح.

جلس يونس وطلب من النادل قهوتنا، بعد أن انتهى من الطلبات نظر إليَّ وابتسم في فضول وقال..

- أتأخذكِ مني الأحداث إلى هذه الدرجة؟ إذًا فلنتجاهل الأمر ونعلن خطبتنا.

تفاجأت من عرضه المكرر الذي أسعدني كثيرًا.. ثم اقتربت قليلًا منه وهمست:

- إنما أفكر في هذا الشعور والإحساس الذي لا ينقطع كلما رأيتك، هذا الود والأمان الذي يزداد ولا ينتهي.

فقال لي يونس: عندما أحببتك كُنت أراكِ كما أنت يا فريدة، لم يكن حبي أعمى كما يقولون، رأيت عيوبك وقبلتها ورأيت مميزاتك وأحببتها، تقبلتك كما أنتِ، لذلك تشعرين بهذا الود دائمًا، الأمر بهذه البساطة.

قلت ضاحكة:

- حتى وأنت ترى فريدة المرهقة بكل تلك الهالات السوداء

تحت عيني، أنت الآن أعمى يا حبيبي.

رد في جدية:

- أحب أن نلتقي صباحا ونحن في شدة الإرهاق لم نذق طعم النوم، وأن نتقابل على عشاء في أحسن صورة لنا، هذه هي طبيعتنا الإنسانية، هل نبقى بصورتنا هذه حتى نكبر ونشيخ؟ مستحيل، هل تقبليني إذا ما مرضت وأخذ المرض مني أجمل ما يجذبك في شكلي؟

قلت في سرعة وجدٍّ:

- بالطبع أتقبلك في جميع حالاتك.

- هذا هو ما أصبو إليه معك يا فريدة، علاقة حقيقية وفريدة.

جاء النادل بالطلبات، أخذنا نرتشف من القهوة، وقد طلب يونس إفطارًا شهيا لنا، سأل حينها:

- أين الصور وبقية النوتة الموسيقية..

حينما رآهم في يده قال على الفور..

- الآن أشك في اثنين..

على الفور أجبته كأنه كان يسألني:

- الدكتور صالح والعم سيد.. لابد أن نراقبهما عن كثب.

- قد فعلت هذا يا فريدة.

كانت مفاجأة بالنسبة لي فقلت غاضبة..

- لماذا لم تقل لي هذا من قبل إذًا وتوفر عليَّ عناء التفكير؟

قال في حلم..

- أنا لا أتهم الناس باطلًا لمجرد أنني أشك فيهم أو لأي سبب غير مقنع، لا أفعل هذا وأتمنى أن تتفهمي أنني أراعي سمعة الناس التي هي أغلى ما يملكون، كما أنني أخشى الله يا فريدة إذا ما رميت الناس بالباطل.

انطفأ غضبي بما سمعت منه وقلت على استحياء..

- حسنًا.. أنت على صواب، لكن لماذا راقبتها إذًا؟

قال..

- لأنني أصدق حدسي أيضًا، لكن يبقى الأمر بيني وبين نفسي، شيئ ما كان مُريبا، أردت أن أثبته أو أنفيه ليس إلا، كنت أحسب العم سيد يعمل لصالح الدكتور قابيل في البداية إذ إنه يعطيه شهرية لا بأس بها، لكنني اكتشفت أن العم سيد بالفعل ينقل كل كبيرة وصغيرة إلى الدكتور صالح، في بادئ الأمر ظننت أن الدكتور صالح مريض نفسي يعاني من حب الأنا؛ لأنه الأقدم بالكلية ويظن أنه لابد أن يعرف كل كبيرة وصغيرة، ثم علمت أن العم سيد ينقل إليه أخبار الدكتور قابيل أيضًا! فماذا نُخمن؟

اندهشت وخطر في بالي أمر، فقلت على الفور..

- ما رأيكَ بأن نستعين بهذا الطالب السابق الذي حكيت لك عنه لمساعدتنا؟ معي رقمه.

فكر يونس قليلًا وهو يرجع بخصلات شعره المتناثرة إلى الوراء، وينظر إليَّ بغيرة يخبئها.. ثم قال.

- كريم.. هذا الذي أعطاكِ رقمه؟

أجبته..

- نعم هو..

قال في غيرة يحاول إطفاءها..

- وجدت إحساسا ما بعدم الراحة إليه في حكايتك... لكن.. لنفعل ذلك ما دام قد اختلط الأمر علينا.. لا بأس.

وافقته وبدأت بتناول إفطاري الشهي.

***

(١٦)

الحياة لا تتوقف رغم قسوة الأحداث واختلاف الظروف، استمرت ساعات التدريب على ألحانٍ وأغانٍ مُختلفة، إذ أراد يونس أن أتعلم تنظيم النفسَ أثناء العزف، كان يتعامل معي أثناء التدريب بشكل مُحترف يجعلني أنسى كل ما بيننا، فكان في كل مرة يجلب لحنا قديما صعبا لم أتدرب عليه من قبل، ثم تناثرت الأقاويل عن حدوث بعض المواقف المُريبة مع بعض الزملاء، بالطبع كنا مؤهلين في كل مرة لحدوث أي شيء لكنه لم يحدث! كما أن الأحلام توقفت معي كأنني كُنت أهذي من الأساس!

وفي ليلة مُقمرة كُنت أتدرب على الغناء دون عزف لأغنية «يمامة حلوة».. لحن قديم وكان مشروع تخرج حنين، غنيت فأغمض يونس عينيه لتتذوق أذنه صوتي، فهو فنان بالفطرة، انتهيت فصفق لي يونس وكانت المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك، ثم أشار لي قائلًا:

- الآن يا فريدة نعود إلى النوتة الموسيقية الخاصة بحفل تخرجك.. لنعود إلى «النوم الأسود».

فرحت لكنني شعرت بالقلق أيضًا منها فواصل حديثه..

- أريدك أن تستشعري المعنى قبل أي شيء، أن تتوحدي

مع البيانو كأنه حليفك الذي سوف يظهر حقيقة الكلمات، هل تفهمين ما أطمح إليه؟ أريد لإحساسك أن ينمو ليشعر به حتى النبات في الأرض والجماد حولنا وأنتِ تعزفين:

أدخلت كلماته عليَّ الكثير من الحماس والبهجة وأنستني الخوف فقلت..

- أنتظرها منك منذ أيام.. أخيرًا ترضى عن أدائي..

أحضرت النوتة القديمة التي اكتملت من حقيبتي ووضعتها على حامل النوتات، نظرت إلى احتراق أطرافها في حيرة ثم أغلقت عيناي لثوانٍ وأخذت نفسًا عميقًا، فتحت عيني على النافذة فوق البيانو فوجدت اليمامة واقفة، ها قد أتت مرة ثانية، ابتسمت وبدأت بالعزف كأني أعزف لها هي..

وعندما وصلت للجزء المعتاد فى النوتة فُتح باب غرفة العزف مرة واحدة بشدة، وطارت اليمامة كأنها ذُعرت أو هكذا خُيل إليَّ، توقفت عن العزف ونظرت إلى الباب ورائي.. لم يكن أحد هناك! نظرت إلى يونس فوجدته في شدة الهدوء! كأنه كان يتوقع ما يحدث وكأنه جهز نفسه لذلك! نظر إليَّ وقال في حزم:

- إياكِ أن تخافي..

كُنت مُرتعبة لكنني أومأت له بنعم، اقترب يونس من الباب في حذر وبطء، وعندما عزم على الخروج من الغرفة ليرى من بالخارج.. انغلق الباب من تلقاء نفسه بنفس القوة التي فُتح بها! حاول يونس فتحه فلم يستطع كأنه قد أُغلق من الخارج بمفتاح!

حينها قُمت من مكاني في ذهول واقتربت من يونس، فنظر إليَّ ثم إلى جدران الغرفة وقال:

- تماسكي يا فريدة، لن يهزمنا ما لا نراه أبدًا، لا تخافي.. هذا ما يريده بالضبط، تذكري الله في نفسك.

أخذت أردد آية «الكرسي» في نفسي وأُكبِّر ما استطعت، حاولت أن أرددها بصوت عالٍ لكن صوتي تحشرج ولم يعلُ أبدًا! أدركت أنني إما أن أتغلب على خوفي الآن أو يغلبني هو إلى الأبد، لكنني لم أستطع أن أبتعد عن يونس ولو قليلًا، وفجأة تحرك الكرسي الذي كُنت أجلس عليه منذ لحظات للأمام قليلًا! ثم عزفت أصابع البيانو من تلقاء نفسها نفس النوتة الموسيقية! نعم رأينا أصابع البيانو وهي تعزف «النوم الأسود» بكل دقة وتمكُن بداية من المقطع اللعين الذي تبدأ عنده كل الأحداث المريبة!

حينها أمسك يونس بيدي وجعلني أقف خلفه بالقرب من الباب، بقينا ننظر إلى أصابع البيانو وهي تتحرك في ذهول، صفحات النوتة الموسيقية تُقلب تبعًا للعزف! دقائق قليلة تمر كالأيام، انتهى اللحن وسكنت أصابع البيانو، حينها فعل يونس شيئًا أخافني،

فجأة، صفق لمن لا يراه وبدأ يتحدث إلى الخواء قائلا:

- العزف أكثر من رائع، يجب أن أعترف أنني لم أسمع مثله من قبل، لكن الفنان لا يتصرف هكذا ويخيف زملاءه، ألا تتفق معي؟

نظرت إلى يونس وللحظات خِفتُ منه، فقال وهو ينظر في جميع الاتجاهات:

- الآن يجب أن نخرج من الغرفة... يجب أيضًا أن نأخذ النوتة الموسيقية إذا سمحت.

أمسك يونس يدي كي لا أفارقه، وراح يقترب من النوتة الموسيقية في حذر شديد ويردد:

- سوف آخذها؛ لأننا نحتاجها في العزف، أنا لا أضايقك.. أنا فقط أحتاجها..

بالفعل أخذ النوتة الموسيقية، وياللعجب فُتح الباب من تلقاء نفسه سامحًا لنا بالخروج كأنه قد أجاب طلب يونس، ضغط على يدي برفق في إشارة لنُسرع بالخروج من الغرفة، فحملت حقيبتي سريعًا، عندما خرجنا كان الطابق الثالث خاويًا إلا منا، هبطنا الدرج في سرعة وخرجنا من المبنى كله، عندما ركبنا سيارته انفجرت في البكاء رغم محاولات يونس في تهدئتي.

***

(١٧)

كان هذا الموقف من أصعب ما قابلت في الحياة، إذ إنه إثبات وتواصل ومواجهة بيننا وبين المجهول، لم يصل النوم إلى جفوننا في هذه الليلة، لم أشأ أن أخبر حنين بما جرى لتنال قسطها من الراحة.

في صباح اليوم التالي أيقظتها لنتقابل خارج الكلية، جلست معها في الكافيتيريا التي باتت تجمع كل حكاياتنا الكثيرة المُتلاحقة، كنت على ميعاد مع يونس في نفس المكان لنجتمع ثلاثتنا، ونرى ما يجب علينا فعله، كانت حنين تستمع في دهشة حتى انتهيت ثم قالت في حيرة:

- لو أن أحدًا آخر غيرك تفوه بمثل هذا الكلام لما صدقته أبدًا.. هذه المشاهد لا نراها إلا في أفلام الرعب فقط! أراكِ لا تحملين الظرف والنوتة الموسيقية! أين هما؟

- تركتهم في سيارة يونس ليلة أمس، للحق أقول تركتهم عن عمد، شعرت بخوف من تلك النوتة يا حنين، حتى يونس تركها في سيارته هو أيضًا، كانت ليلة غريبة.

جاء يونس في ملابس رياضية لا يذهب بها إلى الكلية، كان الإرهاق قد تملك منا، سلم يونس علينا ثم طلب قهوته من النادل، جلس وحاول رسم ابتسامة خلف نظارته الشمسية بعد

أن وضع كفه تحت ذقنه في تعب وقال:

- الدهشة على وجه حنين تُضحكني.

قالت حنين:

- وهل ترى ما تسرده فريدة بالشيء الطبيعي؟

- بالطبع لا.. لو كنت مكانك لفعلت نفس الشيء، للحق أقول: لو أنني لم أمر بالتجربة بنفسي لما صدقت حدوثها بالمرة، كُنت سأردد أنها أوهام وخزعبلات، لكننا على يقين أن ثمة أمورا عجيبة في هذا المكان.

قالت حنين وكأنها تفكر بصوت عالٍ..

- وما الفائدة أن نجلس معًا ونحكي ما نراه بأعيننا لبعضنا البعض؟

قُلت لهم حينئذ:

- أعتقد أننا يجب أن نفعل أي شيء لنجيب عن كل هذه الأسئلة.. لكن ينقصنا التوجيه.

حينها انتفض يونس كأنه تذكر شيئًا ونظر لي وقال:

- فريدة.. الآن يجب أن نستعين بالدكتور قابيل، أنا واثق في أنه يمكنه مساعدتنا، خاصة بعد أن يرى الصور والنوتة القديمة المُجمعة.. ما رأيكما؟

قالت حنين:

- بالتأكيد يملك من المعلومات ما يفتح أمامنا كثيرا من

الأبواب، فما رأيك يا فريدة؟

قلت:

- بالطبع.. فلنذهب إليه.

أمسك يونس بهاتفه يقلب فيه وهو يقول:

- ليس بالكلية فهو لديه محاضرات اليوم.. سوف أهاتفه لأستأذنه في الذهاب إلي بيته.

كان ظننا في الدكتور قابيل في محله، دعانا إلى بيته في منطقة «الزمالك» وذهبنا، حمل يونس النوتة والصور معه، واستقبلتنا زوجته في بشاشة وأدخلتنا غرفة مكتبه التي ينطلق منها «كونشيرتو» لم أسمعه من قبل، رحب بنا أشد ترحيب، ثم أخذ يُلقي النكات على ما يحدث في الكلية، فنسينا ما بنا وتشاركنا جميعًا الضحك لدقائق، فهو شخص مرح بطبعه، جاءت زوجته بالقهوة مُرحبة ثم تركتنا معه.. نظرت إليَّ يونس وحنين ثم إلى دكتور قابيل وقلت أذكره:

- أتتذكر يا دكتور يوم أن تقابلنا في كافيتيريا الكلية وسألتك عن طلبك أن يُنقل مقر الكلية إلى مبنى آخر لكن تم رفض طلبك من الوزارة!

بدأ يرتشف قهوته وهو يستمع إليَّ في إنصات وقال..

- نعم.. بالفعل المبنى وما يحدث فيه مُريب، لكن الروتين وظيفته تدمير كل الاقتراحات.

قالت له حنين:

- لابد أن هناك سببا جعل المكان مُوحشا هكذا..

قال الدكتور قابيل:

- في هذه الأمور لا نستطيع أن نجزم بشيء على وجه التحديد، خاصة في الماورائيات يا ابنتي، هذه أمور كُل السلامة في البعد عنها وليس في الاقتراب منها والبحث وراءها.

فتح يونس الظرف وأطلعه على الصور واحدة واحدة وهو يُذكره:

- أتتذكر هذه الأيام يا دكتور قابيل؟

ترك الدكتور القهوة ونظر إلى يونس في تعجب ثم أخذ منه الصور يقلب فيها ويقول مُندهشًا..

- يا الله... من أين أتيت بها يا يونس؟ هذا من عُمر مضى، من أين جئتم بمثل هذه الأشياء؟

تهلل وجه يونس مُستبشرًا وقال:

- سوف أحكي لك لاحقًا يا دكتور، المهم.. هل تتذكر هذه الفتاة ذات الرداء الأبيض؟

أخذ الدكتور نظارته الطبية ولبسها ثم أخذ يدقق النظر فيها.. ثم قال ضاحكًا:

- هذا الدكتور صالح وهذا العم سيد.. أيام شبابهما بالطبع.. أما أنا فما زلت أحافظ على شبابي كما ترون.

نظر إلينا يونس في غيظ ثم سحب صورة بعينها وقال له:

- أتحدث عن الفتاة العازفة ومن معها في الصور.. يبدوان كأحبة.. أليس كذلك؟

تمعن الدكتور قليلًا ثم قال:

- بالتأكيد واضح جدا من الصور.

هتفت في فرح.

- من هي يا دكتور؟

قال في تلقائية:

- إنها طالبة بالطبع ويبدو أنها في حفل تخرج.

نظرنا إلى بعضنا وقد علت خيبة الأمل وجوههنا وقلت له في رجاء:

- هل تتذكر اسمها أو من معها في الصور يا دكتور؟

خلع نظارته الطبية ونظر إلينا نظرة أب خائف وقال:

- هل صدقتم أنني مازلت شابًا؟ لا تُسعفني ذاكرتي بالطبع، فقد مضى وقت طويل على هذه الصور، لكن..

ثم تنفس مليا وقال بلغة أب ناصح:

- إنني بكل صدق أدعوكم للتوقف عن العبث مع تلك الأشياء، قد تكون العواقب وخيمة والأمور أكبر مٍنا جميعًا.

قالت حنين في سرعة:

- بل نشك في أحدهم.

ارتدى نظارته وأزاحها في منتصف منخاره ونظر إلينا من فوقها وقال:

- وما الفائدة التي سوف نجنينها من وراء كل هذا؟

قلت..

- الحقيقة، وربما لا شيء.. ربما إرضاء ضمائرنا.

قال وكأنه يفكر:

- بما أنكم في هذه المرحلة هل توصلتم إلى شيء نستعين به على البحث؟

فقال يونس:

- لا شيء سوى هذه النوتة والصور.

نظر الدكتور قابيل إلى حنين وقال..

- أتشكُّون أن أحدًا ما له علاقة بما يجري في الكلية أو يعلم شيئًا؟

قلت:

- ليس بالضبط لكننا لا نرتاح إلى بعض الأشخاص لذلك لجأنا إليك.

نظر الدكتور إلى يونس وقال في نبرة غريبة:

- ليسامحنا الله جميعًا على الظن دون بينة ودليل، لكني أعتقد أن الخيط كله يبدأ وينتهي من وإلى شخص واحد نعرفه جميعًا، لكنني لا أملك دليلا مع الأسف.

نظر إليه يونس وقال في حذر:

- أهو الرجل الذي أشك فيه يا دكتور أيضًا؟

رفع الدكتور قابيل يديه الاثنتين ومد شفته السفلى إلى الأمام إشارة إلى عدم يقينه.

عندما خرجنا من عنده ترددتْ في ذهني مقولة الدكتور «مصطفى محمود» «ليعد كل منا إلى قلبه في ساعة الخلوة.. وسوف يدله قلبه على كل شيء»..

حينها لم تُفارقني صورة الدكتور صالح...

***

(١٨)

ذهبنا ثلاثتنا إلى مقابلة كريم بعد أن استقر رأينا على الاستعانة به، رتب يونس للقاء في منطقة بعيدة عن بيتنا أنا وحنين، كما نبه علينا ألا نبوح بمكان سكننا لأغراب أبدًا، التقينا قبله للحديث معًا، أخرج يونس الصور والنوتة الموسيقية من الظرف وأخذ ينظر إليهما، ثم تنهد وقال في حيرة:

- بالأمس كنت في حفل عشاء كبير في منزل عمي، كان به الكثير من المناصب الكبيرة في البلد.

قلت..

- أخبرتني البارحة، وماذا في ذلك؟

قال..

- انتهى العشاء في وقت مُتأخر ولم أخبرك بما حدث.

قالت حنين..

- كفاك يا يونس.

قال وقد ملأت الدهشة عينيه:

- اثنان لا يعرفان بعضهما البعض، الأول من أقاربي والثاني من أصدقاء عمي، الشيء الوحيد المشترك بينهم هو عملهم بمجلس الدولة، كل منهم يسألني منفردًا «ما خطب الكلية التي

تعمل بها يا يونس؟»، وعندما أسأل كلا منهما عن سبب قوله هذا يقول نفس الشيء الغريب!

قلت:

- كما قالت حنين كفاك..

قال كأنه يفكر:

- الجيران المُحاطة بيوتهم بالكلية حرروا محاضر إزعاج ضدها، وذلك لسماعهم عزف صاخب كل ليلة بعد الساعة الثانية عشرة ليلا! الكلية تنفي وجود طلبة في هذا التوقيت بالطبع، وعدد المحاضر في ازدياد والكلية تستمر في النفي، لا أعلم ما الذي قد يحدث؟ هل فعلًا ينقلون مكان الكلية في المستقبل؟ هل يستطيعون غلقها مؤقتًا؟ لا أعلم، فقط أفكر من أين يأتي صوت العزف؟ وما هي مصلحة الجيران في الادعاء على الكلية؟ ولماذا الآن بالرغم من قِدم وجودها بجوارهم! إلا أنهم لم يسمعوا العزف الليلي إلا بعد أن احترق المبنى منذ سنوات كثيرة في الماضي وفي الفترة الحالية!

نظرنا إلى بعضنا أنا وحنين في ذهول، نظر إليَّ يونس وقال:

- أتريدين أن تعرفي اللحن الذي يُعزف بعد الساعة الثانية عشرة صباحًا؟

أجبته وقد غلبتني الدهشة..

- وهل يُحدث هذا فرقًا؟

فقال..

- للأسف نعم..

قالت حنين..

- لماذا؟

قال..

- بشكل ودي اطلعت على أحد المحاضر.. بعض أقوال الجيران أكدت أنه يسمع كل ليلة إلى قبيل الفجر بقليل مقطوعة يسمعها دوما عند الثامنة مساءاً وقت وجود الطلبة.. من إحدى الغرف بالتحديد!

ونظر إليَّ يونس نظرة أفهم مغزاها.. فغر فاهي عن آخره، وكانت حنين في قمة دهشتها أيضًا، حينها جاء كريم في الميعاد المقرر بالضبط، استقبله يونس وحيَّاه بجدية، وبعد أن جلس كريم ونظر إلينا في فضول وابتسم لما رآنا في دهشة، طلب يونس من النادل أن يسجل طلب كريم ففعل، قال كريم في ترقب:

- أنا سعيد لثقتكم في الاستعانة بي، أنا تحت أمركم..

قال يونس ومازالت الجدية تسود ملامحه..

- الظروف تحتم الأمر.. لكن شكرًا لك على أية حال.

قالت حنين:

- المبنى تحول لسلسلة من الأحداث المُريبة يا كريم، نريد منك كل ما تعلمه عن أي شيء غريب لكي نكشف سره ونُخلص المبنى منه.

كان كريم مُنتبهًا لحنين فلما انتهت قال:

- غريب أمر هذا المكان، تمر عليه السنوات والأشخاص ولا ينكشف السر أبدًا!

قال يونس:

- ألهذا الحد اهتممت بالأمر طوال هذه السنوات؟

اعتدل كريم في مقابلة يونس وجهًا لوجه وقال:

- أقول لك الحقيقة؟ أنا لا أعمل في مصر الآن لكن تكررت عليَّ أحلام مُزعجة بالخارج أيضًا! جعلتني أفكر هل يرتبط الأمر بأشخاص بعينهم أم بالأماكن؟ لذلك كلما جئت في زيارة سألت عن التطورات وهل انكشف سر المكان أم لا؟ يبدو أنني كنت أريد أن أطمئن على نفسي أولًا.

قلت:

- صحيح.. هناك أحداث ترتبط بالأشخاص أو الأماكن، أنا أؤمن أن الأماكن وراءها أسرار، المهم أنها لا تؤذي، لكن هذا المبنى مُختلف.. أعتقد أن أسراره تريد أن تنكشف الآن لذلك تُضايق الكثير منا الآن.

ابتسم كريم وقال..

- هل تعتقدين ذلك؟

شعرت أن يونس يتفحصه، هل يفعل الرجال ذلك أيضًا عند شعورهم بالغيرة! قال يونس كأنه على عجلة من أمره:

- وها نحن الآن نجتمع بك من أجل مساعدتنا في الأمر كما عرضت..

اعتدل كريم في جلسته وقال.:

- كل ما أملكه لديكم.. ماذا تريدون؟

قال يونس:

- سمعت أنك بحثت في الأمر كثيرًا لتعرف السر وراء كل الأحداث المرعبة داخل الكلية ولم تحصل على إجابة شافية.

كان كريم يستمع بإنصات وجدية ثم قال:

- ليس بالضبط، حصُلت على بعض الأشياء هنا وهناك، ولم أستطع الربط بينها، بينما ما يحدث في الطابق الثالث كان مُستمرًا في الحدوث رغمًا عنا جميعًا، أتذكر في إحدى المرات أتوا بشيخ ليقرأ القرآن في الطابق الثالث، لكن الشيخ قال: إن المكان ثقيل الظل وإنه لا يضمن عدم عودة ما يحدث إلا إذا بحثنا وراء الأسباب للمعرفة والعلاج.

قلت:

- أتساءل هل تهيئ لنا الشياطين ما نراه في الكلية؟ أم يسكن الجن المبنى؟

قال في جدية:

- هذا ما نريد معرفته..

أطلعه يونس على الصور وعلى النوتة الموسيقية «النوم الأسود» وحكى له مضمون ما توصلنا إليه دون تفاصيل، أخذ كريم منه الصور يتفحصها، أشار في تلقائية وهدوء إليها وهو يقلبها وقال:

- هذا العم سيد.. هذا الدكتور صالح.. وهذا الدكتور قابيل.. تعرفونهم جميعًا.

نظر إلينا يونس في خيبة أمل، أخذ كريم يقلب في باقي الصور دون تعليق، إلى أن وصل لآخر صورة فصاح كأنه يفتقد أحدهم..

- هذا سليم..

اقترب منه يونس في فضول وقال.

- من هو؟

قال كريم..

- هذا الشاب الذي يقف بجانب الفتاة عازفة البيانو.. كان معيدا في هذا الوقت، كُنت بالصف الدراسي الأول وكانت السنة الأخيرة له في التدريس، كان حضوره مُتقطعا وغير مُنتظم، قبل أن يمرض ويدخل إحدى المصحات النفسية، داومت على زيارته طوال فترة الدراسة مع بعض الزملاء، لكن حالتة تدهورت وأصبح مُنعزلًا لا يتحدث مع أحد، انشغلنا بعد ذلك ولم نداوم الزيارة.. مسكين!

نظرت إلى يونس الذي قال في شك لكريم:

- سأكون صريحا معك، أنا لا أثق فيك، لا أثق في أحد لا أعرفه في الحقيقة، لكني مضطر إلى ذلك.

قال كريم:

- أنا مثلك تمامًا وأتفهم ذلك، لكن أعدك وعد رجل لرجل أنني لن أخذلك.

كان يونس ينظر لكريم في توجس ثم قال:

- هذا جيد.. سوف أطلعك على ما أفكر فيه، أنا أشك في العم سيد والدكتور صالح:

تغيرت ملامح كريم فقلت أَحُثُّه على الكلام:

- هل ساورك الشك أيضًا؟ هل وجدت أي دليل ضدهما في أي واقعة؟

قال كأنه يتذكر شيئًا:

- لا أستطيع أن أجزم بشيء، الدكتور صالح شخصية غامضة ودائمًا شارد ومُقتضب، لا تستطيع أن تعرف عنه شيئًا واضحًا، لذلك من الصعب أن أمسك في يدي أي دليل ضده، في النهاية كُنت مجرد طالب حتى وإن كنت كبير السن مقارنة بزملائي، أما العم سيد فهو يبيع نفسه للشيطان من أجل النقود، الجميع يعرفون هذا عنه، كل ما أتذكره الآن أن الطلبة حينها كان يرددون أن الدكتور صالح يقوم بعمل غير شريف في الآلات يتربح منه، كأن يؤجرها أو يبيعها مثلًا.

قلت:

- كيف يحدث هذا؟

قالت حنين:

- كلام غير منطقي، فهو مسئول عن جميع الالآت بالكلية، فكيف يفعل أيا من هذا وهي في عهدته ولا يدري به أحد طوال هذه السنوات؟

التفت كريم إلى حنين ورأيت بعينيه لمعة غريبة ثم قال:

- هذا مضبوط، لكن لا تنسي أيضًا أنه المسئول عن مخزن الالآت الموسيقية الهالكة، كانت الإشاعة تقول: إنه يبيع الالآت.. كيف وأين ومتى؟ لا أحد يعلم، هذا إذا كانت إشاعة وتعلمين أنه لا يوجد دخان..؟

قالت حنين وقد رق صوتها في دلال:

- بدون نار.

ثم تبادلا ابتسامة ونظرات إعجاب وشعرت أن كيمياء القلوب الغريبة قد بدأت بينهما.. قال يونس:

- إذا كان الأمر حقيقيًا فلابد أنه كان يحصل على مُساعدة من أحد العاملين بالكلية.

رد كريم:

- هذا ما لا أعلمه.

قلت:

- وكيف لم يفعل أحد شيئًا كأن يبلغ عنه أو يراقبه مثلًا؟

قال كريم في غير اكتراث:

- كما قلت لكم.. «تردد»، أي أنه لا دليل في الموضوع، ثم أننا شعب ينسى سريعًا، فإذا فعل الدكتور صالح شيئًا جيدًا اليوم لأي من الدفعات نسوا ما تردد عنه لسنوات، لم يتطوع أحد بالبحث كما فعلت أنا وتفعلون أنتم الآن.. صدقوني لا أحد يهتم.

قاطعه يونس:

- كريم.. أريد أن أرى سليم الآن.

نظر كريم في ساعته ثم إلى يونس وقال:

- على حسب ما أذكر فإن موعد زيارته قد ولى.. ربما نذهب غدًا إن شاء الله..

ثم أكمل في لهجة مقلقة:

- ما دمتم مصرين.

***

(١٩)

«ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ إن اختبار الدنيا شديد الصعوبة.. لذلك لابد لنا أن نكون شديدي الصلابة والمرونة أيضًا، فنحيا غير مكسورين ونرحل فائزين»

قابلت حنين وتوجهنا إلى سينما «فاتن حمامة» حيث ينتظرنا يونس، ركبنا سيارته وانطلق إلى مكان المشفى النفسي كما أخبرنا كريم لنرى سليم، سيطر علينا الحماس لتقفّي أول خطوط الحقيقة، وصلنا في وقت وجيز، كنا متأهبين لمواجهة أي شيء، أوقف يونس السيارة أمام المشفى، نظرنا جميعًا إلى المبنى في هدوء قطعه يونس:

- ها قد وصلنا، من المفترض أن يكون كريم قد وصل أيضًا.. دقائق وأهاتفه إن تأخر.

وصل كريم في العاشرة والنصف صباحًا.. علقت حنين عندما رأته يُوقف سيارته أمامنا:

- وصل في ميعاده بالضبط يا جماعة.. يبدو أننا وصلنا قبل الميعاد من شدة حماسنا.

قال يونس في شرود:

- إن كل ما نفعله كان من الممكن أن نتفاداه بسهولة، أو

نتجاهله أيضًا كما يفعل باقي الطلبة وكل أعضاء هيئة التدريس، ما الذي يجعلنا ننفق وقتنا على شيء قد يكون سرابا؟

رددت:

- العلامات التي وضحت لنا كانت إشارة ربانية لتكملة ما بدأناه.

قال يونس:

- وها نحن نتبع خطوات القدر.. تذكروا إن كل ما نفعله هو درء الأذى عن أنفسنا وعن الناس، تذكروا إنه عمل خالص لوجه الله تعالى.

ثم أكمل في قلق:

- اقتربت الامتحانات، لا أريد لكما سوى النجاح:

أردفت على الفور..

- اطمئن.. سوف نتخرج وبتقدير أيضا بإذن الله.

ابتسم يونس ونظر إليَّ قائلًا:

- سوف أفرح فرحًا شديدًا حينها، أريدك أن تكوني معيدة يا فريدة وأن تعودي إلى فرقتك الموسيقية بعد التخرج.

قلت في فرح:

- كأنك تعلم ما أرجوه!

كانت حنين تستمع مُبتسمة ثم قلت في مرح:

- هل يمكننا تأجيل كل هذا الحب لبعد الزيارة؟ لأن كريم يقف أمام باب المشفى منتظرًا.

ضحكنا ونزلنا من السيارة وحيينا كريما، لأول مرة في حياتي أدخل مشفى للأمراض النفسية، أثناء دخولنا فكرت أن مرضاها لم يولدوا مرضى، إنما أعيتهم الحياة كثيرًا ولم يستطيعوا المقاومة فسقطوا في الاختبار، كيف نخوض اختبارات الحياة دون سقوط؟ كُن معنا يا الله.. قاطع أفكاري كريم قائلًا..

- لم آتي لزيارته منذ فترة طويلة جدا.. لكنني كنت أسأل بعض زملائي القدامى عنه بشكل دوري، فأكدوا لي أنه مازال هنا.

لم تختلف المشفى كثيرًا من الخارج أو الداخل عن أي مشفى آخر، رأيت الحديقة الخارجية نظيفة يجلس بها بعض المرضى مع ذويهم أو أصدقائهم، الهدوء يخيم على المبنى حتى إن زقزقة العصافير لها صوت واضح، كنت أظنني سأرى أناسا تصرخ وممرضات تُمسك بهم لإعطائهم حُقنا مُهدئة كما نرى في الأفلام، لم يحدث هذا أمامي، قالت حنين بصوت قلق:

- أحس برهبة شديدة لمقابلة مريض نفسي يسكن مشفى فترة طويلة.. لا أطمئن لردة فعله.

سمعها كريم فلحق بجانبها وقال في نبرة هادئة:

- الحقيقة المؤلمة أننا كلنا مرضى نفسيين لكن بدرجات متفاوتة، الفرق في قوة تحملنا للظروف وطريقة تعاملنا معها، كان من الممكن أن نكون نحن المرضى بداخل المشفى أو قد نكون في المستقبل، لا أحد يعلم ما تخفيه الأيام لنا.

نظرت حنين إليه في انبهار، لكن أصابها شيء من الكآبة

والتعاطف والخوف أيضًا، تركنا كريم ويونس ليتحدثا إلى موظف الاستقبال وإحدى طاقم التمريض، ثم انضما إلينا وقال كريم:

- الحمد لله مازال موجودا.

تبسم يونس في أمل وقال..

- الحمد لله.

قال كريم:

- لم أشأ أن نزوره فحسب، بل طلبت التحدث مع الطبيب المُعالج لمتابعته بصفتي صديقا قديما.

قالت حنين:

- عظيم جدًا.. على الأقل نعرف حالته قبل زيارته.

جلسنا ننتظر الدكتور المُعالج بضع دقائق، حين جاء لاستقبالنا رأينا فيه هيبة ووقارا، صافح كريم بجدية قائلًا:

- حضرتك أستاذ كريم؟

تقدم كريم خطوة وصافحه قائلًا:

- نعم أنا..

قال الدكتور:

- قالوا لي: إنك صديق قديم لسليم وتريد أن تطمئن على حالته

- في الحقيقة أنا مُقصر إلى حد كبير نظرًا لعدم وجودي بمصر..

قال الدكتور:

- أتابع حالة سليم منذ سنوات وبالفعل لم أرك من قبل.. على الأقل أتيت أخيرًا، قليلًا ما أرى لسليم زائرا، حتى أقاربه لا يأتي منهم أحد إلا نادرًا! لا يوجد إلا قريب واحد تقريبًا!

قالت حنين في تأثر:

- شيء مُحزن.

نظر إلينا الدكتور مُتفحصًا وقال..

- لا تبدون لي أصدقاء له، هل أنتم أقاربه؟

أجابه كريم سريعًا قبل أن نثير شك الدكتور فينا..

- أقاربي يا دكتور.. يونس يعمل على ماجيستير في الموسيقى، يطمح أن يثبت أنها علاج فعال في الطب النفسي، أراد فقط أن يرى كيف تسير الأمور، لكنني أوكلتهم بمتابعته لأطمئن عليه من وقت لآخر عندما أسافر.

ابتسم الدكتور وقال وقد بدأنا جميعًا نتحرك معه في اتجاه المصعد:

- لا بأس.. ليت الأمور بهذه البساطة.. سليم لا يتحدث منذ سنوات مهما كان الدافع، حسب التقارير الطبية لحالته فهو يعيش في حزن دائم وصمت طويل، رُبما يؤنب نفسه على شيء، يشعر بالذنب طوال الوقت، تراوده كثير من الكوابيس، هو يعي وجودك ويعي ما تقوله جيدًا، لكنه يختار صمته، ويتجنب النظر إلى عينيك، بالإضافة إلى الأعراض الجسمانية المستمرة، مثل: الصداع واضطراب الهضم وآلام الجسم المستمرة، حاولنا كثيرًا

علاجه بجميع طرق العلاج من أدوية وعلاج سلوكي.

تحسن بشكل طفيف لكن أقولها لكم.. لابد أن أحصل على مساعدة المريض نفسه، لابد أن تتوفر لديه الرغبة في الشفاء، مع الأسف سليم لا يرغب في الشفاء أو في الحياة نفسها، حتى إنه حاول الانتحار أكثر من مرة، فهو مُصاب بحالة اكتئاب شديد مُصاحب لعُزلة، وللأسف في مجتمعنا يستهين البعض بمرض الاكتئاب ويعتقدون أن المريض قد يتحسن بنزهة أو رحلة أو حتى بمرور الوقت، هذا ليس اكتئابا، الاكتئاب مرض شديد الخطورة إذا لم نبدأ في العلاج مُبكرًا، بالنسبة لسليم قد تكون صحته العقلية تأثرت عبر السنوات جراء أخذ الجرعات الدوائية، لكنه رغم ذلك يتمتع بذكاء استثنائي.

توقف المصعد في الطابق الثالث فهمست في أذن يونس:

- الطابق الثالث! أليست مفارقة عجيبة؟

ابتسم يونس.. عند الغرفة توقفنا، طرق الدكتور الباب طرقة سريعة ودخل، كانت هناك ممرضة تفتح ستارة البلكونة لتُنير الغرفة، ومن ثم الباب الزجاجي لتجدد هواءها، وبدأت تعطيه الدواء ثم وقفت في انتظار تعليمات الدكتور، بدت لي المشفى في مستوى جيد، لابد أن أهله لم يتخلوا عنه على الأقل في الأمور المادية.

كان سليم يجلس متوجهًا ببصره إلى البلكونة أمامه في صمت، رجل هزيل أسمر، يغطي الشعر الأبيض رأسه مُتناثرًا،

تحيط بعينيه الغائرتين تجاعيد واضحة، عظام وجهه البارزة تُعلن عن كثير من الألم، تبدو تعبيرات وجهه مصدومة، صامت شارد في اللاشيء، يُمسك بمسبحة تدور أصابعه بعُقدها دون أن تتحرك شفتاه، لا يوجد تشابه بينه وبين صوره القديمة التي بحوزتنا، ألهذا الحد يُبدلنا المرض؟ ألهذا الحد يطغى علينا الألم؟ لم ينظر إلينا أبدًا، في الغالب لم يزعجه وجودنا كأنه لا يرانا، دخل الدكتور وأقام معه حوار قصير من طرف واحد، أخذ ينظر إلى الكشف المعلق على طرف السرير وكتب فيه تعليماته، ثم توجه إلينا قائلًا:

- الزيارة المقررة نصف ساعة من الآن، أرجو عدم الضغط عليه بأي شكل من الأشكال.

انصرف وانصرفت معه الممرضة وبقينا وحدنا معه، أشار لنا كريم بالجلوس ففعلنا، مرت دقيقة ننتظر من كريم البدء في الحديث ونتمنى أن يتحدث سليم، نظر إليه كريم وقال:

- كيف حالك يا سليم؟ هل تتذكرني؟ أنا كريم الطالب بالسنة الأولى في كلية الموسيقى عندما كنت معيدا هناك في آخر سنة لك؟ لم نكن أصدقاء لكنني كنت أزوك في الماضي..

لم يتحرك سليم أو حتى تتحرك عيناه نحو كريم، فقال كريم مُمازحًا:

- ربما اختلفت قليلًا أو لنقل كثيرًا لأكون صريحًا..

ضحك كريم ضحكة خافتة في حين بقي سليم على حاله،

قال كريم:

- أعلم أنني مُقصر في حقك فلتسامحني، لم أكن في مصر، سافرت للعمل، أعتقد أنني سافرت هربًا مما يحدث منذ أن احترقت غرفة العزف، لم تتوقف الكوابيس إلا بعد أن تركت البلد.

نظرت إلى يونس وحنين في ذهول لكنه أكمل حديثه..

- الدكتور قال: إنك تسمع وتعي لكن لا تريد الحديث باختيارك أنت، حدسي يؤكد لي ذلك أيضًا، كأنك قد حكمت على نفسك حُكمًا أبديًا!! لماذا يا سليم؟ ألا نستطيع مُساعدتك؟

نظر إلينا يونس في حيرة في حين بدأ اليأس يزحف إلى عقلي أنا وحنين لمعرفة أية معلومة، مرة أخرى تحدث كريم دون يأس:

- أرجوك ساعد نفسك.. أنت لست ضعيفا، لا يوجد إنسان ضعيف، الضعف والقوة اختيار، ما عليك إلا أن تختار.. فلماذا تختار الضعف؟ أنا لا أعلم متى أراك ثانية.. فلتتحدث الآن.

همست حنين في أذني:

- يعجبني إصراره.

نظرت إليها وقد تأكد حدسي، إنه يُعجبها وهي تروق له أيضًا، هنا قام يونس من مجلسه وربت على كتف كريم وقال:

- كما قال الدكتور لن يتحدث، دعنا نحاول في وقت آخر..

نظر إليه كريم وقال:

- للأسف ستكون بمفردك، يجب أن أسافر قريبا.

قام كريم من مقعده وقبل رأس سليم وخرجنا جميعًا من

الغرفة، في الطريق إلى المصعد مشيت أنا ويونس في المقدمة وحنين وكريم يتحدثان خلفنا، التفت يونس مُوجهًا حديثه لكريم..

- لماذا لم تذكر تلك الكوابيس من قبل؟

أردف دون النظر إلينا وقد بدا حزينًا:

- مضت عليها سنوات ولم أتذكرها.

قلت في تلقائية..:

- هل تذكر شيئًا منها؟

قال كأنه يتذكر..

- أتذكر حرائق ومياها تملأ الأرض، موسيقى وغناء وصرخات.. وامرأة تجري ورائي كأنها تريد قتلي، كُنت في كل مرة أستفيق أدرك أنها كانت تستغيث لكنني لم أعرف كيف أُغيثها!

* * *

(٢٠)

فتحت ستائر غرفتي لأرى صديقي الأقدم الذي أعشقه، هل أراه راكدًا أم مُتدفقًا؟ هل يُخبرني النهر عما يحيرني؟ تُرى «ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ أن ابتغاء السلام على الأرض أمر مستحيل، لذلك كان الموت طريقًا له»، هل يكون الموت سلاما إلى الأبد؟ وإذا كان كذلك لماذا نواجه كل هذه المُعاناة في الحياة من الأساس لنصل إليه؟ رُبما لنتذوق طعم السلام.

قطع الهاتف أفكاري لأجيبه، كانت حنين تخبرني أنها سوف تصل للكلية قبلي، نظرًا لمبيتها في منزل جدتها الأقرب إلى هناك، لابد أنها قلقة فاليوم تنتهي المراجعات النظرية الأخيرة قبل بدء الامتحانات، تذكرت ميعادي مع يونس في الكافيتيريا، فأسرعت أستعد للخروج، سرقني الوقت وكُنت قد تأخرت عليه بالفعل، في طريقي إلى الكلية جاءتني رسالة منه «أين أنتِ؟»، فرددت عليه «دقائق وأكون عندك».

عند دخولي فناء الكلية أدركت على الفور أن ثمة أمرا غريبا قد حدث، كان الطلبة ملتفين حول أحدهم داخل إحدى البرجولات، هل أتى كريم مرة أخرى؟ ولكنه أكد سفره لنا! دخلت بين الطلبة المُتزاحمين لأرى ما يحدث، كانت حنين جالسة

تبكي بهيستيرية! على يدها آثار دماء وتضع عليها الكثير من المناديل الورقية، يقف إلى جوارها يونس والدكتور قابيل يهدئون من روعها، رآني يونس، فأفسح لي مكانا لأكون بجوارها، فسألته:

- ماذا حدث؟

قال يونس بصوت خافت..

- لا أدري.. كنت أحضر القهوة فسمعت صراخا مدويًا بالطابق الثالث، هرولت إلى المبنى وهممت أن أصعد لكنني رأيتها تسقط من أعلى الدرج إلى أن بلغت آخره ويدها تنزف! ساعدتها على النهوض وكانت في حالة بائسة كما ترين!

جلست بجانبها وما إن رأتني حنين حتى ارتمت في أحضاني وقالت باكية:

- فريدة.. أين أنتِ؟ أحدهم أراد أن يؤذيني.. لن أصعد إلى الطابق الثالث أبدًا..

ظلت تبكي، فاحتضنتها وأخذت أربت على كتفها وأنا أنظر في عينيها وأقول:

- احكي بهدوء يا حنين.. نحن جميعًا حولك، لن يؤذيك شيء ما دمت على قيد الحياة.

بكت قليلًا ثم تناولت جرعة ماء من يونس، وبدأت تسرد ما حدث وسط صمت الجميع:

- جئت مُبكرًا كما تعرفين، قبل أن أبتاع قهوتي من الكافيتيريا.. تذكرت أنني نسيت البارحة ملف النوتات

الموسيقية الخاص بمنهج السنة داخل المبنى، قُلت ربما قد نسيته بإحدى غرف المحاضرات بالطابق الأول أو الثاني، كانت الكلية خالية تمامًا، فأخذت أدخل كل غرفة على حدة ولم أجده...

نظرت إليَّ وبكت فقلت..

- وماذا في ذلك يا حنين؟

جففت دموعها وأكملت وقد تورمت عيناها من كثرة البكاء:

- كُلما دخلت غرفة وجدتها غرفة العزف الثالثة بالترتيب من اليسار في الطابق الثالث! أخرج من أى غرفة فأجد نفسي بالفعل في الطابق الأول أو الثاني! وبعد أن أدخل أي غرفة مرة أخرى أجدها غرفة العزف بالطابق الثالث! كانت إضاءة الغرفة ترتعش ثم تُضاء إضاءة شديدة! لكنني مُتاكدة أنني لم أصعد إلى الطابق الثالث، كنت أتنقل بين الطابقين الأول والثاني! أنا واثقة تمام الثقة! لم أكن لأصعد إلى الطابق الثالث بمفردي أبدًا.

قال الدكتور قابيل..

- هل هذا كل ما حدث؟

بينما كانت تسرد ما حدث إذ نظرت إلى فوق، فوجدت الدكتور صالح يقف بالطابق الثالث مُتفرجًا يدخن سيجاره في هدوء، لم يتكلف عناء فهم ما حدث كما فعل الدكتور قابيل ويونس، أكملت حنين:

- لا.. في إحدى المرات وأثناء دخولي إلى إحدى الغرف التي تحولت إلى غرفة العزف، فُتحت مروحة السقف دون أن

ألمسها.. فأردت أن أطفئها عبر المفتاح الخاص بها، كان المفتاح يعمل لكن المروحة لم تستجب، أخذت أجرب أن أطفئها مرات دون فائدة، تصرفت بغباء.. كان لابد أن أرحل، لا أعلم لماذا أردت أن أطفئ المروحة!

فجأة شعرت بيد تدفعني بقوة خارج الغرفة، فوقعت من شدة الدفع في الممر بالفعل، ثم أُغلق الباب بقوة وسمعت نوتة موسيقية تُعزف بداخل الغرفة! نظرت حولي فوجدتني في الطابق الثالث! نهضت لأهبط منه لكنني سمعت صوت خطوات بجانبي والعزف مازال مُستمرًا بداخل الغرفة! أقف فتتوقف الخطوات، أُسرع فتُسرع.. أُبطئ فتبطئ! أخذت أجري إلى الدرج والخطوات تجري معي حتى وصلت إليه وإذا بامرأة مُخيفة تظهر فجأة لحظات بجانبي تمامًا.. ثم تصرخ في وجهي وتدفعني بعنف لأسقط على الدرج كله وأستقر في آخره ليجدني يونس أنزف!

توقفت المسكينة عن الكلام ولم تتوقف عن البكاء، بات الطلبة في حالة ذعر، نظر إليها الدكتور قابيل ثم إلى باقي الجمع في شفقة وقال:

- سوف نرى ما يمكننا فعله.. أنا أقترح تأجيل المحاضرات وتدريبات العزف اليوم على الأقل.

قال يونس:

- من الأفضل فعل ذلك يا دكتور.

قلت في تساؤل:

- أين الأمن من كل هذا؟ أين العم سيد؟

نظر الطلاب حولهم باحثين عنه، فقال يونس:

- ربما ذهب ليحضر إفطاره أو يبتاع شيئًا من بقالة قريبة، فمازال الوقت مبكرًا.

تركنا الدكتور قابيل وذهب للمشاورة في الأمر مع باقي أعضاء التدريس، لكنه عاد بعد دقائق يهز رأسه في يأس يمينا ويسارا ويقول.

- للأسف لم يوافق الدكتور صالح واقتنع باقي الأعضاء بذلك نظرًا لضيق الوقت.

نظر يونس في ضيق ثم التفت إلى الطلبة:

- لا بأس يا شباب، نحن جمع كبير من الصعب أن يصيبنا شيء، حنين كانت بمفردها وقد نوهت عن الأمر كثيرًا، نحضر المحاضرات النظرية في الطابقين الأول والثاني وأنا معكم طوال اليوم.

سأل طالب بصوت عالٍ..

- وماذا عن تدريبات العزف؟

قال يونس..

- نتدرب جميعا في المسرح، فكما تعلمون يوجد به كل الالآت.. استعدوا سوف نحصل على قسط وفير من المرح اليوم.

كان الدكتور صالح مازال بالطابق الثالث يسمع يونس بوضوح ويدخن سيجاره في هدوء.

***

(٢١)

ابتسمت حنين ابتسامة بلهاء أعرفها جيدًا وقالت في سعادة:

- يجب أن أعترف لكِ.. تبادلنا أرقام هواتفنا يوم زيارة سليم، ومن وقتها لم ننقطع عن الكلام، عن معرفة أدق تفاصيل حياتنا اليومية، عن الاهتمام يا فريدة.

ابتسمت بدوري وقلت لها بثقة:

- كُنت واثقة من هذا يا حنين، أتظنينني بلهاء لم أفهم لغة الإعجاب بينكما؟

ضحكت وقالت:

- لم أكن أعلم أنك لئيمة إذًا.. وجدت به كثيرًا مما أتمنى.. هل يدوم كل ذلك؟

قلت في صدق..

- لا ضمان لشيء في الدنيا، عليكِ أن تستمعي بالحاضر ولا تُرهقي ذهنك بالمستقبل.

دخلت أمي الغرفة حاملة القهوة ومخبوزات تصنعها بنفسها في البيت، تناولتها حنين من أمي وشكرتها، لاحظت نظرات ود بينهم، كانت أمي لا تحب حنين في الماضي لكنها بدأت ترحب بصداقتنا الآن بعد أن أطمأنت لها، ربما كانت مثلي تحكم بالمظاهر

أيضًا، انصرفت أمي فسألتني حنين:

- أصبح عمر علاقتك بيونس أشهرًا الآن.. هل استمرت شعلة الفضول بينكما؟

قلت:

- أشهر قليلة في عمر أية علاقة هي وقت قصير، لكن ما نحياه في هذا الزمن يجعلنا نفعل كل شيء في سرعة، التكنولوجيا دمرت كثيرًا من معاني الحب التي نراها في الأفلام القديمة والتي حكى لنا آباؤنا عنها، مشاعرنا اُختصرت في (Emoji)، لم يعد الأمر بتلك الحلاوة، لذلك أكرر عليكِ نصيحتي.. استمتعي بما لديكِ الآن، الأحاسيس المرهفة والسعادة الغامرة لمجرد رؤية اسمه يتصل بكِ، الضحك معًا، الشغف والمشاركة اليومية لأشياء قد تبدو تافهة، ربما لا تحصلي عليها غدًا لأي من الظروف أو الملل أو المسئوليات، هذا ما أراه دومًا حولي.

بدأت حنين تشرب القهوة وتنظر في عيني مُباشرة، ففهمت ما تقوله عيناه وأجبتها..

- أنا ويونس على خير ما يرام، هو فقط مشغول بأمر الكلية وما يحدث للطلبة بالطابق الثالث ربما أكثر مما هو مشغول بي ومعي، وبالتالي لا تستقر الأمور على وضع، مشاكسات في بعض الأوقات، وباقي أوقاتنا تذهب في حديث عادي أو مراجعات دراسية، أحيانًا أقلق على علاقتنا، أتمنى لو أنهي دراستي فيها ويعمل هو بمكان آخر.

تركت حنين القهوة وقالت في جدية:

- يونس شخص مسئول، يشعر بالمسئولية تجاه كل من حوله، عندما يكون في الكلية أشعر أنه يريد أن يحمي كل الطلبة، عليكِ أن تفخري بهذا يا فريدة، كما قلتُ لكِ سابقًا هذا الرجل نادر، في عصرنا تتذمر الرجال من المسئولية وتهرب منها، اعذريه.. إن توالي الأحداث المريبة في الطابق الثالث أمر مُحير، ولا تنسي أن الأمور التي حدثت معنا كانت أكبر مما يرويه الطلبة.

قلت:

- الشيء الوحيد المشترك في روايتهم هي تلك المرأة التي يرونها تروح وتجيء بالطرقة دون توقف!

قالت حنين:

- وصوت الصرخات.. وكذلك صوت العزف والكركبة المنبعثة من غرفة مخزن الهالك كل يوم بعد الغروب! أتعلمين أنني لا أتحدث في الأمر ليلًا أبدًا حتى ولو كنت في بيتي؟

قلت:

- مكان عجيب، لا أعلم كيف يبقون على استمرار الدراسة فيه إلى الآن!

نظرت حنين إليَّ ساعتها وقامت منتفضة ثم قالت:

- لن أذهب اليوم للكلية.. يجب أن أذهب مع أبي إلى المشفى، ويجب أن تقابلي أنتِ يونس في الكلية.. فلتستعدي حتى لا يسرقنا الوقت، مازلنا في الصباح الباكر، هاتفيني بعد

أن ينقضي اليوم.

انصرفت حنين وبدأت بالفعل أستعد للذهاب إلى الكلية، وعندما وصلت رأيت العم سيد عند البوابة يشرب كوبًا من الشاي، عندما رآني نظر في الاتجاه المعاكس يتحاشى النظر إليَّ فتجاهلته، ذهبت لمقابلة يونس في الكافيتيريا كما اتفقنا، بدا يونس مُرهقًا قلقًا، بجانبه كثير من أكواب القهوة الفارغة، سألته في قلق...

- يونس.. ماذا حدث؟

احتضن يدي بين يده دقيقة وهو يسلم عليَّ، ثم قال..

- فريدة.. كُنت أنتظرك.

جلست وقد تضاعف قلقي عليه وقلت..

- يبدو أن الأمر خطير؟

- نعم هو كذلك.

علت دقات قلبي وفكرت أنه يريد إنهاء علاقتنا، هذا وجه يقول كل شيء، استجمعت قواي وتظاهرت بالقوة وقلت:

- لا عليك.. فلتقل ما ترغب في أن تقوله.. كُلي آذان صاغية.

ابتسم يونس ابتسامة مُحيرة وقال..

- في الفترة الأخيرة اقتربنا أكثر، عرفنا الكثير عن شخصياتنا، توافقنا واختلفنا، لا أنكر أنني استمتعت برفقتك..

قاطعته:

- لكن...

قال على الفور وهو لا ينظر إليَّ..

- لكن كان هناك بعض المُشاحانات، التي ولا شك تعلمنا منها.. لا أعرف ماذا أقول في الحقيقة..

قلت وأنا أكبح دموعي:

- قُل ما شئت.

انتظر قليلًا وأنا أقاوم دموعا في طريقها لا محالة ثم قال وهو ينظر في عيني بجدية:

- فريدة.. يجب أن نُعلن خطبتنا، لا أطيق صبرًا، كُنت أفكر في الأمر طوال الليل، لماذا تريدين التريث أكثر من هذا؟

تنفست الصعداء ونزلت دموعي رغما عني، تأثر يونس وقال:

- علمت ما كنتِ تفكرين فيه يا حبيبتي، على العموم لقد تحدثت بالفعل مع والدتك عبر الهاتف البارحة، يجب أن تشكري حنين؛ لأنها قامت بترتيب كل شيء بيننا، بل مهدت كل شيء لي.

غلبتني فرحتي فعلا صوتي قائلة:

- لم يقولا لي شيئًا اليوم.. لهذا كانت الأجواء غريبة بينهم.. الآن فهمت.

قال يونس:

- إن لكِ صديقة تتمنى لكِ الخير من كل قلبها، اتفقنا أن نفاجئك.. سوف نزوركم بعد الغد إن شاء الله لقراءة الفاتحة، ثم نُعلن خطبتنا يوم التخرج، أتعلمين أنه سيكون الموافق يوم

ميلادك أيضًا.. أنا لا أنتظر ردك، أنا أخبرك ما سيحدث فقط.

ثم ابتسم برقة وضحكنا معًا وشعرت أنه لم يعد يهتم بنظرات المحيطين بنا كثيرًا، فهو رجل يحترمني في كل الأحوال، لم يصدر منه تصرف واحد يُخجلني أو يضعني في موقف مُحرج، ارتسمت ملامح جدية على وجهه وقال:

- اليوم.. اتبعيني بدون أسئلة، سوف تعرفين كل شيء لاحقًا.. اتفقنا؟

قلت وأنا أنظر في عينه وقد غمرتني الفرحة:

- أتبعك حتى آخر عمري.

***

(٢٢)

انقضى اليوم في المراجعات النظرية وسط نظرات الطالبات والطلبة المُريبة، ومُباركة بعضهم! بالطبع كانوا يتنصتون علينا في الكافيتيريا، حتى إن العم سيد نفسه أتى وبارك لي! في مجتمع صغير ككُليتنا لا يوجد أسرار أو حُريات شخصية، الجميع يعلم كل شيء عن بعضه، أحيانًا أشُك أنهم يعلمون ما يدور في بيتي!

اتفقت مع يونس على التدريب في الطابق الثالث! تُرى ما الذي يدور بخاطرك يا يونس؟ صليت المغرب وجلست في إحدى البرجولات أنتظر يونس حتى يُكمل صلاته، فعزفت الكامنجا قليلًا من الوقت، ولما انتهيت أردت أن أشرب قليلًا من القهوة لأتحمل يومًا طويلًا، عند الكافيتيريا وجدته هناك فوقفت وراءه دون أن يراني أو يشعر بى، أحضر كوبان من القهوة والتفت وراءه وقال في ثبات:

- هيا بنا إلى الطابق الثالث.. أحضرت القهوة التي تريدينها.

اتسعت عيناي مُندهشة فقلت:

- كيف عرفت أنني خلفك وأريد قهوة؟

قال وهو ينظر إليّ بطرف عينه:

- لا يحتاج الأمر كثيرًا من العناء.. شممت رائحتك، وأعلم

جيدًا أنكِ لن تركزي بدون قهوتك.

أحسست بخِدر جميل يسري في عقلي وقلبي معًا، ما زال ينظر إليّ في حب لم أختبره معه من قبل، وكأن علاقتنا انتقلت إلى مستوى آخر يحمل الكثير بداخله، رأى يونس كل ما جال بخاطري في عيني فابتسمت عيناه وأشار إلى لأتبعه قائلًا:

- لنبدأ العزف..

مشيت وراءه في نشوة وسكينة لندخل بهو المبنى، السيدة ذات العيون الكحيلة الواسعة في اللوحة الزيتية لم تُخِفني، كذلك كل التماثيل المُتناثرة، ثم تذكرت الطابق الثالث وأن النهار قد تجاوزنا بعد أذان المغرب، أكان لزامًا علينا أن نعزف ليلًا؟ قال يونس وكأنه يُملي عليّ تعليماته..

- الطابق الثالث خالٍ تمامًا الآن، كنت أنوي أن تكون حنينُ ثالثتَنا لكن الحمد لله أنها أقسمت ألا تصعد إليه مرة أخرى في الليل، أريد أن أحمي من معي إذا ما تطور الأمر، لا يجب أن يتملكك أي هاجس، لا تخافي، فقط اذكري الله كثيرًا لن يمسّك ضُر أبدًا، أما أنا يا فريدة فربما لا تعلمين أنني قد أضحي بنفسي من أجلك إذا تطلّب الأمر ذلك.

ما باله اليوم يقول ويفعل الأشياء قبل أن أقولها وأفعلها! أردفت:

- أنت اليوم غريب.. تراني خلفك وتحضر القهوة التي كنتُ على وشك إحضارها! والآن تسمع ما بعقلي وتعطيني إرشاداتك

لتخطّي ما يدور بعقلي! ماذا بك؟

توقف يونس على الدرج وكنا في الطابق الأول والتفت إليّ وقال في حنان:

- يحدث هذا عندما يكون الرابط الروحي بين المحبين شديدًا، نشعر ببعض كما أشعر بكِ اليوم.

أردفت في صدق:

- يونس.. أنا أحبك.

ابتسم ونظر لي نظرة لن أنساها ما حييت وقال:

- أحببتك أنا أولًا وتمنيت كل هذا.. دعوت الله كثيرًا فأنعم عليّ بما تمنيت، لنتذكر كل هذا جيدًا في خلافنا وأوقاتنا الصعبة.. سيهون الكثير علينا.

فجأة قبل أن أرد عليه سمعنا صوت ارتطام كبير ربما لآلة ما، يأتي من الأعلى! نظرنا إلى الأعلى ثم إلى بعضنا، فقال يونس:

- ربما تسألين نفسك لماذا أضعك في موقف قد يكون خطرًا كهذا؟ أقول لك إنني في الأيام الفائتة كنت أعزف كل النوت الموسيقية ليلًا في الطابق الثالث، ولم يحدث إلا بعض الأشياء البسيطة، أصوات غريبة هنا وهناك، أعتقد أن الأمر متعلق بعزفك أنتِ!

اندهشت عندما سمعت ما قال لكنه أكمل:

- لا أعلم لماذا أشعر أننا على ميعاد بأحدهم الليلة، كوني بجانبي ولا تفارقيني أبدًا، وتذكري الله.. فإن الله أكبر من كل شيء.

أومأت موافقة وكلي ثقة، خليط من المشاعر ينجرف داخلي، خوف وطمأنينة، أسئلة كثيرة، ثقة كبيرة في يونس، بدأنا في الصعود مرة أخرى يتقدمني يونس، الأصوات ما زالت تنبعث من أماكن مُتفرقة، هذه المرة ربما أسمعها من كل الطوابق؛ إذ إننا بعد أن تركنا الطابق الأول سمعنا به صوت ارتطام كالذي سمعناه من أعلى، وصلنا الطابق الثاني فسمعنا نفس صوت الارتطام! وكأنه إعلان عن وجودنا أو وجودهم! وصلنا الطابق الثالث وشعرت برهبة كبيرة، لكن لم نسمع أي صوت حينها، نظر إلى يونس وقال:

- الأنوار كلها مضاءة بالكامل هنا، هذا جيد.

أردفت بنبرة خائفة:

- تذكر أننا يجب أن نُغلقها جميعًا عند رحيلنا.

ضحك يونس ضحكة سريعة وقال:

- سوف أفعل.. فقط لا تخافي.. اتفقنا؟

دخلنا غرفة العزف الثالثة، وضعت حقيبتي على الأرض وأعطاني يونس قهوتي وابتسم، جلست لأشرب قهوتي فرأيت الظرف الذي يحوي الصور القديمة والنوتة الموسيقية على البيانو! تركت قهوتي على البيانو بسرعة وأشرت إليهم في فزع قائلة:

- يونس.. ما الذي أتى بها الآن؟

تنبّه يونس ثم قال على الفور..

- اهدئي يا فريدة، أنا مَن أحضرتها هنا قبل أن أحضر

القهوة، هذه نوتة تخرّجك كانت مع الصور.. هل تذكرين أنهم كانوا بحوزتي في السيارة في اليوم الذي قابلنا فيه كريم؟

وضعت يدي على صدري أحاول أن أهدئ من أنفاسي المُتلاحقة، أغمضت عينيّ فأكمل يونس:

- فريدة.. أريدك أن تكوني أقوى من هذا.

أومأت له بعيني ولم أعلق، كان هادئًا إلى أبعد حد، بدأ يَفرز النوت الموسيقية التي كُنت قد تدربتُ عليها من قبل، شرب كوب القهوة دفعة واحدة على غير عادته، ثم نظر إلى ساعته وقال..

- أمامنا ساعتان بالضبط، يجب أن نستغلهما، بعد أن تُنهي قهوتك، نبدأ أول نوتة موسيقية.

كُنت أشرب القهوة وأنظر إليه كأنني أتفقده، بينما كان هو مُنتظرًا أن نبدأ التدريب.. بعد أن أنهيت قهوتي قال:

- لنبدأ أولى النوت الموسيقية.. كما قلت لكِ سابقًا.. تَوَحدي مع الآلة.. اشعري بها.. تذكري أن أصابعك تلمس الآلة وهي أيضًا تُلامس أصابعك.. اجعليها تغني الكلمات بدلًا عنكِ، تذّكري أنها تشعر بكِ، حين تفعلين ذلك.. تعطيكِ الآلة أجمل ما فيها من نغم.

لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمات، لم أسمعها في حياتي إلا من يونس فقط، بدأت العزف نوتة موسيقية بعد الأخرى وتلقيت كثيرًا من التوجيهات، كُنت أتوقع حدوث أي

شيء، بدا يونس غير مهتم إلا بالعزف، لكنه كان ينظر من حين لآخر باهتمام خلفي في اتجاه الباب، كان يحاول جاهدًا ألا ألمحه لكني فعلت.. بعد أن انتهيت من آخر نوتة نظر يونس إلى ساعته وقال وهو ينظر إليّ نظرة ذات مغزى:

- الوقت يمر بسرعة غريبة.. بقيت نصف ساعة فقط حتى نرحل، نتدرب على نوتة حفل التخرج «النوم الأسود»..

تعاملت مع الأمر باحترافية كما علمني يونس، بالرغم من علمي أنه كان ينوي شيئًا من الأساس، وضعت النوتة الموسيقية القديمة أمامي على الحامل.. سمّيت الله وبدأت العزف.. ويونس يروح ويجيء مُستمعًا في الغرفة.

بعد أن أنهينا أول مرة من العزف، سمعنا صوت خطوات منتظمة، نظر لي يونس ووضع إصبعه على شفتيه في إشارة لكتمان الصوت، أخذت الخطوات تقترب أكثر وأكثر من الغرفة في انتظام، ثم توقفت الخطوات خلفي، وسمعت صوت عم سيد يقول:

- سمعت صوت العزف لا ينقطع مع علمي أن الكلية شبه خالية! لكن الأنوار كلها مضاءة! فعزمت على تنبيه مَن بالداخل، هل أنتم مستمرون في العزف؟

تنفّست بعد أن كدت أصاب بأزمة قلبية واستدرت لأراه، نظر إلينا عم سيد بريبة، تبسّم له يونس في خبث لم أعهده عليه وتغيّرت نظراته، ثم تمشى إلى الباب في بطء حيث يقف عم سيد وربَت على كتفه! تعجبتُ لطريقته كثيرًا، ثم قال وقد تغيرت نبرة

صوته وأصبحت مُخيفة:

- ها أنت أخيرًا تصعد ليلًا بمفردك إلى الطابق الثالث! ألا تخاف من ساكنيه؟

حدّق عم سيد في وجه يونس وابتلع ريقه وقد بدأ يتعرق عندما سمع صوت يونس الجديد، أنا أيضًا بدأت أخاف ولم أعلم ماذا أفعل؟ المفترض أنني أحتمي بيونس! ما الذي يحدث؟ نظر إليه الرجل في خوف ولم يعلق، لكن يونس أكمل حديثه بنفس الطريقة:

- تفضل.. هل تريدني أن أعزف النوتة الموسيقية مرة أخرى؟ أم تريد مشاركتنا؟

بادل الرجل نظراته بيني وبين يونس و قال بنبرة مرتعشة:

- أشكرك.. لا بد أن أذهب، فقط أطفئوا الأنوار عندما ترحلون، السلام عليكم.

انطلق الرجل يجري على الدرج رغم ضخامة حجمه، فضحك يونس ضحكة مُخيفة وقال بصوت عالٍ:

- سوف أراك قريبًا.

أصابني الرعب، التفت يونس بعدها إليّ وقد بدا طبيعيًّا مرة أخرى وقال بنبرة صوته الطبيعية:

- فريدة.. نريد أن ننهي العزف، ما زال أمامنا عزف طويل، بَقِيَ أقل من عشرين دقيقة.. هيا.

أغمضت عيني وتذكرت الله في نفسي وقرأت آية الكرسي

سريعًا، ثم بدأت عزف النوتة من جديد، لم يتوقف يونس عن النظر خارج الغرفة، كانت عيناه تتحركان يمينًا ويسارًا وكأنه يُلاحق أحدًا، أنهى يونس عزفي بتصفيق وجلس على الكرسي أمامي وهو يُبعد حقيبتي لكي لا يرتطم بها ثم قال:

- الآن ابدئي من المقطع الثالث..

وكان يقصد المقطع الذي تبدأ معه الأحداث كل مرة، بدأتُ العزف رغم توتري الشديد وأنا أضغط على أعصابي كي أنسى ما رأيته منذ دقائق مع يونس.

رأيت يونس يدندن اللحن معي بصوت غريب مُندمجًا مع صوت نغمات البيانو.. وفجأة انقطع النور كله، ساد الظلام الدامس حولنا، لا أرى أي شيء ولا أستطيع أن أحضر هاتفي من الحقيبة، كما أنني بت أخاف من يونس، ماذا أفعل؟ سمعت صوت الكرسي يُجر على الأرضية الخشب، ثم أضاء نور هاتف يونس فرأيته، أمسك يدي وأشار إليّ ألا أتحدث، خرجنا من الغرفة فكان صوت عزف عالٍ يأتي من مكان قريب! لم أتبين هل أظلم الطابق الثالث فقط أم الكلية بأسرها، تتبع يونس الصوت في آخر الطرقة عند صندوق الكهرباء، كانت مشاعري مُتداخلة ومتناقضة ولا بد من قرار، هل أثق بيونس أم لا؟ تغلّب صوت قلبي على كل شيء، فوجدت نفسي أُمسك بيد يونس بقوة وأحتمي به.. وهو يبدو أنه مصرّ أن يصل لحقيقة ما يحدث في المبنى رغم علمه بالخطر، ضغط على يدي برقة وشعرت أنه

يطمئنني فاطمأننت بعض الشيء، شعرت بيونس الذي أحببته، همس في أذني حينها:

- لا تُصدري أي صوت على الإطلاق..

كان العزف يأتي من غرفة مخزن الهالك المُغلقة وعلى بابها القفل الكبير! نرى النور واضحًا من تحت أعقابها يكسر الظلام بالخارج، وكان العزف مُتقنًا وبديعًا.. عندما اقتربنا منها انطفأ النور وسكت العزف! في نفس اللحظة بدأ العزف من جديد في غرفة أخرى من غرف العزف بابها مفتوح ونورها مُضاء، اقتربنا منها وحين هممنا بالدخول انطفأ النور وأُغلق الباب!

همس في أذني من جديد:

- اذكري الله في نفسك.. لا تخافي.

كان ضوء أبيض يدخل ويخرج من الغرف، ثم تتوالى الغرف في الإضاءة والعزف واحدة بعد الأخرى في عشوائية تامة؛ فما نكاد نصل إلى غرفة ما حتى تُغلق وينقطع العزف، ليبدأ من جديد في غرفة أخرى! شعرنا بالإرهاق في دقائق قليلة، فتوقفنا عن ملاحقة صوت العزف، فتوقف العزف وساد الظلام إلا من هاتف يونس!

ثم أضاء نور غرفة مخزن الهالك وأصبح بابها مُواربًا! وبدأ العزف من داخلها مُدويًّا! اقترب يونس من الغرفة بهدوء وأنا خلفه إلى أن بلغنا الباب فلم يغلق.. لم تُظلم الغرفة أو ينقطع العزف! نظر إليّ يونس في إشارة لندخل الغرفة فكتمت أنفاسي

وكُنت في شدة الخوف لكنني تَبِعته.

أزاح يونس الباب في هدوء وكأنه لا يريد أن يزعج العازف، ما إن فُتح الباب عن آخره حتى توقف العزف! كان البيانو مُغطى بنفس قطعة القماش التي رأيناها من قبل، نظرنا إلى الغرفة كلها في توجس، لكن نور الغرفة ارتعش للحظات لم أرى فيها شيئًا، ثم وجدت يونس يجلس عند البيانو وقد أزال قطعة القماش من عليه، وبدأ يعزف «النوم الأسود»! بنفس الطريقة التي سمعناها منذ دقائق!

للحظات وقفت ذاهلة لا أدري ما الذي يجري؟ هل حدث شيء ليونس؟ كيف حفظ النوتة بسرعة هكذا؟ هل أتعامل معه الآن؟ هل أثق فيه؟ أم أهرب؟ هل أقف بجانبه؟ شعرت بدوار أفاقني منه يونس وهو ينظر إليّ ويقول في نبرة غريبة لم أسمعها منه من قبل..

- الأوتار يا عزيزتي تهلك كما يهلك أي شيء آخر في هذه الدنيا..

ارتعشت وأنا أراه على هذه الحالة وبدأت دموعي تنساب؛ لكنه لم يبالِ وأكمل وهو يعزف..

- لذلك لا بد من إعادة ضبطها من جديد حتى تستمعى لألحان مضبوطة.. ألا توافقين؟

هززت رأسي في خوف ولم أستطع أن أتحكم في دموعي وقلت..

- نعم.. أوافقك.

أكمل حديثه وهو يعزف..

- كل هذا لكي تضبطي أذنك فتتعلمين التفرقة بين الصواب والخطأ.

مرة أخرى أومأت له بالموافقة فأكمل..

- يحدث هذا في العالم كله، لكن هنا.. هنا يهلكون الآلات مرة واحدة.. لا يعطونها فرصة أخرى، من أجل كثير من المال.. المال زينة ولعنة..

ثم ترك البيانو وقام يمشي نحوي في بطء، اقترب مني أكثر ينظر إلي مُبتسمًا ابتسامة مُخيفة فكاد قلبي يتوقف.. قرأت آية الكرسي بصوت عالٍ فارتعش النور مرة أخرى ووقع يونس مغشيًّا عليه، فأسندته قدر استطاعتي وأظلمت الغرفة.

بقيت أنا ويونس في الظلام لدقائق على ضوء هاتفه المُنبعث قريبًا منا، لم أكن خائفة من يونس وقتها، أخذت أوخزه برفق حتى أفاق فحمدت الله، نظر إليّ وقال..

- فريدة.. ما الذي أوقعني هكذا؟

أردفت..

- لنخرج من هذا المكان وسوف أحكي لك كل شيء.

فجأة أضاءت كل الأنوار مرة واحدة! نظرنا حولنا في دهشة فوجدنا أنفسنا في غرفة العزف التي كنا نتدرب فيها وليس المخزن! لم نرَ بوضوح في الإضاءة الشديدة بعد الظلام الدامس..

فُتحت جميع أبواب غرف العزف.. وبعد لحظات عزفت كل الآلات بصوت صاخب ومرة واحدة نوتة موسيقية واحدة.. «النوم الأسود»!

وقفت مكاني أبكي وأنظر ليونس الذي كان مُندهشًا مثلي تمامًا ثم قال بصوت عالٍ:

- ما بال هذه المقطوعة؟ ما السر وراءها؟ أريد أن أعرف..

ساعدته لينهض قائلة..

- لا وقت لهذا.. هذا المكان شيطاني، لا بد أن نرحل الآن يا يونس أرجوك.

وضع كلتا يديه يغطي وجهه وقال مُتنهدًا..

- يا الله ساعدنا.. يجب أن أطفئ الأنوار.

قلت له مُحذّرة..

- اترك كل شيء كما هو.. لا بد أن نخرج من هنا الآن.

أخذ الظرف والنوتة الموسيقية القديمة وتحركنا نحو الدرج، العزف لم ينقطع، جميع الآلات الموجودة في الطابق الثالث تعزف نفس اللحن! لم نصدق ما نراه أو نسمعه، هبطنا الدرج بسرعة فوجدنا إضاءة الكلية بالكامل مُضيئة! كان الهدوء يخيم على فناء الكلية كالعادة فيسري الصوت بسهولة، وعند باب البهو سمعنا صوت عم سيد عاليًا يتحدث عبر الهاتف باكيًا ويقول..

- هما بالداخل الآن يا سيدي، يا دكتور العمر واحد.. أنا لن أصعد مرة أخرى ليلًا أبدًا بعد كل ما حدث لي.. بالطبع لا

يتدربان على العزف.. بل يبحثان عن الحقيقة.. نحن في خطر.

خرج يونس فجأة وأنا خلفه بعد أن سمعنا حديثه، وقف يونس أمامه، ففهم عم سيد أننا سمعنا حديثه، فتوقف عن الحديث وأطفأ هاتفه على الفور في ارتباك، ثم جرى نحو باب الكلية مُرتعبًا فقال يونس..

- الآن علمتُ أننا نسير على الدرب الصحيح.

***

(٢٣)

- كان يتحدث إلى دكتور صالح بلا شك.

قلتها وأنا أجلس بجانب يونس في سيارته في صباح اليوم التالي، أصر يونس على زيارة سليم مرة أخرى، لم يعلق فأردفت وأنا أنظر إلى الظرف والنوتة الموسيقية في تابلوه السيارة أمامه..

- كان من الممكن تأجيل زيارة اليوم لبعد غد كي نستريح قليلًا، فما حدث لنا البارحة أمر غير هيّن.

ربَت يونس على يدي في ود وقال:

- سوف ينتهي كل ما يُؤرقنا قريبًا إن شاء الله.

أوقف يونس السيارة وخرجنا منها، وفجأة عندما خرجت من السيارة وأغلقت بابي أمسك يونس ذراعي وجذبني خلف السيارة وأخفض رأسي بحيث لا يرانا أحد في جهة المشفى المُقابل لنا! فقلت له مُندهشة:

- ماذا بك؟

فأشار نحو باب المشفى، فرأيت دكتور صالح يخرج منه ثم وقف ليُشعل سيجارًا! انتظرنا حتى انتهى وانطلق بسيارته.. نظرنا لبعضنا في ذهول فقال يونس:

- أرأيتِ.. كان لا بد أن نزور سليم اليوم.. ثمة أمر مُريب.

دخلنا المشفى حسب الميعاد المقرر للزيارة، وعندما سألنا عنه موظفة الاستقبال قالت: إن سليم كان يجلس في حديقة المشفى، لكنه ذهب إلى المرحاض، وسوف تُحضره الممرضة بعد قليل، سألها يونس..

- هل كان الدكتور صالح يزور سليم الآن؟

قالت على الفور:

- أهو دكتور بالمشفى؟

أردفت في تلقائية..

- لا إنه أحد أقارب سليم.

قالت وهي تُجيب على الهاتف في عجلة..

- أنا لا أعرف أقاربه ولم أرَ أحداً منهم من قبل، ربما جاء قبل أن أتسلم الوردية فقد حضرت متأخرة اليوم.

شكرها يونس وخرجنا إلى الحديقة، جلسنا على إحدى المقاعد الخشبية القريبة من المبنى ننتظر سليم، نظر لي نظرة كلها امتنان وقال:

- لو أن أحدًا غيركِ روى لي ما حدث معي البارحة لما صدقته أبدًا، أتتغير نبرة الصوت وتتغير الأفعال دون إدراك؟! أيغشى على المرء دون أن يشعر! لكنني مُمتن لكل هذا لأنه جعلني أعلم مدى ثقتك بي وحبك أيضًا.

قلت بنبرة جادة يمسحها قليل من المرح:

- ألم تعلم بعد يا يونس؟

ضحك يونس ضحكة خافتة وقال:

- أعلم يا حبيبتي.. أعلم، أنا آسف على كل ما مررتِ به.. وأشفق عليكِ من التجربة؛ لكن وجودك كان في غاية الأهمية.

تنهدتُ وأنا أفكر في أمر الدنيا برمتها وأردفت..

- الأمر برمته عجيب.. لماذا أنا؟ وماذا لو كُنت فقدتك؟

ثم شردت فنبهني يونس قائلًا..

- ماذا بكِ الآن؟

نظرت إليه وقُلت..

- أتعلم يا يونس أنني أفكر كثيرًا في أمر الفقد، هل نفقد بعضنا بالموت فقط؟ أشعر أن الموت في أوقات كثيرة يكون أهون من مواقف الحياة المؤلمة، ألم يفقد سليم حياته؟ ألم يفقده أقرباءه؟ ألم يفقد العم سيد نفسه أيضًا؟ وماذا لو خسرنا أحد أصدقائنا في سوء تفاهم أو مشكلة؟ أليس هذا فقدًا؟ للفقد أشكال كثيرة حولنا؛ لكننا نربطه بالموت فقط ثم لا نتقبله أبدًا؛ لكنني أعود وأتساءل دومًا «ما العبرة التي يقدمها الموت على طبق رائق شفاف؟ أن نتقبل الفقد بكل أشكاله لأنه سُنة الحياة المُؤكدة، فقط علينا أن نعتبر منه».

ربت يونس على كتفي وقال:

- لا يتقبل الفقد إلا الإنسان المؤمن.. الإنسان يحزن لأنها طبيعته البشرية، قد يتقبله وقد ينكره فتسودّ الحياة في عينه، أما المؤمن فيسلم الأمر لله ويتقبل الفقد لأنه يعلم أنه أيضًا مفقود..

السر في الإيمان، لا تكفي الإنسانية وحدها هنا، هوّني على نفسك فالحياة تدّخر لنا الكثير من المفاجآت.

رأينا سليم يمشي في وهن مُستندًا على الممرضة نحونا، بعد أن أشارت لهم موظفة الاستقبال في اتجاهنا، قمنا لاستقباله، سلمته لنا ورحلت بعد أن تحدثت مع يونس قليلًا بينما انشغلت أنا بمُتابعة سليم، جلس سليم بجانب يونس صامتًا شاردًا مُمسكًا بمسبحته، تمامًا كما رأيناه أول مرة، بدأ يونس الحديث قائلًا:

- صباح الخير يا سليم.

لم يجِبه.. لكن يونس أردف بسرعة:

- جئت إليك اليوم وأملي في الله أن تتحدث ولو قليلًا..

فتح يونس الظرف وأخرج ما به، ثم جعل نوتة «النوم الأسود» أمام وجه سليم وقال..

- سليم.. هل تعلم شيئًا عن هذه النوتة الموسيقية العجيبة؟ إن حولها أحداثًا غريبة.. مبنى الكلية يتحول إلى سيرك من الألاعيب الشيطانية التي لا مُبرر لها، طلبة لا يحضرون محاضراتهم، والكآبة تسود، ستكون نهاية المكان قريبة إذا لم ينكشف سره.. هل تساعدني؟

ما زال سليم في دنيا أخرى وكأنه لا يرى النوتة أبدًا، وكأنه لا يشعر بوجودنا من الأساس! ربت على كتف يونس وأردفت في همس:

- يونس.. ربما تُفيد الصور في هذا الموقف أكثر من النوتة.

أخرج يونس الصور من الظرف ووضعها أمام أعين سليم وبدأ يتحدث:

- فريدة على حق.. الآن لا بد أن تتذكر شيئًا عن هذه الصور فأنت شخصيًّا ظهرت فيها جميعًا..

ظل سليم على حاله لا ينظر ولا يتحدث.. لكن يونس لم ييأس وظل يبدل الصور أمام أعين سليم بلا ملل، يُمسك بالصورة لأكثر من دقيقة ثم يبدلها بأخرى حتى خطرت لي فكرة وهمست بها في أذن يونس لعلها تضغط على سليم.. أمسك يونس بإحدى صور سليم ووضعها أمام عينيه ولم يبدلها ثم بدأت أدنن نغمات معزوفة (النوم الأسود) بصوتي وبتلقائية لم أنتوِها أبدًا.. وهنا بدأت رأس سليم تتحرك قليلًا، خفضت من صوتي خشية لفت الأنظار، ثم بدأ ينظر إلى الصورة جيدًا ويُحدق بها.. ثم ترقرقت دموعه فنظر إلى يونس في تعجب! فلم أتوقف عن ترديد النغمات بصوتي.. وعندما وصلت للمقطع المعتاد استسلم سليم لبكاء صامت ودموع تنهمر وقال بصوت كاد يكون همسًا..

- سامحيني.. سامحيني.. كُنت جبانًا.. أنا لا أستحق العيش.. سامحيني.

ثم بدأ صوت بكائه يرتفع تدريجيًّا، فأخفى يونس الصور سريعًا في الظرف، عندها هرعت الممرضة وسألتنا..

- ماذا حدث له؟

قال يونس..

- لا أعلم.. فقط كنت أتحدث ولا يجيبني وفجأة أخذ في البكاء!

أخذته لتعيده إلى الداخل بعد أن أشبعتنا نظرات شك وضيق، نظرت إلى يونس وقلت..

- تُرى من تكون هذه الفتاة

***

(٢٤)

الأجواء في الكلية مُرتبكة بين تركيز في الامتحانات وخوف مما حدث لي مع يونس، أو في الحقيقة خوف الطلبة منا شخصيًّا، فقد أشاع العم سيد الأخبار وزاد وأفاض كعادته؛ لكنني لم أره عند المدخل! أين ذهب يا تُرى، حضر الجميع باكرًا، الطلبة يعزفون مقطوعاتهم ويراجعون النوت الخاصة بهم في برجولات الفناء، نظرات غريبة تصلني من هنا وهناك، الكافيتيريا مملوءة بمدمني الكافيين أمثالي.

لم يحن ميعاد قدوم يونس بعد، تجولت بعيني أبحث عن حنين فسمعت صوتها تناديني من إحدى البرجولات، لكنني لمحت الدكتور صالح يشرب قهوته ويدخن سيجارة وينظر إليّ، هل يراقبني هذا الرجل أم ماذا؟ نادتني حنين مرة أخرى وكانت تتدرب على الكمنجة، ذهبت إليها وجلسنا سويًّا وسط نظرات وهمهمات بعض الطلبة حولنا، رأيت في عينيها أخبارًا جديدة فقلت:

- قولي ما عندك؟

رجعت برأسها إلى الوراء قليلًا وقالت لي وهي تبتسم مُندهشة..

- وما أدراكِ أنني أحمل أخبارًا؟

ضحكت وأردفت..

- العشرة يا صديقتي..

ضحكت بدورها:

- هذا صحيح، العشرة تفضحنا.

تلفتت حولها واقتربت مني ثم همست..

- عم سيد قدم استقالته؟

- ماذا؟ آخر شيء أتوقعه!

ر دت حنين:

- الطلبة يقولون إنه تعرض لأذى ليلة محادثكما أنتِ ويونس! ربما قال إنكما آذيتماه!!

هزني قولها فأردفت نافية:

- ماذا؟! لم يحدث مُطلقًا بالطبع.. لكن ماذا حدث له؟

قالت حنين..

- حاولت استدراج بعض الطلبه لكن بالفعل لا أحد يعلم شيئًا، يجب أن يعلم يونس.

شردت فيما سمعت.. حينها هاتفني يونس وأخبرني بما كُنت أنتوي إخباره به! يا لهذا المكان.. ليس به أسرار إلا سر النوتة الموسيقية التي أعزفها، طلب يونس أن أقابله عند مكاننا المُعتاد «سينما فاتن حمامة»، بعد أن استأذن أمي في الخروج اليوم بعد الامتحان، ثم أنهى محادثتنا قائلًا:

- فريدة.. عندما تدخلين للامتحان لا تذكري أي شيء آخر

غير المادة ونجاحك.. تذّكري والدك، لن أتمكن من رؤيتك في الكلية اليوم، سوف أرحل بعد الامتحان مُباشرة.. الوقت ضيق.

كان لكلماته وقع كبير على نفسي، سوف أفعل من أجل أبي، ولأدرب نفسي أن كل شيء في الدنيا نستطيع أن نسيطر عليه ونفكر فيه في وقته المناسب..

بعد أن انتهيت من الامتحان كنت متشوقة لرؤية يونس،ومعرفة الدافع وراء ضيق وقته؟ لمحتني حنين وأنا في عجلة من أمري فسألت:

- لماذا كل هذه العجلة؟ ما زال الوقت مُبكرا لنذهب إلى البيت.

أردفت..

- لن أفعل، سوف أقابل يونس.

تنهدت حنين وقالت..

- أتمنى لو أرى كريم مرة أخرى، أفتقده كثيرًا.

تبسمت وقلت لها:

- أتسير الأمور بخير بينكما؟

قالت وقد ملأ وجهها سرور..

- لم أحلم بأكثر من هذا..

- الحمد لله، فقط لا تندفعي بمشاعرك.. تمهلي قليلًا، ارجعي خطوات للخلف كل حين لتري ما لا ترينه عن قرب.

نظرت لي حنين في توجس وبهتت ابتسامتها فأردفت في سرعة..

- لا أُخيفك من الأمر؛ بل نُزيد في الاحتياط.

صليت الظهر ثم غادرت الكلية التي لم أعتد أن أرى مدخلها بلا رجل أمن، ووصلت إلى يونس في ميعادي بالضبط، ركبت السيارة فرأيت الظرف اللعين الخاص بالنوتة والصور في مقعد السيارة الخلفي، سألت في قلق:

- يونس، قل لي الحقيقة.. هل أنت بخير؟ صوتك لم يرحني عبر الهاتف.

ابتسم وقال:

- لا تقلقي أنا فعلًا بخير، نذهب في مهمة لمنزل عم سيد ثم نتناول غداءنا في مطعم جديد اكتشفته بالزمالك.

رددت مُتعجبة:

- منزل عم سيد؟ من أين جئت بالعنوان؟ ولماذا نذهب له؟

- بعد الامتحان مُباشرة، كان لا بد أن ألحق بصديقي الذي يعمل بالأرشيف بمبنى رعاية الطلبة، أعطاني العنوان، ليست هذه المشكلة.

سألته:

- وما هي إذن؟

- سوف تعلمين كل شيء عندما نذهب، لا تتحدثي اليوم معه، لا لشيء إلا أنني أعلم كيف أتعامل معه جيدًا، فلتدربي نفسك على الإنصات أكثر من الحديث.

أومأت برأسي موافقة، كانت الشوارع مزدحمة كالعادة في

مثل هذا الوقت، وبعد فترة ليست بقليلة أوقف يونس السيارة بأحد أحياء القاهرة القديمة المزدحمة، نظر إلى أحدى المباني القديمة وقال:

- من المفترض أن يكون البيت هنا، فقد أتعبني الأمر لأنه لم يجدد بياناته في الأرشيف ولكن صديقي هذا ساعدني كثيرًا منذ البارحة.

نظرت إلى يونس باهتمام وقلت..

- كنت ستنال ترقية لو أنك تعمل في المباحث يا يونس..

ضحك في عذوبة شديدة، ثم نزلنا من السيارة ودخلنا المبنى، وبدأنا في صعود الدرج، قال يونس في نبرة مرحة لم أسمعها منه منذ فترة..

- خمني أي طابق يسكن فيه عم سيد؟

أردفت على الفور..

- لا تقل الطابق الثالث؟!

ضحك بعفوية وتابع:

- كل الأشياء غير منطقية.

رن يونس جرس الباب ووقفنا أمام شقته بمسافة كبيرة لئلا نُحرج ساكنيه وانتظرنا، دقيقة وفتحت لنا الباب سيدة ترتدي عباءة سوداء وتغطي رأسها بشال أسود، كانت تشبه عم سيد إلى حد كبير،حيتنا بنبرة مُستفسرة:

- أهلًا وسهلًا..

أجابها يونس في أدب:

- السلام عليكم.. هل هذا منزل عم سيد؟

- نعم هو.. من أنتم؟

سأل يونس:

- حضرتك أخته؟

تبسمت:

- بل زوجته..

- نريد أن نقابله.. نحن زملاء عمل في الكلية.

نظرت إلينا السيدة متفحصة وقالت:

- تفضلوا بالدخول في غرفة الصالون، هو نائم سوف أوقظه.

صاحَبَتنا إلى غرفة متواضعة نظيفة بها صالون قديم متهالك تتوسطه منضدة رخامية قديمة، جدران الغرفة لونها أخضر قاتم عُلّق عليها صور زفافهما يلفها برواز ذهبي قديم، بجانبها عُلقت صورة قديمة لطفلة صغيرة جميلة ترتدي رداءً قصيرًا وتضع ذراعيها في وسطها، تتدلى ضفائرها على كتفيها، في الجهة المُقابلة نتيجة حائط ورقية (تقويم) لم تُقطع أوراقها منذ آخر يوم لعم سيد بالكلية.

دقائق واستقبلنا العم سيد في تجهم وقد بدا عليه آثار الإرهاق الشديد، سلّم علينا في ريبة وأشار لنا بالجلوس، مرت دقيقة ونحن ننظر إلى بعضنا في انتظار أن يتحدث أحد إلى أن

سأل يونس:

- نريد أن نطمئن عليك يا عم سيد، لعله خيرًا.. لماذا الاستقالة؟

نظر له عم سيد نظرة لها معانٍ كثيرة وقال في حذر:

- لا شيء محدد.. نال مني الكبر يا بني وأريد أن أستريح.

دخلت زوجته تحمل صينية بها أكواب شاي صغيرة، وضعتها على المنضدة فشكرها يونس ثم ذهبت..بعدها سأل يونس:

- يا عم سيد، أنت شباب أكثر مني ونحن نعلم هذا! قل لي ما السبب الحقيقي؟

نظر الرجل إلينا متوجسًا ثم قام ونظر خارج الغرفة وأغلق بابها، جلس قبالتنا ثم قال في نبرة غليظة:

- ماذا تريدان مني أنتما الاثنان تحديدًا، ألا يكفيكما ما حدث بسببكما؟

ثم نظر إلى يونس بغلظة وقال:

- لا تنسَ أنني قد رأيت تَحَوُّلك ليلتها لشخص آخر؟ أعرفك منذ أن كنت طالبًا في الكلية وقبل أن تصير معيدًا.. لم تكن أنت الذي رأيته ليلتها! ماذا تريد مني الآن؟ وكيف عرفت عنواني؟

غيّر يونس مكان جلسته ليصبح جوار عم سيد وقال في صوت خافت..

- عم سيد، دعك من هذا كله، الأمور تسوء، ما الذي حدث لك كي تترك العمل؟

أردف عم سيد وهو يرمقنا بنظرات شك:

- لا شأن لك بالأمر.

- ساعدنا وأعدك أن أتوسط لكي تعود للعمل، فأنا أعلم الحال جيدًا، ولن أنساك أبدًا..

نظر عم سيد إلى الأرض وهو يُمسك بذقنه وقال..

- قلبي يحدثني أن أثق بك ولا أعلم لماذا؟ ربما لأنني أعرفك منذ زمن وأعرف أنك لم تؤذِ أحد أبدًا.. سوف أحكي لك عما حدث لي في هذا اليوم المشئوم.. على شرط.

ثم ابتسم ليونس وأشار بإصبعيه السبابة والإبهام علامة على طلب النقود.. فابتسم يونس بدوره وقال:

- علمت هذا وقد دبرت الأمر بالفعل قبل المجيء إليك، لا تقلق.

ابتسم عم سيد وقال مُستعطفًا ومُبررًا..

- إن ابنتي الوحيدة مريضة وشبه مُقيمة في القصر العيني، كما أنها سوف تدخل الجامعة السنة القادمة والمصاريف كثيرة كما تعلم.

رد يونس:

- لم أسمعك تتحدث عنها طوال سنوات يا رجل، ألهذا الحد تعشق المال؟ على العموم سوف تحصل على كل ما تريده.. شرط أن تجيب على كل الأسئلة، لن أدفع في مقابل سؤال واحد، لسنا سذجًا كما تعتقد.

تغيّرت ملامح عم سيد وقال بموافقة شبه غاضبة:

- اتفقنا.

عاد يونس يسأل:

- ما الذي يحدث ليلًا يجعلك لا تصعد أبدًا إلى الطابق الثالث؟ وماذا حدث لك في تلك الليلة؟

تنهد الرجل وقال..

- أنت لا تريد أجوبة بل حكاية طويلة؛ باختصار هذا المبنى مسكون منذ زمن مشؤوم، لا أحد يستطيع بمفرده أن يصعد للطابق الثالث ليلًا مهما كان الأمر، سوف يُؤذَى بلا شك، الجميع يتحدث عن أمر الحريق القديم في المبنى؛ لكن لا أحد يعلم ملابساته أو ما الذي حدث بالضبط، بالتأكيد مات طلبة فيه وهذا هو السبب المؤكد.

قال يونس بلهجة مقتضبة:

- لم تقل شيئًا جديدًا!!

أكمل عم سيد وكأنه لم يسمع يونس:

- في سنة من السنوات كان لي زميل يعمل في أمن الكلية، كان يرتعب من المبنى ليلًا ويقول إنه كلما صعد ليطفئ الأنوار يشعر بأحد يقف خلفه؛ حتى إنه يسمع أنفاسه بوضوح! ذات مرة سمع عزفًا جميلًا وظن أنه أحد الطلبة؛ لكن لم يجد أحداً هناك، حينها تعجّب وأطفأ النور، ولما أغلق الباب وجد نارًا تندلع في الطرقة! لم يعرف مصدرها؛ خاصة وأنه قد مرّ بها منذ لحظات ولم تكن موجودة! حاول أن يهبط الدرج لكن يدًا أمسكت به بشدة

ولم تفلته! أخذ الرجل يشد جسده إلى الأسفل واليد تجذبه إلى الأعلى حيث كانت النيران تمتد أكثر وأكثر، ظل يقاوم لدقائق ثم قرأ القرآن بصوت عالٍ فأفلتته اليد ليقع من فوق الدرج إلى أن هبط يغطي وجهه وجسده المجروح.. لم يكن كل ما رواه يزعجني إلى الآن.

نظرت إلى يونس في تعجب وسألته.

- وهل هناك شيء أكبر من هذا؟

قال الرجل وبعينيه أسف ملحوظ..

- نعم.. عندما خلعت قميصه لأسعفه رأيت آثار حرق شديد على ذراعه! كان يصرخ كامرأة أمامي من شدة الوجع، كان الحرق غائرًا بعلامة لخمسة أصابع تلتف حول ذراعه! ولم يكن هناك آثار لأي حريق!

قال يونس في تعجب..

- وما علاقة هذا بما حدث لك؟

قال الرجل في أسى..

- لأنه نفس ما حدث معي بالضبط بعد أن تحدّثت معك في هذه الليلة المشئومة وذهبت لأهبط الدرج!!

خلع الرجل نصف البيجامة الأعلى دون حرج، كاشفًا ذراعه أمامنا، لنرى موضع آثار أصابع محروقًا بالفعل على ذراعه! وكأنها نار ببصمة أصابع! أصابتنا دهشة.. فأكمل:

- لذلك كنت أبكي وأنا أتحدث في الهاتف، إنني لم أخلع

ملابسي أمام زوجتي إلى الآن، ثم إنني أضع كل المراهم التي وصفها الدكتور الذي لم يختلف اندهاشه عنكما الآن ولكن دون فائدة، الحرق لا يندمل، وها هي آثار الأصابع وحرقها على ذراعي مثله تمامًا..

جلس عم سيد شبه منهارًا بعد أن أنهى كلامه ثم بدا وكأنه تذكر شيئًا هامًّا فتابع متداركًا:

- آه.. ثمة شيء آخر.. الموسيقى الملعونة التي كانت تُعزف في تلك الليلة المشؤومة..

ونظر إليّ في إشارةٍ ما فهمت مغزاها على الفور بينما تابع قائلًا:

- إنها نفس الموسيقى التي تتدرب عليها الأستاذة.

سقط قلبي في قدمي رغم تأكدي من المعلومة.. لكن يونس لم يتوقف كثيرًا عند كلامه، وقام بفتح ظرف الصور الذي معه وأطلعه عليها وأخذ يسأله في إصرار:

- من هؤلاء؟ لا بد أن تخبرني.. لن أرحل من هنا قبل أن تجيبني.

أمسك الرجل بالصور وقال مُتفحصًا فيها:

- من أين أتيت بها؟

قال يونس في جدية:

- أنا أصغي إليك جيدًا..

أكمل عم سيد:

- كل من في الصور تعرفهم أنت، أنا، دكتور صالح، دكتور قابيل.. لا أذكر الباقي..

قال يونس:

- ألا تذكر سليم؟

نظر عم سيد ليونس في ذهول وهو يتفحص عينيه وقال:

- لم أقدّرك حق قدرك !

سأله يونس بحزم:

- ومن تكون الفتاة التي ترتدي الأبيض؟

قال الرجل في عصبية:

- أتريدني أن أحفظ أسماء كل الدفعات؟ تبدو كطالبة في حفل تخرج، حقًّا لا أعرفها ولا أتذكر وجهها..

ابتسم يونس ثم قال:

- لنتجاوز الأمر، قُل لي... من الذي كنت تطلعه على أخبارنا أولًا بأول في الهاتف يا عم سيد؟

نظر الرجل بحذر إلينا وصمت.. قال يونس له مُذكّرًا:

- اتفقنا على إجابة كل الأسئلة وإلا فلا اتفاق بيننا.

قال الرجل في خوف..

- هل تعاهدني ألا تفصح عن هذا الأمر أبدًا؟

قال يونس..

- لا.. قد اضطر إلى الإفصاح، أعد تقييم الأمور الآن، النقود معي الآن وعليك أن تختار..

مرت دقائق وبدا يونس هادئًا واثقًا وبدا عم سيد مُتوترًا ثم قال:

- كُنت أوصل أخبار الكلية وخاصة أخباركما.. إلى الدكتور صالح.

أردف يونس وهو يعطيه ظرفًا من المال وكأنه جاهز بكل شيء:

- من الآن يا عم سيد تصل أخبارنا كما نُمليها نحن عليك كالمعتاد إلى من يرغب في سماعها.

***

(٢٥)

استمر الصوت يناديني من جميع الزوايا في مكان مفتوح مُنير بضوء أبيض كثيف جوه بارد..

- فريدااااااااااا

كلما اتجهت صوبه انتقل لمكان آخر.. توقفت في منتصف ضباب كثيف لا أرى منه شيئًا؛ لكنها اخترقته آتية من بعيد تتمايل بردائها الأبيض وسمعت صدى صوتها يقول:

- تبحثين كثيرًا وراء معنى الموت.. ماذا تعرفين أنتِ عن الحياة؟ الأحياء لا يعرفون شيئًا عن الموت، ولا عن الحياة أيضًا.

ثم سكتت قليلًا بينما أحاول أن أتبين ملامحها وسط الضباب فقالت:

- أتدرين «ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ أن كل شيء في الدنيا تظهر قيمته فقط بعد فنائه.. الموت يُظهر الحقيقة».

ثم بدأت تسير في الاتجاه المُقابل فقلت لها..

- من أنتِ؟

التفتت إليّ وقالت..

- ليس كل ما نراه حق، قد يرتدي الباطل ثوب الحق، ابحثي عن الحقيقة.

نهضت من نومي مُتعبة، لم أكن فزعة مما رأيته هذه المرة، بالنسبة لي كانت رؤيا واضحة جليّة وعليّ أن أفهم مغزاها.. أخذت أتساءل.. هل يسيطر الموت على تفكيري لدرجة أن الفتاة تنطق بنفس ألفاظي في الحلم؟ أم أنها أنا ولا أدري؟ أم أنها تستطيع أن تنفذ إلى عقلي وتعلم ما بداخله؟!

نظرت إلى مكتبي فوجدت الظرف الذي بت أخاف منه بعد أن أعطاه لي يونس آخر مرة، قمت وأحضرته ثم أخذت أتفحص الصور بداخله، هل تكون فتاة الصور هي من تجول بأحلامي؟ جلست مكاني أفكر في هذه الفتاة ومن تكون؟ وما قصة هذا المبنى الغريب؟

فتحت هاتفي فوجدت حنين قد ضمتني أنا ويونس وكريم في محادثة جماعية على «واتس آب»، دُهشت ثم دخلت أقرأ ما كتبوه عندما كُنت نائمة، فوجدت حنين تبدأ المحادثة بأن تحُث كريم على إخبارنا بما كانوا يتحدثون عنه فوجدته قد كتب..

«عندما كُنت طالبًا، كُنت محطّ أنظار الجميع نظرًا لحدوث أكثر الأحداث غرابة معي أنا بالذات، حقيقة كان الأمر محيرًا إلى درجة كبيرة.. وكنت أتساءل لماذا أنا؟ لدرجة أنني كما قُلت لكم سابقًا شككت في أمر نفسي وتركت البلد، لكن عندما تحدثنا أكثر أنا وحنين عن الأمر، استرعى انتباهي أمر غريب، علمت أن فريدة تتدرب على النوتة الموسيقية «النوم الأسود»!.. هل أخبركم أمرًا جديدًا.. كذلك كُنت أنا أيضًا! أعتقد أن الأمر لا

يتعلق بي أو بفريدة إنما بهذه النوتة العجيبة، فلتأخذوا حذركم أو لتتركوها تمامًا».

بعدها سرد يونس ملخصًا للأحداث في رسالة أخرى وقال إنه قد اقترب من حل لغز المكان، فعرض كريم عليه المساعدة في أي وقت، ما بعثه كريم أكد شكوكنا حول هذه النوتة المُريبة، قمت لأستعد فقد اقترب ميعادي مع حنين، كانت أمي هادئة في الفترة الأخيرة ومستكينة بشكل لم أعهده خاصة بعد إعلان قراءة فاتحتي على يونس، وكأن قلبها قد استراح، فهي تطمئن له كثيرًا وتأتمنه عليّ، كما أنها أحبت حنين بشكل كبير، قبّلت رأسها قبل أن أخرج مُوَدعة إياها لأقابل حنين عند مدخل العمارة داخل تاكسي لنذهب سويًّا إلى الكلية، لم أسرد لحنين الحلم لأنها بدأت تخاف من كل شيء حولها.

عند مدخل الكلية وجدت عم سيد جالسًا، عندما رآني وقف مُبتسمًا ورفع يده محييًا من بعيد، لم أهتم له، أحتقر هذا الرجل فإنه كما قال يونس يعبد المال عبادة... كان يومًا من أيام الامتحانات الثقيل على النفس رغم أن مادة اليوم كانت سهلة ولا نكترث لها كثيرًا، جلست حنين في إحدى البرجولات وذهبت لإحضار قهوتنا قبل المراجعة، وهناك رأيت الدكتور صالح يجلس ويدخن سيجارة ويشرب قهوته وهو يراقبني في هدوء، ابتعت القهوة وأردت أن أسلم عليه حتى يفهم أنني لست غبية.. ما أن رأيته حتى فقدت أعصابي، وضعت أكواب

القهوة عند منضدته وقلت في عصبية واضحة:

- صباح الخير يا دكتور صالح.

أردف في برود:

- أهلا يا فريدة.. ما أخبار الامتحانات؟

نظرت له باشمئزاز وقلت باستخفاف:

- كل شيء على ما يرام، أردت أن أشكرك على كل شيء تقدمه لنا في الكلية.

نظر لي وقال..

- بالعكس أنا مُقصر، حتى على المستوى الشخصي كان يجب عليّ مُباركتكما أنتِ ويونس..

فشلت في أن أواري نظرة ازدراء، حينها رآني يونس من بعيد وكان بصحبة دكتور قابيل فاقترب وعلى وجهه علامات تعجب لكنه حيّانا قائلًا..

- صباح الخير يا دكتور.. فريدة لماذا لا تجيبين على هاتفك؟

أجبتُ وأنا أنظر للدكتور صالح:

- هاتفي في الحقيبة مع حنين..

قال دكتور قابيل:

- مبروك يا فريدة.. بارك الله لكما وعليكما.

قال الدكتور صالح في دهاء:

- كُنت على وشك أن أقولها لولا أنها لم تعطيني فرصتي.

نظر يونس إليّ في غضب، وتعجب ثم قال:

- لا تقصد بكل تأكيد، أنت الخير والبركة يا دكتور..

ثم نظر إليّ وأنا لا أزال أرمي الدكتور صالح بنظرات كُره واضح وقال يونس:

- فريدة هيا بنا. أراهن أن حنين لا تريد قهوتها باردة.

حييت دكتور قابيل الذي فَهِم كل شيء، ثم ذهبت إلى حنين وكانت تتابعنا من بعيد فقالت.

- ماذا فعلتِ؟ يونس بعث لي برسالة كي نقابله في المدرج الكبير بالطابق الثاني بعد الامتحان، أعتقد أنه قد غضب منكِ.

التفتت حيث يجلس الدكتور صالح وقلت..

- أعلم هذا.

كان الامتحان في الطابق الثاني، فانتظرنا حتى نرى يونس، أعلم أنه سوف يوبخني، لكنني لم أتخلص من حالتي العصبية حتى بعد أن انتهى الامتحان، بالفعل أتى يونس وأخذ يطمئن أن الجميع قد غادر ولم يبقَ إلا ثلاثتنا فقال..

- ما الذي تفعلينه يا فريدة؟ تهدمين كل ما نبنيه، لا أريده أن يشك بنا.. الآن قد أثبتِّ له أننا نراقب تصرفاته أو شيئًا كهذا، وكأنكِ تقولين له لقد كشفناك! أنا لا أصدق! كُنت أظنك أكثر ذكاءً.

قالها وانصرف غاضبًا ولم يعطني فرصةً للرد، نظرتُ إلى حنين وأجهشت بالبكاء قائلة..

- إنني فعلًا تصرفت بحمق شديد! ما الذي فعلته؟

لم تعلق حنين لكنها ظلت تربت على كتفي.. أعطتني مناديل ورقية، ظللت أبكي، فضمتني وأخذت تهدئ من روعي وقالت بصوت غريب..

- اهدئي يا عزيزتي، كل الأمور تمرّ.. أنا معه تمامًا لقد تصرفتِ بحمق شديد، ألم أقل لكِ ابحثي عن الحقيقة، لكي تفعلي هذا لا بد أن تتحليْ بشيء من الصبر.. والدهاء.

فتحت عينيّ وتوقفت عن البكاء وأنا ما زلت بين أحضانها فقالت وهي تنظر في عيني:

- ألم أقل لكِ أن الباطل قد يرتدي ثوب الحق؟ لم لا تُصغين إليّ؟

انتفضت وأسرعت لمكان بعيد عنها، فضحكت ضحكة عالية مخيفة، فناديت بصوت عالٍ..

- يونس.. أغثني.

فضحكت أكثر وقالت..

- أنا لم أحدّث يونس بما حدثتك به، أنا أضع آمالًا كبيرة عليكِ، إما أن تكون على قدر المسئولية وإلا....

حينها صرخت بشدة فوقعت حنين على الأرض مَغشيًّا عليها، بعد لحظات دخل الدكتور قابيل على أثر صراخي مُرتعبًا، فوجدني في حالة بكاء هيستيرية وحنين فاقدة الوعي! عندما أفاقت لم تذكر أي شيء!

***

(٢٦)

بعد عدة أيام تجنبت فيها الحديث مع أي أحد قدر استطاعتي بما فيهم حنين خاصة بعد موقفنا الأخير وتعقد الأمور الغرائبية إلى هذا الحد، أردت أن أبتعد لأرتب أفكاري، لا لشيء إلا لغضبي من نفسي أولًا، فكما قال يونس كنت أحسب نفسي أذكى مما فعلت، جاء يونس إلى زيارتي أخيرًا، كانت حنين تسأل عني أمي عندما أغلق هاتفي، أتراني أهوّل الأمور وأقسو على نفسي؟ هل يستحق الأمر كل هذا؟ هل كان على يونس أن ينفعل هكذا لمجرد أن رآني أتهكم في الحديث على الدكتور صالح؟ رُبما.. نظرًا لما بذله من جهد وراء البحث عن الحقيقة، لكن لا بد لي من التغلب على كل شيء فقط من أجل أمي، فهي لا تنام ولا تأكل جيدًا منذ أن أغلقت غرفتي على نفسي وانعزلت ثانية، أعتقد أنها سألت حنين ويونس كثيرًا عن سبب خلافنا ولم تعلم، فقد كنت أسمع حديثها المتناثر عبر الهاتف أثناء ذهابي إلى المطبخ أو المرحاض.

زارنا يونس وجلس مع أمي قليلًا ثم أتت وأبلغتني أنه ينتظرني، كنت جاهزة بالطبع فأنا أعلم ميعاد مجيئه لأن أمي تتحدث بصوت عالٍ تظنه همسًا، خرجت إليه وقد ذبُلت روحي

لما بعدت عنه لأيام، وكأنه يسقيها ما تحيا به، عندما رأيته بدا لي مثلي تمامًا، ألقيت سلامي وجلسنا، فقامت أمي بحُجة صُنع القهوة فهي تريد أن نتصافى بمفردنا، رأيت يونس وقد هدأ كثيرًا.. نظر إليّ وقال:

- لماذا تُغلقين هاتفك؟

- لم أكن في حالة تسمح بالرد.

- ظننت أن الأمر مختلف بيننا؟

نظرت إليه وقلت..

- وأنا كذلك يا يونس.. انتظرتك لتحدثني بعد واقعة الدكتور صالح؛ إلا أنك لم تُجيبني أيضًا ليوم كامل.

نظر يونس أمامه وقال..

- كُنت مصدومًا من تصرفك، وكان عليّ أن أهدأ وأرتب الأمور من جديد.

ساد الصمت لبرهة فقال وهو ينظر في عينيّ بجدية..

- فريدة.. لا تنقضي المشاكل بين أي اثنين بالحب فقط، الحب وحده لا يتحمل الحياة، الحياة مليئة بالمشاكل والعراقيل والمُشاحنات، هذه المرة الأولى التي نتصادم فيها لكنها لن تكون الأخيرة، والحياة تمرّ بسرعة من بين أيدينا دون أن نلحظها، لا أريد أن نقضيها في هذه الأجواء كُلما حدث بيننا خلاف، نحن نتعلم من أخطائنا.. أعدُكِ في المرة القادمة لن أمكث كل هذه الفترة بعيدًا عنكِ.

وقلت في حزن شديد:

- وأنا لن أفعل شيئًا مرة أخرى إلا بعد مشاورتك.. لكن الأمور أصعب من أن أتحملها وحدي.. كل هذا كثير جدًّا عليّ يا يونس.. لا تتركني هكذا مرة أخرى من فضلك.

قال..

- لن أتركك أبدًا تعلمين هذا يا فريدة.. لكن ليس هذا ما أقصده أبدًا، أنتِ حرة فيما تفعليه، المهم أن تفكري قبلها جيدًا وتقدّري عواقب الأمور.

أومأت له بنعم وأنا أجاهد كي أبتسم، فابتسم هو بدوره، حينها دخلت أمي تنظر في وجوهنا مُستبشرة فقالت..

- الحمد لله، النكد لا يأتي إلا بالنكد.. لا تسمحوا له بالدخول، عالجوا أموركم أولًا بأول.

أخذ يونس منها القهوة وقال:

- كلامك مضبوط كقهوتكِ تمامًا..

ضحكت أمي فقال يونس لي:

- والآن.. ما رأيك لنخرج قليلًا؟

نظرت إلى أمي أستأذنها، فأومأت لي بالموافقة، فأردف يونس..

- أتظنين أنها لا تعلم؟ سوف نخرج كُلنا للعشاء.. هيا استعدي سريعًا.

***

(٢٧)

في طريقنا إلى المشفى لزيارة سليم كان الأمل يملؤني؛ فعلى الأقل تحدّث سليم في المرة الأخيرة ولو همسًا، إن للنوتة الموسيقية هذه أثرًا غريبًا على ما يبدو، قالت حنين..

- أتمنى أن يتكلم اليوم حقًّا.. أشعر أن سليم عنده حل للغز، لقد تجاوزنا الكثير معًا، والغريب أننا ذاكرنا وتدرّبنا جيدًا في هذه الأجواء الغريبة؛ حتى إن الامتحانات قد انقضت على خير ما يُرام ولم يتبقَّ على حفل التخرج سوى يوم ونصف فقط!

أردفت:

- الأيام تمرّ علينا سريعًا، البارحة قرأت في أثر الصالحين قولهم عن مرور الوقت «أنت أيام معدودات، فكُلما مر بعضها مر بعضك».

بدا على حنين أنها تفكر في الكلمات، فسألني يونس..

- هل أحضرتِ الظرف معكِ؟

رددت:

- وهل لي أن أنساه، إنه ملاصق لي بكل ما بداخله.

لم يعلق يونس ووجدته واجمًا فسألته..

- أراك اليوم على غير عادتك، أَبِكَ شيء لا أعلمه؟

نظر لي نظرة خاطفة ولم يبدُ بخير وقال..

- اليوم ماتت ابنة العم سيد التي ذكر لنا أنها مريضة عندما زرناه..

أردفت وقد فاجأني الخبر..

- إنا لله وإنا إليه راجعون..

قال يونس في تأثر..

- ما يؤلمني أنني لم أصدقه حينها، بل استهزأت به ليقيني بأنه يكذب دون دليل مؤكد.

فهمت مقصده وأردفت..

- هوّن عليك يا يونس، فما كان أحد في موقفنا إلا وظن ما ظننت.

قال يونس في حزم..

- إن بعض الظن إثم.. فليغفر لي الله سوء ظني.

أردفت في أسف..

- فليغفر الله لنا سوء ظننا جميعًا.

وصلنا إلى المشفى وطلبنا زيارة سليم، أخبرتنا الممرضة أن ننتظر قليلًا فقال لي يونس..

- هذه نفس الممرضة التي رمتنا شذرًا المرة الفائتة عندما بكى سليم، أتمنى أن نستطيع مقابلته.

بعد قليل استقبلنا الدكتور وصافحنا؛ لكنه تحدّث إلى يونس مُنفردًا لدقائق قلقت فيها، لكن يونس أشار لنا بأن نتقدم

وسمعناه يقول للدكتور..

- أشكرك شكرًا جزيلًا وأعدك ألا يتأذى أبدًا، فنحن نزوره فقط للاطمئنان.

بعد أن رحل الدكتور قال يونس هامسًا..

- كنا على وشك أن نرحل لولا أن توسلت إليه كي يُمكّننا من رؤيته لأننا لن نتمكن من هذا لفترة طويلة، فقد قالت له الممرضة إننا أزعجناه في الزيارة الماضية، بعدها بيوم حاول إلقاء نفسه من البلكونة واضطروا إلى حقنه بالمهدئات ومراقبته.

نظرت إلى حنين في ذهول، وقلت في صوت خافت..

- وماذا نفعل الآن إذا بكى..

أردف يونس..

- كل ما علينا أن نحاول أن نجعله يتحدث دون أن يبكي، فليكن الله معنا.

جاءت الممرضة تصحبنا إلى غرفته قائلة..

- أمامكم عشرون دقيقة على الأكثر، أتمنى ألا تسوء حالته عند رحيلكم، فمنذ زيارتكم الفائتة لا يريد مغادرة غرفته، وقد أغلقنا البلكونة بمسامير كما قال لكم الدكتور.

نظرت إليّ الممرضة في ضيق ولم أشأ أن تراني، أكد لها يونس أن كل الأمور سوف تسير على ما يرام، تركتنا داخل غرفته وأغلقت الباب ورحلت، لم يختلف سليم كثيرًا عن المرات السابقة، كان جالسًا يتأمل من وراء زجاج البلكونة الموصد

بعناية، مُمسكًا بمسبحته تلفها أصابعه دون صوت، وقفنا خلفه لبرهة ثم تفاجأنا أنه قد حرك رأسه إلى جانبه قليلًا في إشارة إلى أنه يعلم بوجودنا، تهلل وجه يونس فرحًا وأسرع نحوه فوقف قريبًا منه وقال:

- أعلم أنك تعلم بوجودنا، وأنك سوف تساعدنا.. ربما نستطيع مُساعدتك أيضًا؟

لم يتحرك سليم، اقتربت من يونس بينما ظلت حنين قريبة من الباب، شعرت أن نظرات سليم تختلف عن كل مرة، لكن حنين قالت..

- لا أعتقد أن هناك فائدة من زياته، إنه لا يدرى بشيء.

فأردفت بإصرار:

- بل يدري ويعلم يا حنين، لقد اختار العُزلة والصمت بإرادته، وباختياره يستطيع أن يتحدث أيضًا..

ظل سليم ساكنًا كما هو:

أردفت في توسل..

- أرجوك تكلم، قد تكون مساعدتك خيرًا للجميع.. نحن نفعل ما نفعله وكل هذه المشقة فقط لوجه الله تعالى، من أجل إبقاء مكان عتيق يدرس الفن، أنت فنان وتعلم قدر قيمته، هل تذكر النوت الموسيقية وجمالها؟ ألم تفتَقِدْ أجواء الموسيقى وعذوبتها؟

ترقرقت دموعه فنظر لي يونس وقال..

- لو بكى مرة أخرى لن نراه أبدًا..

حينها نظر سليم إلى الظرف بيدي فكانت مفاجأة لنا جميعًا.. نظر إلى يونس ثم أردف.

- الأحداث في الكلية تشتعل، أقولها لك الآن.. هل تعلم شيئًا عن الدكتور صالح؟ أنت زميله القديم.. أغلب الظن أنه سبب كل الأذى الذي ينهار المكان بسببه.

ضم سليم حاجبيه في غضب.. فكانت علامة جيدة، فأردفت حنين..

- لم يتبقَّ لنا إلا عشر دقائق وسوف تأتي الممرضة كالعادة قبل انتهائها بخمس دقائق.

أردفت:

- اسمعني يا سليم جيدًا.. إذا كنت تملك ما تساعدنا به ولا تفعل.. فستظل مدينًا لنا ما بقي لك من عمر إذا ما حدث ما لا تحمد عقباه في المكان، لقد أنفقنا من وقتنا وصحتنا الكثير لنكشف الأذى عن المكان؛ لكنك لا تساعدنا.

نزلت دموعه مرة أخرى، وبتنا في قلق من ردة فعله، لكن المُعجزة تحدث إذا ما بقيت مُصرًّا على حدوثها، تحدث سليم فجأة قائلًا بصوت مبحوح:

- الدكتور صالح هو الذي يُسدد نفقات المشفى منذ مرضت.. صالح الطيب لا يدري شيئًا.. صالح هو الصادق الوحيد في ذلك المكان الملعون.

اتسعت عيوننا من الدهشة لما سمعناه.. تصرف يونس سريعًا لإدراكه لقيمة الوقت الذي ينفد.. تناول الظرف مني وأخرج منه الصور ثم قال لسليم:

- أرجوك لا تنفجر بالبكاء مرة أخرى، لم يتبق لنا إلا دقائق قليلة، من هذه الفتاة في الصور؟

أمسك بالصور يحدق فيها ودموعه تنهمر على وجنتيه دون نحيب ثم قال بصوت مُتقطع:

- لقد خبأتهم منذ سنوات في بيانو جديد.. الحمد لله أنه لم يرهم.. الحمد لله الذي أراد كشف الحقيقة في النهاية.

ثم ضم الصور إلى صدره ونفرت كل عروق وجهه في مشهد عجيب وقال:

- خذلتُكِ يا حبيبتي، لم أكن على قدر المسئولية..

اقتربت حنين منا وبقينا ننظر إليه في ذهول والوقت يمر بنا سريعًا فقالت:

- نريد أن نعرف ماذا يقصد أن يقول؟

فأردف سليم:

- لقد باع وكسب الكثير.. أعلم أنه كان يحبها.. لا.. لم يحبها، كان يشتهيها كما يشتهي المال.. لقد كان السبب في جميع الشرور.

نظر إلينا وانفجر باكيًا بصوت عالٍ وقال:

- لم أستطع إلا إحضار الكثير من الماء لأنقذها.. أتذكر

تدفق المياه في الأواني من مراحيض الكلية.. الجميع يحاول إطفاء النار إلى أن يأتي رجال المطافئ، فتحت كل صنابير المياه.. لكن لم تطفئ المياه النار.. لم تطفئ المياه النار.. لم تطفئ المياه النار..

تذكرت المياه المُتدفقة من المرحاض وصوت الأنين به!
وضع يونس الصور داخل الظرف مرة أخرى بسرعة، جاءت الممرضة على أثر الصوت كالمرة الفائتة تمامًا مع كثير من التوبيخ لنا، وأكدت عدم السماح لنا بزيارته مرة أخرى، لم نولِها اهتمامًا أكثر من اهتمامنا بما قاله سليم.

***

(٢٨)

نظر إلينا عم سيد وقد تورمت عيناه من كثرة البكاء وقال:

- الحمد لله على مجيئكما، أريد أن أتوب إلى الله قبل لقائه، فلتصغوا إلى حكايتي..

نظرت إلى يونس وأردفت..

- قل ما شئت يا عم سيد ولا تخف.. الآن هو وقت الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة.

جلسنا جميعًا وتنهد الرجل وبدأ يسرد:

- لم يعد لديَّ ما أخاف عليه..

ثم شرد وكأنه يتذكر شيئًا جميلًا بعيدًا وأكمل..

- تزوجت كمعظم أبناء جيلي وطبقتي، لم يكن الحب أو المال شرطًا كجيلكم، يكفي القبول والإيجاب، سيدة بسيطة مثلي ولكنها زوجة صالحة، تحملت معي مصاعب الحياة وساندتني بكل ما تقدر عليه، لم يكن للمال عندي وزن، فنحن نعيش بما لدينا ونوفق أمورنا ومتطلباتنا عليه، لم نطمح إلى الكماليات.. كأجيال هذه الأيام، الشيء الوحيد الذي كان يُنغّص علينا عيشنا هي الذرية التي نتمناها، فلما سلّمنا الأمر كله لله ورضينا بقدَره بشّرتني زوجتي بحملها، رقصت فرحًا وكأن الدنيا تتصالح

معي من جديد، رُزقنا بابنتنا الوحيدة وسارت الأيام في هدوء، لكني تعلمت ألا أأتمن الدنيا أبدًا، مرضت ابنتي فور ولادتها وعلمنا أنها قد وُلدت بعيب خَلْقي في إحدى كليتيها، ولا بد من زرع أخرى! أردت أنا وأمها أن نتبرع لها لكن التحاليل أكدت عدم استطاعتنا ذلك، من أين آتي بالمال اللازم لعلاجها؟ كيف أُنقذ ابنتي؟ كان هذا هو السؤال الأصعب في حياتي.

فقدت السيطرة وبدأت دموع صامتة تتجمع في عينيّ، وصوت نحيب زوجته لم ينقطع عن أسماعنا في الخلفية وحولها النسوة يهدئنها في بيتهم، كانت حنين ويونس ينصتان بتأثر شديد لسرد عم سيد باكيًا، أكمل الرجل:

- حينها علمت أن للمال وزنًا في الحياة، ربما هو أهم شيء.. فلو أني أمتلك المال لأسعفت ابنتي الوحيدة التي تمنيتها من الدنيا، وبدأت أفعل أي شيء أستبيحه لنفسي لأجني المال من أجلها، كانت حالتها تتدهور والتبرعات من الأهل والأصحاب لا تكفي شيئًا، والدولة تعطيك دورًا في صفوف مرضى تزداد ولا تنتهي، وبعد أن جمعت المال اللازم؛ طلب الأطباء أن أوفّره لأن الوقت قد فات! وما هي إلا مسألة وقت نقضيه معها حتى ينقضي أجَلها! أتعلمون كم هو صعب على أب يرى فلذة كبده تموت بين يديه كل يوم ولا يستطيع إنقاذها؟

قال يونس وهو يربت على كتفه:

- هذا أجَلها المكتوب.. رحمها الله وألهمك الصبر والسلوان

يا عم سيد..

أكمل الرجل في وهن:

- وهل لنا من أمرنا كله شيء؟ إن الأمر كله بِيَد الله تعالى، لكني لم أتخيل أن ترحل سريعًا هكذا.. لم تنتظرني المسكينة، الموت قريب جدًّا من كل مخلوق؛ بل إنه الأقرب على الإطلاق؛ لكننا في غفلة كبيرة يُفيقنا الموت منها كثيرًا لنعود إليها كل مرة في جهل عميق!

صمت لبرهة يمسح دموعه ثم تابع:

- لم ينقذها المال يا يونس.. أتعلم لماذا؟ لأنه مال حرام، كنت كالأراجوز أصفق لهذا وأرقص لذاك، ساعدت في فعل الشر، ونقلت الأخبار كل يوم حتى أنني... ضللتكما..

سألته باهتمام..

- كيف هذا؟

قال الرجل وهو يجفف دموعه..

- لم أكن أنقل الأخبار للدكتور صالح.

رددنا جميعًا في صوت واحد:

- ماذا؟؟

تابع في نفس نبرته الجزينة:

- بل للدكتور قابيل.

نظرنا إلى بعضنا في ذهول، فأردف الرجل:

- نعم.. دكتور قابيل.. كما أنني كنت أشيع بين الطلبة أن

مخزن الهالك في عهدة الدكتور صالح؛ لكنه في الحقيقة في عهدة قابيل، أدعو عليه فجر كل يوم فقد جرّني إلى الشر كما يجر إبليس أعوانه تمامًا، كحال السكارى لا يعترفون بسكرهم لا يعترف الفاسدون بفسادهم، كان قابيل مثل فرعون لا يرى فيما فعله فسادًا بل طريقة من طرق كسب العيش..

وانهار مرة أخرى في البكاء، فقال يونس وكأنه تذكر شيئًا:

- لكنني استأذنت الدكتور صالح بالفعل في فتح مخزن الهالك وكان هو المسئول!

أجابه عم سيد:

- يكون هو المسئول فقط بصفة مؤقتة عندما يكون قابيل في إجازة.

تذكرت حينما صعد معي حين تدفق مياه المرحاض وقلت:

- لكنك كُنت مُندهشًا مثلي مما حدث في الطابق الثالث من تدافع المياه وأنين الفتاة! لماذا لم تُحذرني؟

نظر إليّ في خجل وقال:

- لم أكن أملك أمر نفسي يا ابنتي، كانت رقبتي في يد قابيل، لو أنني تحدثت في الأمر أو هكذا ظننت حينها.

قالت حنين في دهشة:

- حقًا لا أصدق ما أسمعه.. كيف لنا أن نثق بأحد مجددًا؟ إن الأمور لا تبدو كما هي عليه!

أردفت وقد تذكرت الحلم في تعجب:

- ليس كل ما نراه حقًّا، قد يرتدي الباطل ثوب الحق، ابحثي عن الحقيقة!!

نظر إلى يونس وكأنه يريد أن يفهم قولي.. لكن عم سيد أكمل باكيًا..

- عندما رُزقت بالنعم لم أشكر، وعندما ابتُليت لم أصبر؛ فلا رفع الله النعم ولا أدام البلاء..، ولقد علمت بعد تجربة وعناء أن الله قد أودع أرواحنا القوية في هذه الأجساد الضعيفة لنعلم أن الأرواح سامية بإيمانها فوق كل مطالبنا الزائلة، أرجوكم ساعدوني.. أريد أن أكفر عن ذنوبي، أريد أن أتحرر من كل ما فعلته.. ماذا تريدون مني أن أفعل لأساعدكم؟ أريد أن أفعل أي خير قبل أن أموت.. أعلم أنني سأموت قريبًا.. أشعر بالنهاية تقترب والموت لا يستأذن أحدًا.. أريد أن أكفرّ عن ذنبي.. لعله يكون شافعًا لي عند الله.

تأذيت كثيرًا بما سمعته وقلت:

- سوف نساعدك يا عم سيد، ولتُكثر أنت من فعل الخيرات، ولتثق برحمة الله إنه هو الرحمن الرحيم.

❊ ❊ ❊

(٣٩)

اليوم أنهض من نوم لم تذقه جفوني، طوال الليلة الماضية بقيت أهاتف يونس تارة، وأرد على حديث مجموعتنا عبر «واتس آب» تارة أخرى، كانت حنين تُطلع كريم على كل الأحداث، وكان هو مهتمًّا بدرجة كبيرة لمعرفتها، إلى أن أغلقت الهاتف وضبطت المنبه تنفيذًا لتعليمات يونس، فقد اقترب حفل التخرج ويونس قلق عليّ كعادته، كيف أجعله يتوقف عن القلق؟

كان وقت الفجر الذي أعشقه، توضأت فهدأ جسدي وأحسست براحة، وعندما انتهيت من الصلاة فتحت المُصحف بشكل عشوائي فقرأت آيات الذكر الحكيم تروي جزءًا من قصة سيدنا «موسى» عليه السلام مع سيدنا الخضر، كم بدا الخير شرًّا لسيدنا موسى عندما صاحَبَه! وكان في أصله خير كبير عند الله يختبئ لأصحابه، كم مرة قرأت فيها هذه الآيات؟ ألا أقرأ القرآن مُتدبرة؟ أم أنني أمرره على لساني دون فهم حقيقي وتواصل؟

كم كُنت جاهلة في حُكمي على الدكتور صالح! وتذكرتُ رسالة فتاة الحلم وهي تقول «ليس كل ما نراه حقًّا، قد يرتدي الباطل ثوب الحق، ابحثي عن الحقيقة! الموت يُظهر الحقيقة!»

لقد كانت علامة من الله.. ما أجهلَنا بحقائق الأمور وبواطنها، وما أكثر صدمات الحياة التي يجب أن نصمد أمامها،

تذكرت عم سيد وما لاقاه من ألم لم يعلمه عنه أحد، وتذكرت الموت مرة أخرى وتساءلت في نفسي.. «ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ علينا أن نتذكر الموت في أحلى أوقات حياتنا وأصفاها.. الموت مرحلة أخرى من الحياة».

نبّهتني أمي من شرودي بصوتها العذب وهي تقول:

- عرفت أنك استيقظتِ فأحضرت قهوتك يا فريدتي..

انتفضت في مرح وقمت أقبلها وأحتضنها بعمق، كان قُبلتي على جبينها حمدًا لله على وجودها في حياتي، إلى أن ضحكت وقالت:

- ما كل هذه القبلات؟ ادخري بعضها بعد أن تعلمي أنني قد نظفت لكِ الرداء الأزرق لحفل التخرج، ليكون جاهزًا إذا لم تبتاعي رداء جديد كما تمنيتِ.

تذكرت حفل التخرج وقلت:

- لقد نسيت الأمر تمامًا.. لا حرمني الله منك يا أمي.

قالت وهي ترتب الغرفة بتلقائية شديدة كعادة كل الأمهات:

- أعلم جيدًا هذا.. أنت ابنتي التي أحفظها عن ظهر قلب..

ثم التفتت إليّ بنظرة لائمة وقالت..

- كما أعلم انشغالك في الفترة الفائتة بأمور لم تحكِ لي عنها..

ضحكت وقلت:

- سوف أحكِ كل شيء يا حبيبتي في وقته، الآن دعيني لأستعد فأنا على موعد مع حنين.

- لن تذهب حنين لشراء رداء جديد فقد اشترت لها أمها

قُماشًا وسوف يذهبان اليوم عند الخياط لتجهيزه.. لقد هاتفتني صاحبتك يا حلوة.

قلت في تعجب..

- ولماذا لم تهاتفني أنا؟

قالت أمي في عدم اكتراث وهي لا تزال ترتب الغرفة وتخرج منها وتدخل..

- هاتفكِ مُغلق.. ماذا تفعل الفتاة؟

انتبهت إلى هاتفي ففتحته، فوجدت سيلًا من المكالمات والرسائل، حينها رن الهاتف وكان يونس فأجبته..

- صباح الخير..

كان صوته حنونًا ما زال يستفيق فقال..

- نسيتِ هاتفك مُغلقًا كالعادة.. سوف أكسر رأسك عندما أراكِ.

ضحكت فأردف:

- اليوم يوم طويل، لكنه لا بد أن ينتهي باكرًا لتنامي في وقت مُناسب وتستعدي للحفل غدًا.. هل هذا واضح؟

ضحكت مرة أخرى وقلت:

- ماذا يخبئ لي اليوم يا تُرى؟

أردف وهو يتثائب:

- يخبئ رداء جديد يتناسب مع حفل التخرج وعيد الميلاد وإعلان خطوبتنا.. ألا ترى أنها مُناسبات سعيدة؟ كل عام وأنتِ

طيبة يا حبيبتي.

- وأنت بكل خير يا حبيبي.. كُلما عرفتك أكثر أحببتك أكثر وأكثر يا يونس..

- أتمنى أن يدوم هذا حقًّا.. اسمعي، بعدها نذهب سويًّا للقاء الدكتور صالح فقد أخذت منه ميعادًا بعيدًا عن الكلية.

أردفت..

- يبدو لي اليوم ممتعًا ومثيرًا.. لا بد أن أذهب لأستعد الآن.

أنهينا حديثنا لأستعد لمصاحبته، فهو يأتي في موعده تمامًا رغم الزحام، دخلت أمي وقد سمعت كل شيء وقالت..

- هنّأكِ قبلي؟ لكنه لم يسبقني في الهدية.. كل عام وأنتِ طيبة يا فريدتي.

ثم أعطتني هديتي.. كانت زجاجة عطري المُفضل، احتضنتها فرحة وقبلتها مُمتنة، ثم أخذت أستعد فارتديت ملابس مريحة ليوم طويل كما قال يونس، جاء في موعده تمامًا فنزلت إليه وسط توديع أمي لي بكثير من الفرحة والحب والدعاء.

لم أكن أشعر بالفارق المادي بيني وبين يونس أبدًا إلا حينما رأيت أهله في زيارتهم لنا لقراءة الفاتحة، والآن ونحن نبتاع رداءً يناسب كل مُناسبات الغد، لم يكن يونس ليشعرني بفارق أبدًا، كان معدنه أصيلًا، أتذكر قول أبي.. «إذا ما رأيت ثريًّا يتباهى بماله فاعلم أنه حديث العهد به».

قضينا ساعتين وسط محلات باهظة الثمن ولم يُلفت نظرنا

شيء، إلى أن وقفت أمام رداء أبيض يضيق من الخصر ثم يتسع على طوله كموضة الخمسينيات، رداء أنيق تسمرت أمامه، نظر إليه يونس في بادئ الأمر في إعجاب وقال..

- جميل بالفعل..

ثم أدار وجهه عنه وكأنه تذكر شيئًا وقال..

- لكن.. ابحثي عن لون آخر..

نظرت إليه وقلت..

- قلت إن اليوم طويل لكن لا بد أن ينتهي مُبكرًا، أقيسه يا يونس وإن لم يكن جميلًا كما يبدو نبحث عن آخر..

أشاح بوجهه بعيدًا وقد فهمته، فأردفت وأنا أقف أمامه مُباشرة..

- يونس.. ألهذا الحد تتشاءم؟ أنت المؤمن بالله وبقدره؟

نظر لي يونس وقال..

- أخاف عليكِ بشدة..

قلت له..

- أحسِن الظن بالله.

نظر إلى الأسفل وأردف مُستسلمًا..

- أمري إلى الله.. فلتجربيه ولنرَ..

قفزت فرحة ودخلنا المحل، جلس يونس ينتظر، دقائق مرت بعد أن أحضر لي البائع مقاسي.. وما إن رآني يونس حتى قام مُنبهرًا ولف حولي وقال..

- ما هذا؟ أغدًا نعلن خطبتنا فقط وليس زفافنا؟ إنه أكثر من رائع.

ضحكت ودُرت حول نفسي فاتسعت دائرة الرداء، وكان يتكون من عدة طبقات قماش فوق بعضها، نظر إليّ يونس في حنان وقال:

- نبتاعه الآن وكل ما تريدين من لوازمه..

نظرت إليه في حب لا أستطيع إخفاءه فقال لي..

- لا أريد أن أفسد اللحظة لكن بالفعل البائع ينتظرنا، ولا بد أن نُكمل يومنا الطويل.. لا تنسيْ.

ضحكت مرة أخرى وذهبت لأبدل ملابسي، وفي وقت قصير أحضرنا كل ما أريد من لوازم الرداء الجديد، وأخيرًا ركبنا سيارته للذهاب إلى الدكتور صالح، ووضع يونس كل المشتريات في شنطة السيارة الخلفية ثم أعطاني الظرف بكل ما يحويه بالطبع وقال..

- الظرف المُريب.. لا تنسيْ النوتة الموسيقية بداخله.. غدًا عزف.. والله يستر.

ضحكت وتمتمت..

- معك حق.. لنطلب الستر من الله غدًا.

فتحت النوتة الموسيقية وأخذت أدندنها دون وعي.. رغم كل شيء فقد وقعت في حب نغماتها منذ المرة الأولى.. نظر لي يونس وبدأ يدندن معي مبتسمًا

***

(٣٠)

وصلنا لأحد الفنادق الكبيرة بالقاهرة، كان يونس حريصًا على عدم نسيان الظرف في أغلب الأوقات فأخذه معه هناك، واتجهنا إلى أحد المطاعم الفخمة الشهيرة، حمدت الله على نعمة يونس.. ليس لثرائه المادي بل لغناه بنفسه وأخلاقه وطيبته، كُنت أراقب كيف يُعاملني ويقدمني لمن يُصادفه، يُشعرني بأنني ملكة؛ لذلك أحبه عقلي أولًا، ثم جاء قلبي على استحياء ينظر إليه في حذر فوجده عطوفًا عليّ، كريمًا معي ومع الناس، لم أسمع منه إلا ما يروقني، لينًا في غضبه بغير مُبالغة، يهتم لجميع أمري ولا يجد فرصة لدعمي إلا واستغلها، أكشف كل ما بداخلي من ضعف وقلق وأخطاء ومخاوف فأجده يتقرب مني أكثر، يحترم أخطائي وخوفي ولا يستغلهما، لذلك تقبلت عصبيته القليلة التي طغت حسناته عليها، أحببته بعمق وأغلقت حسابات العقل معه، فقد وثقت به ولم يكن إلا خيرًا في حياتي.

والآن أكتشف شخصية أخرى ليونس مع الاحتكاك بالعالم خارج مجتمع الكلية، فهو شخص معروف ومشهور في أوساط بعينها، لكنه متواضع ويتقي الله، وهذه تركيبة نادرة.. نادرة جدًا خاصة في هذا الزمان، كما قالت حنين في الماضي.. لا تعلم حنين

حجم النعمة التي جعلها الله سببًا في حدوثها لي.

دخلنا المطعم فوجدنا الدكتور صالح يجلس في ركن بعيد عن الضجيج، يدخن سيجارة في هدوء وينظر إلى قائمة الطعام، استقبلَنا في ود فصافحته في أدب وخجل وقد لاحظني يونس فتبسم، أخذ يونس يتبادل معه حديثًا عامًّا، كانت الجلسة لطيفة إلى حد بعيد، ثم طلبنا الغداء لثلاثتنا، تلقى النادل الطلبات ومضى.. حينها بدأ يونس بالحديث فقال..

- اليوم دعني أعتذر لك عن سوء ظن وفهم، أظن أنني تعلمت الكثير منه.

ابتسم الدكتور صالح وقال:

- لا عليك يا يونس.. فأنا أراقبكم جميعًا بالفعل منذ فترة، لكن ليس بطريقة عم سيد.. فالرجل كُلما أعطيته شيئًا لوجه الله تبرع بما عنده من أخبار! لم أسأله يومًا عن أحد قط.

نظرنا إلى بعض وضحكنا، اقترب الدكتور من يونس ضاحكًا وهو يربت على كتفه ويقول..

- نحن مُتعادلان يا بُني.. أنا أيضًا شككت بأمركم يومًا ما، شيئًا مُريب يحدث مع هذه الدفعة، والأحداث الأشدّ غرابة تقع لكم كمجموعة أنتما وصديقتكما حنين..

أردف يونس:

- بالفعل يا دكتور، شيء مُريب يحدث خاصة مع عزف هذه النوتة بالتحديد.

أخذها يونس من الظرف وأعطاها له.. نظر إليها الدكتور صالح يتفحصها وقال:

- نوتة «النوم الأسود» القديمة التي لا يعلم أحد من هو مؤلفها.. لكن أطرافها محروقة.. وانظروا أيضًا.. مكتوب على إحدى هوامشها.. «ليس كل ما نراه حق، قد يرتدي الباطل ثوب الحق، ابحثي عن الحقيقة!».

اتسعت عيناي في اندهاش وقلت.

- ماذا؟ هل هذا مكتوب على النوتة؟

تعجب يونس وقال..

- ماذا بكِ يا فريدة؟

قلت وقدا بدا تأثري أو خوفي..

- لقد حلُمت بهذه الكلمات يا يونس، ورددتها حنين يوم أن غابت عن الوعي.

نظر إلينا الدكتور صالح في اهتمام وقال..

- شيء عجيب.

نظر يونس إلى الدكتور صالح وقال..

- حتى إننا ظلمناك بظننا أنك وراء الأحداث؛ بل أنك من وضعت سليم في المشفى.. و

قاطعه الدكتور صالح مُتسائلًا وليس مُتفاجئًا:

- سليييييم.. أريد أن أعلم من أين عرفت سليم وقصة المشفى؟

حينها قَصّ يونس كل ما بدأناه حتى لحظتنا الحالية في إيجاز، فقال الدكتور صالح في تأثر..

- يا بني.. أنا رجل لم يتبقَّ لي وقت في الحياة بالقدر الذي انقضى فيها، رأيت الكثير ومرت عليّ أفراح وأحزان كحال باقي الناس، رحلت رفيقة رحلتي ولم يهبنا الله الذرية الطيبة، أختي الوحيدة هاجرت مع زوجها منذ زمن، أما الأقارب ربما لا يعتقدون أنني ما زلت على قيد الحياة، كما رحل أغلى الأصدقاء إلى دار قرارهم، في وحدتي التي آنستها كثيرًا أصبحت أتأمل كل شيء حولي؛ لذلك قد يراني البعض مُريبًا، على كل الأحوال أنا لا أبالي، فقط أتأمل كيف كُنا وكيف أصبحنا، كيف كنت أرى الأمور في الماضي وكيف أراها الآن، بالنسبة للكلية.. حدسي يقول لي إن ثمة شيئًا غير مريح في أسلوب قابيل منذ زمن، أعلم أنه مُصاب بداء الغرور منذ أن عرفته؛ لكنني لم أعره اهتمامي قط، كنت أتعامل مع الكلية وتدريس الموسيقى بعد أن رحلت زوجتي كمكان أقضي فيه بعض الوقت لينقضي اليوم تلو الآخر؛ فأنا غير مُحتاج للمال كما تعلم، أنا فقط أنتظر أن يأتي دوري لأقابلها على خير.

أردفت في صدق..

- أنعم الله عليك بطول العمر والصحة يا دكتور.

ضحك الدكتور وقال..

- وماذا يفيد طول العمر يا ابنتي؟ لا تظنيني مُصابًا باكتئاب

الشيخوخة، أنا فقط أرى الحقيقة، وهل يبقى منا سوى السيرة الطيبة أو السيئة؟ وهل يتبقى شيء من سيرتنا هذه بعد مائة عام؟ قولي لي.. هل تذكرين اسم جد لكِ عاش قبل مائة عام؟

تفكرت في كلامه فأشاح بيده ومط شفتيه في غير اكتراث وقال..

- أترين؟ هذه هي الدنيا.. لكن دعونا من هذا الآن، سوف أطلعكم على ما أفكر فيه..

قال يونس..

- تفضل يا دكتور..

ابتسم الرجل وقال..

- سوف تكون هذه السنة الدراسية آخر سنة لي في الكلية إن شاء الله، لقد تعبت حقًّا.

أردف يونس...

- هل تستقيل؟ لا تفعل يا دكتور.. سوف يصيبك الملل.

قال الدكتور..

- بل أرتاح من شقاء الدنيا.. أريد أن أستمتع بصحبة نفسي قليلًا وأفعل ما أريد، لا أريد مواعيد والتزامات يا يونس.. ولكني الآن قررت أن أساعدكم بعدما رأيت من نُبل أخلاقكم، قل لي يا يونس ماذا تريدون؟

قال يونس..

- إذا سمحت لي أن أعرف لماذا تدفع مصارف مشفى سليم

يا دكتور؟

تنهد الرجل وقال مُندهشًا..

- لأنه مسكين لن يجد من يفعل هذا له، سوف يتحول إلى أحد المشردين أو المجانين في الشارع كما تراهم، هذا لأنه لن يعمل مرة أخرى وأقاربه في مستوى مادي لا يسمح لهم بتحمل كل هذه النفقات، أفعل هذا لآخرتي يا يونس، أنا من أحتاج إليه وليس هو.

أردفت..

- وما الذي أوصله لهذه الحالة؟

قال الدكتور صالح في أسى..

- كان سليم من أكفأ المعيدين في الكلية وأكثرهم اجتهادًا، هو أصغر مني في العمر، وقت تخرجه كُنت قد تزوجت حديثًا، أعتقد أنه دفعة قابيل، كان مُبهجًا حتى في أحلك الظروف وأشد الأيام قسوة عليه، كان يُكافح من أجل أن يرتقي بمستواه المادي، خاصة بعد موت أبيه ليخفف العبء عن أخيه الأكبر ويتولى مسئولية أمه، وكان على علاقة حب بإحدى الطالبات الأغنياء في الكلية، ليس على مستوى الكلية فحسب ولكن على مستوى أكبر بكثير، الفتاة كانت من عائلة ذات نفوذ ومال، وكانت شديدة الجمال تُلفت الأنظار أينما ذهبت، كان الموضوع معروفًا وقتها؛ إذ إن الفتاة كانت تحبه بصدق وتتصرف بتلقائية ولا تُقِيم لأقوال الناس وزنًا، كُنت أتابع قصتهما بشغف وأريد أن ينتصر

الحب كرواية جميلة، كانا بين أمل ويأس، إلى أن أعلنا خطبتهما بالفعل قبل حفل التخرج وكانت مفاجأة للجميع، كيف حدث هذا؟ استطاعت الفتاة إقناع أهلها أو الضغط عليهم، رُبما كانت مُدللة فلم يرفضوا لها طلبًا، وفي يوم حفل تخرجها صعدت الفتاة لتُحضر شيئًا من الطابق الثالث، وفجأة اندلع حريق هائل به لم يُستدل على أسبابه إلى الآن! ولم يستطيع أحد إنقاذها فماتت فيه محترقة، بعدها تغيرت أحوال سليم وتبدلت، صار شخصية أخرى لا نعرفها، حتى إنه حاول الانتحار مرات عديدة وكان شقيقه الأكبر والوحيد ينقذه في كل مرة، فبدأ يتحسن إلى أن توفي شقيقه هذا فجأة في حادث.. ثم لحقت أمه بابنها البكر بعد عدة أشهر، وهنا ساءت أحوال سليم إلى غير رجعة، فقد الكثير من وزنه ولم يعد يهتم بمظهره ولا بعمله، فصار يجيء للعمل يومًا وينام في البيت وحيدًا لأيام، فقَدَ الرغبة في الحياة، ولم يهتم به أحد من عائلته بعدها، فاقترحت زوجتي رحمها الله أن أتولى هذا الموضوع كصدقة جارية عن أنفسنا، ففعلت وأودعته المشفى ووفقني الله حتى الآن.

أردفت:

- يا الله.. جعله الله في ميزان حسناتكما يا دكتور.

أجابني بابتسامة هادئة وعينان قد غمرتها الحكمة والتجربة، فأدرف يونس حينها:

- أريدك أن تعلم أنني أزوره وأتابع حالته، ولحسن الحظ

يقول الدكتور المُعالج إنه بات يرغب في الشفاء..

أردف الدكتور صالح..

- علمت بهذا يا يونس من الدكتور المعالج، وقد حدثني عن ما تبذله من جهد معه، لقد سُررت كثيرًا لهذا.. أنت حقًّا نبتة طيبة.

نظرت ليونس في تعجب ولم أكن أعلم بزياراته المُتكررة لسليم؛ لكنني فرحت كثيرًا لما يفعله في حب الله والخير.

ظلا يتحدثان في أمور كثيرة ولم أكن أستمع إليهما بدقة، كنت شاردة أفكر في مغزى الحياة وعبرة الموت من جديد، هل تنتهي الحياة بانتهاء الجسد في الدنيا؟ تَبلى الأجساد يقينًا فهل تنتقل الروح لتُكمل حياة أخرى تسعد أو تشقى فيها؟ هل نلتقي مرة أخرى أم نعيش في وحدة أبدية؟ أم تحاول الحياة أن تُعلمنا قيمة الموت في كل مرة ولا ندري؟ استفقت تدريجيًّا على صوت يونس وكان يقول:

- الموت حرقًا.. شيء مؤلم للميت ولأهله على حد سواء، فليرحم الله الجميع أحياء وأمواتًا.

نظرت إلى يونس وتذكرت شيئًا فقلت:

- كريم ذكر شيئًا عن حريق آخر بإحدى الغرف..

سأل الدكتور صالح:

- هذا الطالب الذي ظل يرسب سنة بعد أخرى دون سبب؟ هو أكبر منك بدفعات..

قال يونس:

- نعم هو..

قال الدكتور..

- رأيته بالكلية منذ فترة قصيرة وظل يحكي ليلفت الأنظار إليه، أتذكره جيدًا.. لم يتغير هذا الولد.

نظر لي يونس نظرة ذات مغزى؛ لكن قاطعنا الدكتور قائلًا:

- لكن روايته صحيحة، إنها قصة مشهورة عن الكلية أيضًا، التدخين ممنوع منعًا باتًّا داخل المبني فكيف تحترق الغرف إثر اشتعال سيجارة؟ ولنفرض ذلك.. كيف احترق العاج؟!

صمتنا للحظات ثم نظر يونس إلى ساعته وأخرج الصور وأعطاهم لدكتور صالح وقال:

- هل هذه الفتاة في الصور هي من نتحدث عنها يا دكتور؟

ارتدى الدكتور نظارة طبية كان قد وضعها أمامه ونظر فيها ثم قال:

- من أين جئت بهذه يا بني؟

لم يعلق يونس وساد الصمت، أخذ الدكتور يُقلب في الصور وينظر إليّ بعد كل صورة فيجدني أُمعن النظر إليه وكأنني أراه لأول مرة، فسألتني عيناه بنظرة كانت كفيلة لأن أصارحه بما يدور في ذهني فقلت..

- للوهلة الأولى لم أستطع التعرف عليكم في هذه الصور القديمة..

ضحك الدكتور وقال في سلام..

- ومن يستطيع الهروب من الوقت؟ نكبر ونشيخ وتتبدل وجوهنا الشابة بوجوه أخرى لا نعرفها، لكن يقينًا تظل أرواحنا لا تكبر ولا تشيخ في معية الله أبدًا.

نظرنا أنا ويونس لبعضنا وتمنيت أن نكبر سويًّا ولا تشيخ أرواحنا، ظل الدكتور يتمعن في الصور ويقلبها ثم صاح فجأة وأشار إلى الفتاة في الصور..

- إنها المسكينة شمس خطيبة سليم!

* * *

(٣١)

فى طريقنا إلى البيت طلبت من يونس أن نجلس قليلًا في الكافيتريا القريبة من بيتنا، فوافق شرط ألا نزيد عن ساعة على الأكثر فوافقت، كنت أرى أن الوقت ما زال مُبكرًا لاستعدادات الغد، أحضر النادل لنا القهوة، كان يونس في عالم آخر، يفكر كثيرًا في كل ما قاله الدكتور صالح، أنا أيضًا كُنت كذلك؛ وإن تظاهرت بعكسه لأغير كل هذه الأجواء القلقة حولنا، أريد أن أفرح:

أمسك يونس بهاتفه وطلب رقمًا ما.. انتظر قليلًا ثم قال:

- عم سيد.. الآن جاء الوقت لتثبت لنا حسن نواياك...

نظرت إليه في فضول وأنا أرتشف قهوتي فأكمل..

- أريدك أن تقول لقابيل أنك سمعتني أتحدث عبر الهاتف وأقول أنني قد علمت بأمره.. ولا تفاصيل أخرى، هذا كل ما في الأمر.

سكت لبرهة ثم قال:

- حسنا.. سوف أنتظرك.

نظرت إليه في قلق وأردفت في ضيق:

- لماذا يا يونس؟ دعنا في مأمن من كل هذا على الأقل لفترة.. أريد أن أفرح.. هل هذا كثير علي؟

التفت إلى يونس وكاد يُجيبني؛ لكنه نظر بعيدًا وقال:

- أليست هذه حنين؟

التفت إليها، كانت تتجه إلى إحدى المقاعد شاردة فناديت عليها..

- حنين..

انتبهت إلينا، فأشارت لي واتجهت نحونا، عندما اقتربت رأيت على وجهها كآبة لم أعهدها.. اقتربت وحيتنا ثم جلست واجمة على غير عادتها! نظرت إليها وقلت:

- ألم يُفترض أن تكوني عند الخياط طوال اليوم؟

قالت دون اكتراث..

- أمي لا تزال هناك، استأذنتها وكأنني سوف أبتاع شيئًا وأعود مُجددًا.

نظر إليها يونس في توجس وقال..

- هل أطلب لك القهوة؟ أم شيئًا آخر؟

كانت نظرات حنين غريبة وزائغة، أردفت:

- قهوة ستفي بالغرض.. رأسي سينفجر.

اقتربت منها وقلت..

- ماذا بكِ يا حنين؟

نظر إليّ يونس وقد ضاقت عيناه بلؤم ثم سألها..

- هل يتعلق الأمر بكريم؟

أجهشت حنين بالبكاء حينها وقمت من مكاني أهدئ من روعها، إلى أن هدأت قليلًا ثم قالت:

- للأسف هو كذلك.

نظر يونس إليها في شفقة وقال..:

- هل تشاجرتما؟

نظرت إلى حنين وقالت..

- حسبته رجلًا يا فريدة.. قال إنه سوف يجيء إلى مصر لمدة يومين فقط لحضور حفل تخرجي والاحتفال به، هيأ لي خيالي أنه سوف يطلب يدي من أبي، خاصة وأنه قد.. حسبته يريد أن يستقر و... لكنه لم يكن كذلك!!

أصابني القلق عليها وقلت..

- ماذا حدث؟ أنا لا أفهم شيئًا!

تغيّرت نظرة يونس وجلسته وقال في سخرية..

- قال إنك تعجبينه ويريد العيش معكِ؟ ذكر فكرة الارتباط بين الأصدقاء؛ لكنه لم يذكر الزواج صراحة.. أليس كذلك؟

نظرت إليه حنين مُندهشة وقالت:

- بالضبط يا يونس.. كيف عرفت؟!

رد عليها:

- لقد حذرني الدكتور صالح بالفعل.. وأوضح أن سمعته ليست طيبة في هذا الشأن، لكنني لا أحكم على الأشخاص إلا بأفعالهم، لا أعلم ماذا حدث لعقول الناس! تكررت رؤيتي لمثل هذه الحالة مؤخرًا في مجتمعنا للأسف الشديد!

أردفت حنين وما زالت تبكي.

- تخيل أنه يدعوني إلى العيش معه دون زواج، يسميها حياة حرة دون قيود تُضعف حُبنا!! كانت صدمتي فيه كبيرة! لم أصدق.. ناقشته بحسن نية لأفهم وجهة نظره فحلل الكثير

من المُحرمات وقلب تفسير الآيات، حتى احترام الآباء والقيم والأخلاق وكل هذه الأشياء لها عنده ردود غير مُقنعة حتى لفتاة مُراهقة، أهذا هو الشخص الذي كدت أحبه وأتمناه زوجاً؟

ثم نظرت إليّ مُنكسرة وقالت باكية..

- أهذا ما أستحقه حقًّا يا فريدة؟ لماذا رآني في هذه المنطقة العفنة؟

احتضنتها ونظرت مباشرة إلى عينيها وأنا أقول:

- لقد أنار الله بصيرتك، أعيدي تقييم نفسك من جديد.. ولا تقبلي بأقل مما تستحقين.

نظر إليّ يونس في ثقة وقال..

- سبحان الله.. لم أرتح إليه منذ البداية ولم يكذب قلبي قط، كذلك بدا واضحًا أن حديث الدكتور صالح عنه صحيح.

أردفت حنين..

- ماذا قال عنه؟

رددت أنا عليها:

- سوف أحكي لك لاحقًا يا حنين كل ما حدث.. المهم أن تهدئي الآن، تذّكري أن الغد من أهم أيام عمرك وهو لا يستحق منكِ البكاء، الحمد لله أن قِناعه قد سقط مبكرًا.

رن هاتف يونس حينها فالتقطه في لهفة وأجابه وابتعد قليلًا بينما أواسي حنين ثم أغلق هاتفه وقال دون أن نسأل:

- عم سيد يقول أن نأخذ حذرنا من قابيل.

* * *

(٣٢)

كان يوم التخرج وكأنه يوم زفافي، نهضت أستبشر باليوم وأبتسم له، الرداء الأبيض الكبير مُعلق على الدولاب من الخارج، أردت أن أراه أمامي، كان الرداء وحده يبعث على الفرح، لن أسمح لقلقي على يونس من قابيل أو استيائي لصدمة حنين في كريم أن تُعكر صفو اليوم، أخذت حنين غصبًا إلى الكوافير.. فقد كان قلبها مُنكسرًا ولا تُريد ذلك، أما أمي فأخذت تستعد في المنزل بطريقتها، بينما اتفق إخوتي أن يحضروا حفل التخرج في الموعد المسائي بالطبع ثم نجتمع بعده حيث تحتفل عائلتنا وعائلة يونس بخطبتنا في أحد الفنادق الشهيرة، اليوم مُشرق ومُبهج أو هكذا أراه.

أرسل يونس سيارة ليموزين بسائقها لتُقلنا إلى الحفل.. كنت أنا وأمي وحنين ووالدها ووالدتها، فهو بالطبع سيكون برفقة والديه، شكرته أمي عبر الهاتف على ذوقه، أكد عليّ يونس مرات عدة ألا أنسى النوتة الموسيقية، لكنني أحضرت الظرف بكل ما يحويه، نزلنا لنستقل السيارة الفخمة وقابلت عندها حنين في رداء أحمر رقيق غاية في الروعة، بدوْنا كأميرات العصر الذهبي نحب مظهرهما كثيرًا، نظرت إلى حنين وقالت ونحن في الطريق..

- لا أعرف كيف أشكرك يا فريدة، لم أكن لأتزين من الأساس، كُنت في مزاج عكِر لا يسمح لي بفعل أي شيء، أتعلمين أن الزينة قد تُغير المزاج؟ أدركت هذا اليوم وتعلمت أنني كلما مررت بضائقة سوف أتزين جيدًا فيقع أثر الجمال في نفسي فأتحسن.

ضحكنا سويًا وقلت لها:

- الأهم أن تسامحي نفسك على ما ارتكبتيه من أخطاء، أعطي لنفسك فرصة أخرى.. أنتِ تستحقين الأفضل دائمًا.

أردفت وهي تمد يدها بصندوق صغير أزرق قطيفة:

- كل عام وأنت صديقتي يا فريدة.. أصبحتِ أغلى ما أملك.

أردفت وأنا آخذها في سعادة..

- وأنت بكل خير يا حبيبتي.

أخذت الهدية منها واحتضنا بعضنا سريعًا، فتحتها فكانت سلسلة فضية مُعلقًا بها كلمة «حياة»، نظرت إلى الكلمة اللامعة فطافت روحي في معناها ونسيت ما أنا فيه وشردت فيها وبِتُّ أفكر «ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ أن نتمسك بالصحبة الطيبة في حياتنا الأولى ليتصل المدد في حياتنا الأخرى».

لاحظت حنين شرودي فسألت:

- هل أعجبتكِ الهدية إلى هذا الحد؟

أجبتها وقد ابتسمت في صفاء:

- أكثر من هذا الحد..

فأخذتها من يدي وقالت وهي تضعها حول رقبتي..

- إذن فلترتديها مع هذا الثوب الذي يُشع حياة..

عندها وصلنا إلى الكلية حدثني قلبي أن اليوم غير عادي، أمسكت بالظرف الذي يحتوي النوتة الموسيقية والصور وغادرت السيارة في ردائي الأبيض المُبهج الذي جعلني أشعر كالملكة، سِرت وقد بدأت أصدق ما شعرت به، شعور بالدفء أحببته، وسألت نفسي.. أينبغي أن ترتدي الفتاة رداء باهظ الثمن لتشعر أنها ملكة؟ أم أن الأمر كله ينبع من الداخل ولا علاقة له بما ترتديه؟

عبرنا المدخل خلف أمي ووالدي حنين، ووقفنا وسط الفناء، ونظرنا حولنا.. ها هو مبنى الكلية قد أخفى سره وتزين أيضًا بإضاءة مُلونة وكثير من البالونات والزينة والورود، رائحة الورود الطبيعية ملأت المكان، صوت موسيقى مُتقطعة يأتي من الداخل، الطالبات في ملابس جميلة وأنيقة باختلاف ألوانها وأشكالها، كلهن في كامل زينتهن، الطلاب أيضًا ارتدوا حُللًا أنيقة؛ حتى إننا لم نعرفهم في بادئ الأمر كما لم يعرفونا هم أيضًا! كان الأمر مُضحكًا لكلينا، طلاب الدُفعة كلها في أبهى صورة لهم منذ أن درسنا بالكلية، لا بد أن بعض الطلبة مُتوترون بعض الشيء فأرادوا أن يعزفوا قليلًا، كان العم سيد يقف في مكانه يرتدي زيه الرسمي، يبتسم لمن يحيه وكأنه خارج المكان والزمان،

يغلب على ملامحه حزن كبير لا يخفيه، استقبل الآباء بعض الطلبة المُكلفين بإيصالهم إلى أماكن مقاعدهم في قاعة المسرح فأشارت لي أمي وقالت:

- سوف نجلس وننتظركم يا بنات.. لا أطيق صبرًا كي أراكم على المسرح في أقرب وقت.

قبّلت يدها وكذلك فعلت حنين مع والديها، ثم قالت لي:

- أتعلمين أنني لا أتذكر الآن كريم وكل ما آلمني؟ الأجواء المُحيطة تفرض نفسها علينا.

قُلت:

- بل تتذكرينه يا صديقتي.. لو أنكِ نسيته فعلًا لما ذكرتِ اسمه الآن، لكن لا داعي للقلق.. فالوقت يعالج كل شيء.. الوقت يُخبرنا بكل شيء.

قالت وهي تُمعن النظر إليّ وكأنها تتفكر في حديثي:

- أنتِ على صواب.. الحياة تستمر ولا تتوقف عند الأشخاص أو الأحداث، الحمد لله على نعمة النسيان.

ثم رأينا الدكتور صالح والدكتور قابيل يتحدثان معًا، يرتديان حُللًا سوداء أنيقة وأحذية تسطع كأنها صُنعت للتو، الدكتور صالح يدخن سيجاره المُشتعل في تأنٍّ وهدوء كعادته، بينما بدا دكتور قابيل في منتهى الحماس والنشاط والمرح أيضًا كعادته، نظرت إليهما حنين وقالت:

- ها هو قابيل يبدو طبيعيًّا.. لا أصدق حقًّا أن له علاقة

بشيء مما يحدث، لا أصدق أن هذه الشخصية المرحة العطوفة تجعل من عم سيد المسكين ناقلًا للأخبار مقابل المال؟ أم أن عم سيد يكذب ليضللنا كما فعل من قبل؟

أردفت في تلقائية..

- أحوال الرجل قد تبدلت بعد موت ابنته يا حنين، لقد أصبح شخصًا غير الذي عرفناه لسنوات، لا يبالي بالدنيا وما فيها وكأنه زهد فيها، والزاهد لا يكذب لأنه لا يخاف الفقد.. بل يبتغي رضا الله وكفى.

نظرت إلى حنين في تمعن وقالت:

- كلام منطقي.. أتمنى أن يكون صحيحًا، ألا تعتقدين أننا يجب علينا مُصافحة الدكتور قابيل لكي لا نثير شكوكه؟

أردفت في تردد:

- لا أدري.. ربما هو مُنشغل الآن..

انتابني شيء من الخوف من قابيل حينئذ، وكنت قبل ذلك أسعد لرؤيته! غريب تبدل الحال لكن هذه الدنيا لا تستقر على شيء، علا صوت الموسيقى مُتداخلًا مع بعضه في سيمفونية غير مُنسجمة، فالطلاب ينتشرون في الكلية ويعزفون على آلات مُختلفة قبل عزف كل منهم مُنفردًا، نظرت لي حنين وقالت:

- لماذا أشعر بالتوتر الآن؟

أردفت وأنا أنظر في ساعتي..

- لدينا ساعة كاملة من الوقت على رفع الستار.. نستطيع أن

نصعد للطابق الثالث ونتدرب قليلاً.

نظرت إليّ حنين في ذعر وقالت:

- وحدنا؟ لا يمكن.. أستطيع أن أتغلب على قلقي وليكن ما يكن..

ضحكت وضحكت هي الأخرى ورأيت يونس آتيًا يبتسم من بعيد، لوهلة لم أعرفه، كان أشبه بنجوم السينما العالميين، بل أزعم أنني رأيته أوسم وأشد أناقة منهم، سلم على حنين ثم عليّ لكنه لم يُفلت يدي، ابتسمت في خجل وأنا أنظر إلى يده وهي تحتضن يدي، أردف يونس..

- أخاف عليكما اليوم من الحسد.. ما كل هذا الجمال.. لماذا لا يكون كل يوم حفل تخرج؟

ضحكنا جميعًا وقالت حنين..

- لسنا وحدنا يا يونس.. انظر حولك يا صديقي، الكلية بأسرها تفوح منها رائحة عطور مُختلفة تختلط برائحة الزهور، حقيقة لم أشهد يومًا كهذا ولم أتوقعه في هذا المبني أيضًا..

قال يونس ضاحكًا..

- هذا صحيح..

قلت..

- هل نذهب لأسلم على والديك الآن؟

قال وهو ينظر إلى ما بيدي:

- لا داعي الآن، فقد اطمأننت عليهم جميعًا.. والدتك

ووالديْ حنين ووالديّ أيضًا، كما أن جميع أخواتك قد حضرن بصحبة أزواجهن وأطفالهن، أجلستهم في الصف الخلفي مُباشرة لوالدتك، لا أريدك أن تشتتي ذهنك.. فقط ركّزي على ما تمسك به يداك.. لماذا جلبت الظرف بأكمله؟

قالها يونس بنبرة مختلفة فتذكرت العزف ولاح على وجهي القلق فقلت:

- لا أعلم.. خِفتُ أن أتأخر فأخذت الظرف كله في سرعة.

حينها أردفت حنين:

- لا داعي للقلق اليوم يا فريدة، اليوم نفرح جميعًا بعيد ميلادك وبالتخرج وبخطبتكما.. اليوم يكتمل جزء من الحياة، ليُبارك الله هذا الحب ويجعله خالصًا..

نظرنا إليها في امتنان، وقبل أن أعلق قالت..

- سوف أكون قريبة منكِ يا فريدة، بعض الزملاء هناك يتمرنون في البرجولات.. سوف أنضم إليهم.

تركتنا حنين في لحظات رومانسية لم تدم طويلًا حينما سألني يونس:

- هل تودين أن نتدرب قليلًا قبل العزف على المسرح؟

أردفت كاذبة وقد كنت أتمنى أن أظل معه فقط..

- أتمنى ذلك..

أخذ يونس من يدي الظرف وأشار إليّ كأميرة أن أتقدمه إلى بهو المبنى حيث أشار، عندما رأيت التماثيل والسيدة ذات العيون

الكحيلة في اللوحة الزيتية لم أشعر باضطراب! انحنى يونس انحناءة بسيطة في إشارة لأن أتقدمه فجعلني أضحك وأردفت:

- شكرًا يا مولاي.. أتمنى أن يمر اليوم على خير..

نظر لي في ثقة وقال:

- سوف يجعله الله خيرًا بإذنه.

لماذا نخاف من الفرحة؟ لماذا تنقبض قلوبنا عندما نفرح من أعماق قلوبنا؟ لماذا نتوقع قدوم الشر بعد الخير ولا نثق في قدر الله كما ندّعي دومًا؟ لماذا لا نُسلم أمورنا لله حق التسليم؟ رُبما لأن إيماننا المُطلق الذي ندّعيه ينقصه اليقين، هذا ما سألته لنفسي أثناء صعودنا إلى الطابق الثالث، مسرح أحداث جميع الأمور المريبة التي شهدناها، هل يحدث لنا شيء آخر؟ الغريب أن جميع الطوابق بدت لي طبيعية جدًّا عكس كل الأوقات التي مرّت بنا، جميع الأنوار مُضاءة وقد زُين الدرج وجميع الطوابق أيضًا، قطع يونس صمتي قائلًا في مرح..

- هل تجدين صعوبة في الصعود بكل هذه الطبقات من القماش؟

أجبته:

- لولا ما ألاقيه من صعوبة الآن لما شعرت بالاختلاف..

ضحك يونس وأردف..

- أصبحتِ فيلسوفة يا فريدة.

وصلنا للطابق الثالث وكان به بعض الطلاب يتدربون بالفعل في بعض الغرف، وكان من حسن أو سوء حظنا أن وجدنا

الغرفة الثالثة خالية، فدخلنا مُباشرة إليها وجلست أمام البيانو، وسمعت يونس يتمتم بصوت مسموع وكأنه يخاطب الهواء:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أخرج يونس النوتة الموسيقية من الظرف ووضعها أمامي على حامل النوتات، ثم وضع الظرف على الأرض بجانب البيانو وقال وهو يدندن ليحمسني.. لنعزف النوم الأسود سويًّا يا فريدة.

***

(٣٣)

استغرقنا في العزف كثيرًا في مثالية لم أعتدها من نفسي، كان يونس مبهورًا بأدائي فقال في تعجب..

- أنا مُندهش! العزف أكثر من رائع والنغمات خارج المكان والزمان.. هل يؤثر الفرح عليكِ إلى هذا الحد؟

أردفت على الفور..

- الفرح يسحر النفوس.. يعطينا القدرة على فعل أي شيء.

قال يونس..

- ألم أقل أنكِ اليوم فيلسوفة..

ثم نظر إلى ساعته وقال:

- الآن يجب أن نتجه إلى المسرح...

توترت قليلًا حينما علمت بمرور الوقت فقال يونس في مرح مُحاولًا تهدئتي وهو يأخذ النوتة الموسيقية من أمامي..

- سوف يفسد القلق زينتك يا حبيبتي..

ضحكت حينها فأردف في جدية..

- هيا يا فريدة لتُبهري الحضور بما تملكين من حضور.

ابتسمت في فخر وحملت بعض طبقات القماش لأسرع من حركتي قليلًا وقد تقدمني يونس قليلًا، لكنني ما إن خرجت من الغرفة حتى رأيت الدكتور قابيل بحُلته الأنيقة يجري قُرب الدرج

ويهبط سريعًا! حينها اختنقت ولم أستطيع التقاط أنفاسي فتوقفت..

توقف يونس ونظر إليّ في قلق وأنا أحاول أن أتنفس وسألني:

- فريدة.. هل أنتِ بخير؟ ماذا بكِ؟

أخذت رئتاي تشعران بالأكسجين شيئًا فشيئًا إلى أن تنفست أخيرًا وقلت..

- الحمد لله.. أنا بخير.

أردف يونس في قلق..

- ماذا حدث لكِ؟

طمأنته قائلة..

- لا شيء.. هيا بنا من هنا.

كان القلق قد تملك من يونس وبدأ يسير بجانبي ببطء وينظر إليّ مُتفحصًا؛ فلما اطمأن سبقني بخطوات، وعند منتصف الطرقة وقبل أن نصل للدرج رأيت نفسي أمامي بنفس الرداء تقف في جانب من جوانب ممر الطرقة وتنظر إليّ! توقفت ونظرت إلى الفتاة التي هي أنا وتسمرت مكاني!

وقف يونس ينظر إليّ وأنا ما زلت أحدق في الفتاة، ثم نظر إلى الاتجاه نفسه وقال:

- فريدة.. أخبريني ماذا يحدث؟

لم أستطع الردّ عليه لكنني أشرت إليها دون حديث، فذهب إلى حيث أشرت ونظر مرة أخرى وسألني:

- ماذا ترين؟

تلعثمت في الإجابة وأنا أقول:

- إنها أنا يا يونس... تقف تمامًا بجانبك.. الفتاة.. إنها أنا.. نفس صورتي وهيئتي!!

نظر مرة أخرى إلى حيث أشرت وقد لاح عليه القلق وقال:

- من هي يا فريدة؟ وكيف تقولين إنها أنتِ؟ أتقصدين الفتاة شمس؟

نظرت الفتاة إليّ وتبسمت ورفعت رداءها أو ردائي الأبيض وبدأت تهبط الدرج جريًا في خفة غير منطقية.. اضطرب قلبي خوفًا من الليلة وما قد ألاقيه فيها، اقترب مني يونس وأمسك وجهي بكلتا يديه ليجعلني أنظر في عينيه فقط وقال في صرامة:

- فريدة.. مهما كان ما ترينه الآن فلا تنزعجي، تذّكري أن الله معنا... لا شيء بعد ذلك.. ثقِ في الله، وأنا معكِ.. سوف أحميكِ مهما كلفني الأمر، قد لا يكون الأمر يسيرًا لكنه ليس بالعسير أيضًا..

ترقرقت دموعي وأنا أنظر إليه فأردف مُحاولًا رسم ابتسامة على وجهي..

- أنتِ مُصرّة على إفساد كل هذه المساحيق، أرجوكِ لا تفعلي.. سوف تختلط زينتك وسيكون المنظر مرعبًا أكثر من النوتة الموسيقية.

ضحكت ضحكة خاطفة وأنا أحاول كبت كل هذه المشاعر الغريبة بداخلي فأردف هو في حماس..

- اليوم رأيت فريدة الفنانة التي أحبها وقد تملكت من

اللحن والكلمات تمامًا.. أريدك أكثر شفافية على المسرح، لا تذكري شيئًا من كل هذا هناك.. هيا بنا الآن..

ربت على يدي في حنان ونظر إليّ وقد تبدل قلقه إلى حماس لمسته في صوته، ابتسمت وقد بدأت أشعر بأمان تعودت عليه في وجود يونس، وبدأنا في هبوط الدرج، كانت الفتاة -التي هي أنا- تنتظرنا في الطابق الثاني فلما وصلنا إليه حملت رداءها الذي هو ردائي وتقدمتنا في السير جريًا مرة أخرى، كان عليّ أن أكبت مشاعري تجاه ما أراه بعيني ولا أخبر يونس ثانية لكي لا يقلق أكثر، كان عليّ أن أتعامل مع أغرب موقف يمر بي في حياتي وكأنني لا أراه، تمنيت لو رأيتها شمس كما قال يونس، ولا أراني أنا أسير أمامي وأقف أنتظرني وأحمل ردائي! شعور غريب لا تصفه الكلمات أبدًا!

بقيت الفتاة تسير أمامنا في الطريق إلى المسرح وكأنها ترشدنا؟ هل أتوهم ما أراه الآن؟ أتمنى لو أن الأمر كذلك، قابلنا حنين أمام المسرح فقالت:

- أين كُنتما إلى الآن؟ بدأ العرض الأول بالفعل.. «دويتو» عزف رائع.. المسرح مُمتلئ عن آخره بالطلبة والآباء.. هيا يا فريدة أسرعي..

نظرت إلى الفتاة في وداعة ورأيتها ترتدي نفس السلسلة التي أهدتني إياها حنين منذ قليل! حدقت فيها فوجدت كلمة «حياة» واضحة لكبر حجمها، أكبر من التي أرتديها! لا أعلم

كيف اطمأن قلبي قليلًا حينها! لكنها أمسكتها وهي تُريني إياها في حزن، وقد انقلبت كلمة «حياة» إلى «موت» فوجمت! حينها دخلت المسرح واختفت عن عيني!

أفقت على يد حنين تهزني وتنظر إلي في ذهول وتقول ليونس:

- ماذا بها؟ هل حدث شيء؟

أجابها يونس نافيًا ليشجعني:

- إنها في أحسن حالاتها الليلة.. أليس كذلك يا فريدة؟

قالها وهو ينظر إليّ فأردفت في إصرار وقلبي يحدثني ألا أضيع كل ما أنفقته من وقت ومجهود:

- لندخل الآن ونستمع عن قُرب إلى عزف الطلبة الرائع إلى أن يحين دورنا فنكون الأروع.

نظر يونس وحنين إلى بعضهما في قلق وقال يونس..

- توكلنا على الحي الذي لا يموت.

نظرت إليه في حيرة.. هل رأى ما رأيت ولا يريد إزعاجي؟ وإلا فلماذا يقول هذه الجملة الآن تحديدًا؟ أم إنها رسالة من الله بالتوكل عليه وعدم الخوف من أي شيء حتى الموت؟ فأردفت في إيمان امتلأ به قلبي على حين غُرة حينها..

- توكلنا على الله.

دخلنا المسرح وكان مُظلمًا إلا من إضاءة العرض المُتاحة فقط، فوجدت عيون أمي الجميلة تبحث عني على ضوء إضاءة المسرح، فلما رأتني بردائي الأبيض المُميز ارتاحت في جلستها

وأشارت لي بعلامة النصر مُحمسة إياي، أشارت لوالدي يونس ليروني، فأشرت إليهم جميعًا في تحية وأرسلت قُبلة لأمي في الهواء، ثم حياهم يونس بدوره، كان إخوتي وعائلاتهن يملأن الصف الثاني كله، فلما رآني أطفالهم بدأوا يصفرون ويشيرون لي فأرسلت إليهم قُبلاتي في الهواء فأدخلوا على قلبي البهجة لدقائق.

جذبني يونس من يدي بلطف إلى حيث تجلس باقي الدفعة في الصفوف الخلفية كي لا نسبب إزعاجًا لبقية الحضور، حيث ينتظر كل منهم دوره في العزف بعد أن ينادي اسمه الدكتور قابيل في الميكرفون، نظرت إلى قابيل بحُلتة السوداء! هل كان هو من رأيته يهرول حقًّا؟ لكن كيف حدث هذا وهو هنا يقف على المسرح منذ فترة؟!

كان الدكتور صالح أيضا يجلس ومعه بعض الأساتذة على منصة في جانب المسرح يستمعون في دقة ويدونون ملاحظتهم عن كل طالب على حدة، جلست وعن يميني يونس وعن يساري حنين، وبدأت أركز في العزف الحالي، وفجأة ظهرت أنا من جديد بردائي الأبيض على المسرح، ظهرت من العدم! أقف بجانب أي عازف من الطلبة وكأنني أنتظر أن ينتهي في ضجر، كانت الكلمة الفضية في السلسلة كبيرة ولامعة لكنها لم تكن واضحة أهي «حياة» أم «موت»؟ شاهدتُني لم أبرح المسرح أبدًا، تارة أبتهج بعزف أحدهم وتارة أتضايق إذا ما كان اللحن رديئًا، فلما نُودي على حنين علمت أنني العازفة التالية؛ لأن اسمي قد

سُجل بعدها في الكشف مُباشرة.

قامت حنين تحمل النوتة الموسيقية وقد شعرت بتوترها فأمسكت يدها وضغطت عليها وقلت..

- يا صديقتي.. مررنا سويًّا بأصعب من هذا بكثير، لكن كل الصعب قد مر ولم ننكسر، فلنُشرق اليوم، لا تخافي.. إنه يوم عزف روتيني لكن في يوم التخرج.. فلتُريهم ما لديكِ من موهبة لا يتوقعونها..

نظرت إليّ حنين وقد بدلت كلماتي عينيها الخائفتين إلى عينين تُشعان حيوية و إصرارًا، ضغطت على يدي في حماس ثم سارت إلى المسرح مرفوعة الرأس مُتزنة تملأ الثقة خطواتها، حيّت الدكتور قابيل ثم لجنة التحكيم بإيماءة بسيطة، ثم أنارت ابتسامة وجهها المسرح وهي تحيي الجمهور قبل أن تبدأ، جلست وبدأت العزف على النوتة الموسيقية «يمامة حلوة».. استمعنا واستمتعتنا واستغرقنا في كل جزء من أجزاء اللحن المميز إلى أن غنّت حنين وجلجل صوتها في أنحاء المسرح؛ فأبهرني وأبهر جميع الحضور، وأنساني صوتها وعزفها كل شيء يخيفني أو يقلقني، وكأنها تدفن كل خيبة أمل مرّت بها وكأنها تمحو كل ذكرياتها المُحبطة من الذاكرة، حقًّا إن الفن هبة الله للإنسانية كلها.

حينما انتهت حنين، شعرت أنها انتهت من كريم أيضًا، لا أعلم تحديدًا لماذا راودني هذا الشعور الغريب! صفق الجميع في حماس وأطلق البعض الصفافير تحية لها، وقف والداها يصفقان

والفرحة تغمرهما، وقفت تحيي الجميع وكأن نفسها فاجأتها هي شخصيًّا.. وقد عوضها الله بهذا الجمال.

عندما تركت حنين المسرح وذهبت إلى أهلها تحتضنهم، رأيت الفتاة أو رأيتني أعود من جديد وأجلس على البيانو وأنظر لي وكأنني أنتظرني! جلست وفرشت الرداء الأبيض انتظارًا لقدومي! والكلمة الفضية في السلسلة تلمع غير واضحة، لكن لماذا اختفت هذه الفتاة أثناء عزف حنين؟!

أمسك الميكرفون الدكتور قابيل من جديد لينادي اسمي، نظر إلى يونس مُشجعًا وجاءت حنين تحتضنني وتُهمس في أذني بصوت غريب:

- احفري اسمك كنجمة في السماء الليلة.. فقد انتظرت هذا اليوم منذ سنوات بعيدة..

تراجعت خطوة للخلف ونظرت إليها في دهشة فقالت وقد عاد صوتها الطبيعي المرح..

- فلنشرق اليوم يا فريدة وتذّكري دائمًا.. أنتِ تستحقين.

الجميع يترقب صعودي على المسرح بدءًا من لجنة التحكيم وحتى الفتاة التي هي أنا، تجلس في انتظاري في هذا الرداء الذي اخترته بنفسي مع يونس! مع كل ذلك لم أكن خائفة منها، لكنني تساءلت إذا كانت هي من تجلس على الكرسي أمام البيانو الآن فأين سأجلس أنا؟

***

(٣٤)

ضغط يونس على يدي مُشجعًا وهو يعطيني النوتة الموسيقية، بينما عيناه تحاولان إخفاء قلقه، نظرت إلى أطرافها المحترقة ولم أشعر من الداخل أنني بحالة تسمح بالعزف والإبداع بعد كل ما رأيته وما زلت أراه، لكنني علمت أنني لا بد ماضية في طريقي لا محالة، أمي الوحيدة التي تصفق قبل أن أبدأ وما زالت تُشير إلى بعلامة النصر، الحمد لله على نعمة وجودك يا أمي، كان يونس يحاول أن يخبئ القلق في عينيه فيبتسم ابتسامة واسعة كُلما نظرت إليه، بينما عادت حنين إلى طبيعتها كما أعتقد فرأيتها قلقة أيضًا.

أغلقت عيني لثوانٍ وتنفست بعمق قبل أن أخطو خطوة واحدة وقرأت }بسم الله الرحمن الرحيم.. ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين{، ثم رفعت بعضًا من طبقات قماش الرداء لأسير في ثبات نحو المسرح، خطوات منتظمة لكن بطيئة بعض الشيء، الدكتور قابيل ينظر لي وكذلك لجنة التحكيم، أما هي.. فما زالت جالسة مكانها! ثم بدأت تبتسم لي وتزداد ابتسامتها اتساعًا كُلما اقتربت منها، أنا في حالة هذيان بكل تأكيد، لا يمكن أن يكون ما أراه حقيقيًّا! كيف أجلس فوقها؟ وإذا لم أفعل سيسألونني عن سبب عدم جلوسي! هل

أصارحهم جميعًا حينها بما أراه؟ هل يصدقونني؟ أم تبكي أمي وأهلي لفقدان عقلي؟

اقتربت أكثر واتضحت الكلمة الفضية أكثر.. لمعت في الإضاءة الخافتة وقرأت «حياة»، فاطمأننت، وصلت إلى السلم الصغير للمسرح وبدأت في الصعود، وعندها أمسكت بطبقات قماش الرداء الأبيض وقامت من مكانها لتفسح المكان لي، ثم وقفت وراء الكرسي، للمرة الثانية لم أكن خائفة منها بل شعرت بألفة! وقفت أمامها للحظات كما أعتقد قبل أن أجلس على البيانو، فوجدتها قد تحولت إلى شمس! ففغر فاهي رغمًا عني ولم أستطيع أن أسيطر على ردة فعلي.. فقالت وهي تنظر إليّ:

- ننخدع كثيرًا... لا شيء يبدو لنا كما هو عليه في الدنيا، الليلة تنكشف الحقائق.

تحدث الدكتور صالح في الميكروفون بجانبه لأول مرة في الحفل قائلًا..

- الطالبة فريدة.. هل أنتِ بخير؟

تنبهت إلى صوته واختفت الفتاة تمامًا فأردفت مُتلعثمة:

- نعم بخير يا دكتور..

فقال الدكتور قابيل في تعجب:

- ألم تسمعيني يا فريدة عندما تحدثت إليكِ قبل الدكتور صالح؟

- لا... لم أسمعك!

تساءل الدكتور قابيل:

- هل أنتِ بخير يا عزيزتي؟

أردفت في توتر:

- نعم.. نعم بكل خير.

بدأت تصل إلى آذاني همهمات، فجلست وأغمضت عيني للحظات وأخذت نفسًا عميقًا، ابتسم الدكتور صالح وأشار إليّ بالبدء وسط قلق أمي ويونس وحنين وتعجب باقي الطلبة في الدفعة، استحضرت جديث يونس في تدريب العزف «توحدي مع الآلة.. اشعري بها.. تذّكري أن أصابعك تلمس الآلة وهي أيضًا تلامس أصابعك.. اجعليها تعزف النغمات بدلًا عنكِ، تذّكري أنها تشعر بكِ، حين تفعلين ذلك.. تعطيكِ الآلة أجمل ما فيها من نغم»، الآن أبدأ العزف البطئ للنوتة الموسيقية..

كانت أصابعي تتحرك رغمًا عني في خفة ورشاقة لم أعتدهما، وكأنهم أصابع البيانو وليست أصابعي، كُنت أعزف بأسلوب غريب عليّ! بدوت في منتهى التمكن من الآلة واللحن، وكأن شيئًا خارج إرادتي يُمسك بأصابعي فيلقيها هنا وهناك في رقة ووداعة وفن أصيل.

بدأت أسمع «صفافير» كثيرة من الحضور إعجابًا بما يسمعون؛ لكني لم أكن أبذل جهدًا في العزف على الإطلاق! أتعزف شمس بدلًا عني؟ هل كانت تعزف بدلًا عن حنين أيضًا عندما اختفت؟ بدوت للحضور وكأنني مُنهمكة في العزف لكن

في الحقيقة كُنت أفكر كيف ماتت شمس؟

وبعد أن انتهيت من العزف البطئ للنوتة الموسيقة «النوم الأسود»، بدأت عزفها مرة أخرى بتوزيع حديث وأسرع قليلاً.. رأيت لجنة التحكيم تستمع أو تَهيأ لي أنهم يتمايلون من فرط عذوبة اللحن وبراعتي، كما أن الدكتور صالح قد ألقى بالقلم على الورق أمامه وقد وضع يده تحت ذقنه وبدا مُستمتعًا، كانت أمي تستمع بإنصات وتهز رأسها طربًا، بينما كان يونس وحنين يقفان في قلق في آخر الصفوف؛ لكنني أذكر وجه الدكتور قابيل مُتجهمًا تملؤه الشكوك.. وأيضًا القلق!

لأول مرة أستغرق في العزف وفي نفس الوقت أتابع الحضور! ليلة عجيبة بكل ما فيها!

عندما انتهيت في اللحظات الأخيرة وأنا أختم المعزوفة.. كان الحضور قد انتشى عن آخره وقاموا واقفين في أماكنهم يصفقون حتى لجنة التحكيم! وكأنها حفلة لإحدى النجوم في مسرح من مسارح الأوبرا وليست حفلة تخرج، أفقت حينها وكأنني كُنت في حالة غريبة طغت على وتملكتني في هدوء ووداعة، وقفت مكاني ثم ذهبت في منتصف المسرح لأحيي الجميع، كان يونس وأهله وحنين وأهلي جميعًا في شدة السعادة، استمر التصفيق كثيرًا لمدة لم أحتسبها لكني أظنها طويلة جدًّا.

بينما رأيتني مرة أخرى من جديد أقف عند حافة المسرح وأبتسم، كانت الفتاة هي أنا وليست شمس! نظرت جهة اليسار

حيث تنتظرني الفتاة وهي تُمسك ببعض طبقات قماش الرداء الأبيض وتهبط من المسرح بضع درجات لتختفي وسط الحضور وتخرج من المكان!

هبطت بدوري وراءها لكن الدكتور قابيل قد أعلن في الميكروفون عن استراحة نصف ساعة لنعود جميعًا ونستمع إلى باقي مشاريع تخرج الدفعة، وخرجت لجنة التحكيم من المسرح يصاحبهم قابيل إلى حيث يستريحون حتى يحين النصف الثاني من الحفل، ووجدت نفسي مُحاطة بدائرة الأهل والأصدقاء يحتضونني ويهنئونني وعيني ما زالت مُعلقتان باتجاه الفتاة! هل كانت هذه الفتاة هي روح شمس؟

❊ ❊ ❊

(٣٥)

بعد أن تلقيت كثيرًا من المدح والثناء الذي أظنني لا أستحقه انقسم الحضور إلى مجموعات، مكثت ويونس لدقائق بين أهلنا وتركناهم منهمكين في أحاديث متفرقة يضحكون في أجواء سعيدة، مكثنا مع حنين وأهلها نهنئهم على أداء حنين المُميز، ثم ذهبت حنين مع بعض الزميلات إلى المرحاض ليجددن زينتهن، ووقف يونس مع زملائه يتبادلون أطراف الحديث، أردت بشدة أن أعرف أين اختفت الفتاة؟ وتذكرت النوتة الموسيقية فذهبت إلى المسرح فوجدتها ما زالت على حامل النوتات، حينها تذكرت الظرف والصور التي بداخله وخِفت أن أفقدها، فتسللت من بين الجموع لأصعد إلى الطابق الثالث، وكان الطلبة مُنتشرين في فترة الاستراحة في جميع أنحاء الكلية، أعطاني ذلك إحساسًا مؤقتًا بالأمان.

صعدت الطابق الأول وكان به بعض الطلبة، ثم الطابق الثاني فوجدت عدد طلبة أقل، وعند مشارف الطابق الثالث علمت أنني بمفردي تمامًا هناك، فلم يكن أي من الطلاب ليصعد إليه بمفرده ليلًا قط، الغريب أنني لا أزال أسمع عزف النوتة لكنه كان عزفًا رديئًا!

حدثت نفسي أنه رُبما أثّر الحفل على ذهني، في كل الأحوال يجب أن أحضر الظرف سريعًا لما أستشعره من أهمية لتالك الصور القديمة، قُبيل الغرفة الثالثة التي نسيت بها الظرف، تمنيت أن ألتقي فيها بشمس، أو «روح شمس»، تعجبت من أمنيتي لهذا الأمر ولم أعرف السبب! وفجأة توقف اللحن ثم سمعت صوتًا بالداخل! صوت حفيف أوراق.. هل يُفتح الظرف الآن؟ عندما دخلت الغرفة وجدته.. كان الدكتور قابيل!

بُهتّ عندما رأيته جالسًا على كرسي البيانو بالفعل يقلب في الصور واحدة تلو الأخرى، أردفت في عفوية...

- دكتور قابيل؟

لم ينظر إليّ وأخذ يقلب في الصور دون أن يعبأ بوجودي، لم يلتفت لكنه قال في صوت هادئ:

- أهلًا فريدة.. كُنت مُتأكدًا من مجيئك... رداء أبيض رائع بالمناسبة، يُذكّرني بهذه الفتاة في الصور القديمة.. هل تعرفين من هي؟

اندهشت وقُلت بصوت خافت خائف..

- لا أعلم شيئًا.. لم أكن لأصعد الطابق الثالث الآن بمفردي لولا أن..

قاطعني صوته في حدة وقسوة وهو ينظر في شر:

- لولا أن نسيتي الظرف القديم...

نظرت إليه وكنت مُندهشة من شخصيته الحقيقية ولم أعلم

ماذا أقول فأكمل هو:

- أتعجب من أين جئتما بهذا الظرف يا فريدة؟

قلت وأنا أتلعثم وأرتجل:

- لقد وجدته بالصدفة في صندوق النوتات الموسيقية عندما اخترت النوتة الموسيقية من أجل مشروع حفل التخرج..

ضحك قابيل ضحكة عالية طويلة ولا يزال يُمسك بالظرف وقام من مكانه قائلًا في ثقة:

- أنا أعلم كل شيء هنا، أعلم أين تسكن الأشباح.. أعلم كل كبيرة وصغيرة حدثت وتحدث وستحدث، الظرف اللعين كان مع سليم الغبي لكنني لم أظن أنه تركه في الكلية!!

ثم مر من أمامي ينظر إليّ في حنق وقال:

- أين وجدتما الظرف؟ أعلم أن يونس قد أعانك على الأمر كله، وهذا الغبي سيد بعد أن أكل وشرب في خير وفير يختار العودة إلى الفقر مرة أخرى! لكنني أريد أن أعرف لماذا تهتمين من الأساس؟ أنتِ مجرد طالبة تتخرج وترحل من هذا المكان مثل باقي الطلاب! أما أنا فهذا مكاني وباقٍ فيه مهما حدث..

لم أعلق أو أجيبه وتلجم عقلي.. بعد ثوانٍ أكمل هو:

- قولي الحقيقة وسوف أعتبر أن الأمر لم يحدث من الأساس..

استجمعت قواي وحدّثت نفسي «وماذا تُضيرنى المواجهة؟»

فقلت في ثقة:

- حسنًا.. لك ما شئت، بشرط يا دكتور.. أنت تسأل وأنا أسألك بدوري، أنا أصارحك وأنت تصارحني، لعل الأجوبة تُحلل الموقف وتُبعد عنك الشُبهات..

تعجب قابيل من تغير أسلوبي لأصبح هذه الفتاة الجريئة التي تقايض وتفاوض، أخذ يحُك ذقنه وكأنه يفكر وهو يتمشى في تأنٍّ في الغرفة ويتحسس شيئًا في جيبه.. ثم ابتسم في خبث وهو يضبط نظارته ثم قال:

- شرط وشُبهات! أتريدين أن نعتبرها لُعبة؟ موافق.

اقترب مني ورأيت ملامحه مُخيفة لأول مرة منذ عرفته وقال:

- لكن تذّكري أن قواعد اللعبة تعتمد على المكسب والخسارة، لا يخرج الطرفان فائزان، هناك فائز والآخر لا بد أن يكون خاسرًا..

نظرت له في تعجب وقلت مُستفسرة..

- لا أفهم شيئًا..

أردف في سرعة..

- سوف تفهمين كل شيء لاحقًا، الآن يجب أن تُجيبي أول سؤال.. هيا أجيبي وبسرعة، لا بد أنكِ لاعبة ماهرة.

أردفت:

- أجُيبك بدون تفاصيل.. وجدتها في البيانو المحروق في مخزن الهالك.

نظر إليّ في دهشة وقد انقلب حاجباه إلى ثمانية مقلوبة ثم

أشار إليّ:

- الآن دورك.. اسألي ما عندِك يا فريدة فليس أمامنا وقت كثير..

لم أدرِ من أين أبدأ لكنني ارتجلت السؤال..

- لماذا ينقل لك عم سيد أخبار كل شيء؟

نظر بدهشة أكبر ثم ضحك وصفق وأردف..

- معلومات مُحققة مُتتبعة وليست طالبة يا فريدة، كما يقولون مكانك ليس هنا، ماذا تعلمين أيضًا؟

لم أعلق وكان ينتظر جوابي فلم أفعل فقال..

- لا تريدين أن تلقي بورقك كله مرة واحدة؟ حسنًا.. ينقل لي الأخبار لأنني لا بد أن أعلم كل كبيرة وصغيرة، أتظنين أن كلية بهذا المستوى كان يُقدّر لها أن تستمر لولا مجهودي ووقتي الذي أنفقه عليها؟ أنا من أقدم الناس بها وأعلَمهم بمن يصلح هنا ومن لا يصلح، اعتبريها مملكتي الخاصة وأنا أسيطر على كل شبر فيها.. هل يكفي هذا؟

أردفت في ثقة..

- هذه ليست إجابة يا دكتور.. والكلية ليست مملكتك.

حينها استشاط غضبًا وأخذ يسألني في عصبية لم أعهدها عليه من قبل..

- ماذا تريدين يا فريدة؟

قلت في تلقائية وقوة..

- أريد أن أعرف قصة شمس التي لم تفارق روحها المكان وأريد معلومات أكثر عن سليم، هل تساعدني في حل لغز هذا المكان لكفّ الأذى عن الناس؟ أم تطلب نقل مكان الكلية بعيدًا؟

حينها سمعت صوت خطوات منتظمة في الطرقة تقترب لكن من الواضح أنه لم يسمعها، فقد تحجرت عيناه وهو ينظر إليّ وتسمّر مكانه وقال..

- لم أظنّكِ بهذا الذكاء أبدًا، بَخَسْتُكِ حَقّكِ..

اقتربت الخطوات أكثر وتمنيت أن يكون يونس فنظرت باتجاه الباب وسألته..

- ألم تسمع صوت الخطوات بالطرقة تقترب منا؟

قال في سخرية..

- لا لم أسمع يا فريدة، والآن بات اللعب على المكشوف فأنت تعلمين بشأن سليم وعم سيد وكذلك شمس.. تلك المُغفلة.

حينها رأيت شمس تروح وتجيء خارج الغرفة في الطرقة وفي كل مرة تنظر إلينا في غضب شديد! لم تنظر إليّ بغضب أبدًا من قبل! علمت حينها أنها تقصد قابيل فأردفت في صوت عالٍ لا أعلم لماذا:

- ولماذا تُطلق على شمس مُغفلة؟ أكنت تعرفها عن قرب؟

وفي لحظات شعر كلانا بهواء بارد يلفح الغرفة كلها، ورأيتها تقف عند باب الغرفة تنظر إلى قابيل في غضب، نظر قابيل حوله

في حذر وقال..

- الآن أعلم أنكِ تعلمين كل شيء فلماذا كثرة الأسئلة؟

أردفت وأنا أتجنب النظر إليه كي لا يعلم بأمري فقلت:

- دعني أتأكد من معلوماتي.. أو ربما أضفت شيئًا لا أعلمه..

فقال في ثقة..

- أعقد معكِ اتفاقًا.. تنجحين بدرجة امتياز.. أنتِ وصديقتك حنين في مقابل سكوتك مدى عمرك.

نظرت لي شمس حينها وكأنها تنتظر إجابتي فقلت:

- موافقة.. لكن بعد أن أستمع إلى ما تعلمه عنهم.. لماذا تُطلق على شمس مُغفلة؟

بدت على شمس الحيرة وعقدت يديها تستمع إلينا فقال:

- لأنها بالفعل كذلك، فعلت كل شيء من أجلها.. لكنها أحبت سليم الفقير الغبي الذي لا يملك شيئًا ورفضت قابيل الوسيم، قابيل الذي يعرف جيدًا من أين تُؤكل الكتف أينما كان، قابيل الذي يستطيع أن يحصل على كل شيء، رفضت الحياة حتى أكلتها النار وماتت، لاقت الغبية ما يستحقه الأغبياء.

نظرت إليه شمس وقد تأكدت من أنه لا يراها.. وكانت قد غضبت إلى حد كبير لكنني سألته بسرعة:

- ألهذا الحد تكرهها؟

قال وكأنه يتذكر..

- لم أكن أكرهها بل أحببتها حد الهلاك..

لم يزل الغضب عن روح شمس لكنه أكمل حديثه وقد تبدل حاله وهو ينظر عبر النافذة الصغيرة ويتذكر:

- كُنت آمل أن تكون ملاذي ومخبأي من الدنيا، أحببت حيويتها وجمالها، طفولتها ونضجها، جنونها وعقلها، كُنت أتمنى أن أحتويها.. أن أعيش بجانبها لراحتها فقط، كُنت على استعداد لأنفذ لها أي طلب وأن أتحمل سخافة أهلها الأثرياء المُتعجرفين.. لكنها أبت، ثم أبت مرات عديدة بعنف وبحسم وبغضب كُلما أعدت عليها الأمر، فأصبحت مجرد رؤية وجهها خنجرًا في قلبي كلما رأيته.

نظرت إليه وقد فغرت فاهي واستنبطت شيئًا فظيعًا من بين السطور، وعزمت على قوله؛ فإذا كان بريئًا انتفض ونفى فأردفت:

- ألهذا قتلت شمس؟

كانت ملامح شمس تتبدل بين كل لحظة وأخرى، ثم رأيتها كأنها تبكي لكن قابيل أكمل حديثه في هدوء دون أن يعترض!

- كانت ستتخرج في يوم من الأيام وينتهي حبى بالتدريج.. لولا خطبتها لسليم التي أثارت غيرتي، هذا ساعدني بالطبع.. ساعدني كثيرًا..

ثم إلتفت إلي وقد لاحت علامات زهو عجيب على وجهه وهو يقول:

- إلى الآن يا فريدة لم يستدل رجال الشرطة على سبب

الحريق.. هل رأيتِ أحدًا بذكائي من قبل؟ عندما قررت أن أستدرج شمس لتلقى قَدَرها على يديّ، اقترح عم سيد الغبي أن أحرق الغرفة بعد أن أحبسها بها.. فكّرت جيدًا لو أنني فعلت ذلك فربما يستدل رجال المباحث على دليل.. فأحرقت الطابق الثالث بأكمله لكي يبقى السبب مجهولًا.. وتبقى مسألة موتها قضاء وقدر!

لم أكن أصدق ما يقول، الآن فهمت، ثم انتبهت إلى أنني لا أسأله وأخاف أن يفوق ويخرج من حالته هذه..

أردفت:

- لم نكن نعلم أنك المسئول عن مخزن الهالك وليس الدكتور صالح كما يعلم عموم الطلاب! لماذا أبقيته سرًّا؟

اختفت روح شمس وضحك قابيل وبدا في حالة غير طبيعية وأشار بإصبعه إليّ عدة مرات وقال:

- أنتِ حقًّا تعلمين كل شيء! أنا مبهور بذكائك يا فتاة..

ثم تحسس شيئًا في جيبه مرة أخرى وهو لا يستطيع أن يتوقف عن الضحك فشعرت بالقلق فقال:

- حسنًا.. كأنني أسرد حدوتة ما قبل النوم.. النوم العميق أو لنجعله «النوم الأسود».. نعم أنا المسئول عن كل الآلات وأنا الذي أتربح منها وقتما أشاء.. بالطريقة التي تعجبني.. أجيبك أنا أيضًا بدون تفاصيل.

أخذت روح شمس تجري يمينًا ويسارًا في الطرقة وأخرج

قابيل من يده مفتاحًا وقال أثناء خروجه من الغرفة مُسرعًا..

- الآن وقد بتِ تعلمين كل شيء.. سامحيني يا فريدة.. أنت تعلمين أكثر مما ينبغي بالفعل.

خرج في ثوانٍ معدودة وسمعت صوت إغلاق الباب بالمفتاح من الخارج في لحظة واحدة، وقفت مكاني ذاهلة للحظات ثم أسرعت إلى الباب أحاول أن أفتحه كثيرًا بلا فائدة! ثم تذكرت أنني لا أملك هاتفي المحمول! ماذا كنت أنتظر من اللعب مع قابيل؟ نظرت إلى البلكونة المُغلقة من الخارج وحاولت عبثًا فتحها مع يقيني بأنها لن تُفتح! هل سألقى مصير شمس؟ هل تتحقق أحلامي؟ أكنت أرى نفسي في أحلامي؟ لكنني أرى روح شمس أيضًا؟ ماذا أفعل الآن؟ أخذت بسرعة أفكر في كل ما قاله قابيل وكل هذه النرجسية التي تملؤه، إنه إنسان مريض وسوف يحرق المكان كما فعل في الماضي، لهذا كان يقول الحقيقة لأنه متأكد أنه لن يراني ثانية.

أخذت أدور حول الغرفة وأسترق السمع لعلي أجد صوت أحدًا أستغيث به، ثم شممت رائحة دُخان! اقتربت من الباب ونزلت على ركبتي كي أرى من تحت عقبه ما أخمنه، بدأت أرى ضوء لهب بعيد يشتعل بالفعل! حالة من الذُعر والرفض، الرفض للموت، أنا ما زلت صغيرة وأريد أن أعيش حياة تمنيتها، لا بد أن أحارب، أزحت الكرسي لأصعد منه فوق البيانو وأنظر من خلال النافذة الصغيرة فوقه لكني لم أستطيع رؤية أحد، فالحائط

سميك والنافذة صغيرة لا تسمح حتى بمرور رأسى ولا تخرج يدى منها ليراها من بالخارج، لكني لم أستسلم وبدأت أنادى في صراخ من خلالها..

- «يوووونس»... «حنيييين».. الحريق.. الطابق الثالث كله يحترق.

ظللت أرددها وأرددها في صراخ يعلو في إصرار كي أنقذ حياتي، أريد أن أفوز في هذه اللعبة يا قابيل، بدأ الدخان الكثيف يمر من تحت عقب الباب ويملأ الغرفة، وأنا أحاول أن أتنفس عبر النافذة العالية، ما زلت أصرخ ولا أحد يجيب، فقط بعض الصرخات البعيدة، لكن لا مُجيب.

بدأت النيران في التهام باب الغرفة وبدأت أسعل، ما زلت غير مُصدّقة أن نهايتي يوم مولدي وتخرجي وخطبتي! كان من المفترض أن يكون اليوم الأسعد في حياتي! أسأل الله الرحمة وتقبّل القدر، بدأت أردد الشهادة وأستغفر الله وأناجيه، أتمنى الرضا منه والعفو وألا أبقى كثيرًا في الألم إذا احترقت... وأخذت أبكي ولا أعلم ماذا أفعل.. أبكي وأصرخ والنار تنتشر في جدران الغرفة لا أعلم كيف.. ثم أخذت النيران تقترب من الكرسي وأنا واقفة فوق البيانو.. أراها تأكل الأرض الخشبية، أتذكر وجه أمي جيدًا الآن، أتمنى أن تُسامحني على كل شيء.

الآن صوت النيران يقشعر له بدني، هذا الصوت كُنت أحب سماعه في الأفلام! اللهب يتطاير هنا وهناك وأنا أسعل بشدة،

صوت فرقعات كثيرة بالخارج، أغمضت عيني لأنني لا أريد أن أرى النار تنهش جسدي، لا أريد أن أتعذب مرتين.. هنا سمعت فجأة صوت فرقعات صغيرة، وبدأ صوت صرخات يعلو، ثم فرقعة كبيرة إلى حد جعلني أضع يدي على أذني، ربما كان صندوق الكهرباء بالخارج ينفجر، وسمعت صوت يونس..

- فريداااااااااااا... بسرعة.. اقفزي من فوق البيانو ولا تخافي.. الآن..

فتحت عيني فوجدت منفذ البلكونة قد دُمر من الخارج لإنقاذي.. هرعت أنظر منه فوجدت عم سيد يبكي.. دخان أسود كثيف يتطاير حولهم ويونس يقف مُرتعبًا ويردد ما يقوله دون توقف..

- فريدة.. الآن.. انظري في عيني ولا تنظري إلى النيران.. لا تخافي، ثقي في الله لن يخذلك أبدًا.

نظرت إلى النيران التي أكلت الكرسي والأرضية بالكامل وبدأت تشتعل فى البيانو وكادت أن تصل إلى ردائي ثم نظرت إلى يونس، وفكرت في قفزتي التي هي ملاذي الوحيد.. وماذا لو قفزت فاختل توازنه ووقعنا نحن الإثنين من الطابق الثالث! هل أهرب من الموت احتراقًا إلى التمزق إربًا، للحظات كان عليّ أن أختار بين الحياة والموت؟ شعور غريب انتابني لكن صوت يونس المبحوح قاطعني..

- الآن يا فريدة.. اقفزي سريعًا.. الآن يا فريدة.. أمك

تنتظرك.. لا تخافي، تشبثي بالحاجز جيدًا سوف نلتقطك.. بسرعة يا فريدة ونهبط عبر درج الطوارئ للطابق الثانى.. أنا معكِ لا تخافى..

حينها تخيلت وجه أبي يبتسم لي ويُحثني على القفز من النافذة! وقبل أن يُكمل يونس كلمته سمعت صوت قابيل يصرخ بالخارج:

- اتركيني يا ملعونة.. اتركيني.. كفى كفى.

ولم أسمع البقية فقد قفزت إلى البلكونة وقد طالت النيران أطراف الرداء.. تلقفني يونس وعم سيد بالممر الخارجي، وأخذ عم سيد يطفئ النيران العالقة بثوبي، وبعض الوجوه التي لا أتذكر أصحابها من الطلبة؛ في حين حملني يونس بعد ذلك وهرعنا جميعًا واحدًا تلو الآخر عبر الدرج الحديدي للنفذ إلى الطابق الثاني ومنه إلى الحياة..

لكنى كُنت أبكى وأصرخ فى هستيريا شديدة وأردد:

- قابيل قتل شمس.. قابيل قتل شمس.

***

(٣٦)

استسلمت لنوم عميق لم أعهده منذ أشهر، لم أتخيل أن تراودني كل هذه الكوابيس، موسيقى «النوم الأسود» لا تترك أذني أبدًا! صوت النار المُشتعلة في الخشب لا يفارق أذني! روح شمس الغاضبة وهي تجري يمينًا ويسارًا والتي رأيتها لآخر مرة هناك! صوت قابيل ونظراته الماكرة! آخر لحظات وهو يُغلق باب الغرفة! شعوري بالذهول حينها وقد أدركت مقصده! مع كل هذا أتعجب لماذا شعرت وكأنني المسئولة عن موته؟! بالرغم أنه أراد موتي حرقًا!

وجدوه مُتفحمًا تمامًا ومُلقى على الأرض في وضع غريب عند حافة الدرج، تتشبث بقية من عظام يده المحترقة بسور الدرج مُلتفة حوله ورأسه تنظر لأعلى.. فاغرًا عظام ذقنه المتبقية من أثر الإحتراق أيضًا.

قال رجال المباحث إن هيئة جسده بدت كأن أحدًا كان يجذبه من ساقيه إلى الداخل ولا يريده أن يهبط الدرج! فظل الشد والجذب لفترة حتى تمكنت النار منه ولم يستطع أن يُفلت يده! كما وُجدت جوار جثتة قلادة فضية لم تتضرر من النيران معلقًا بها كلمة «موت».

بالرغم من نجاحي بدرجة امتياز ونجاح حنين بدرجة جيد جدًّا لم أكن سعيدة، لم أكن أفكر إلا في يوم ولدت للمرة الثانية.. يوم الحريق.

لكنني بعد خُلوتي مع الله، شعرت بطمأنينة وارتاحت نفسي لكل ما قد أستقبله في حياتي، أتمنى أن أكون صادقة فيما شعرت، وبعد أن رجعت بعقلي وروحي إلى الحياة من موت إرادي مؤقت، قابلت يونس وأدركت أنني قد فوتّ الكثير من الأحداث،الكلية قد أعيد ترميمها بشكل كبير لتستقبل العام الدراسي القادم، وعملت حنين مُدرسة موسيقى في إحدى المدارس الخاصة، وقد تجاوزت محنة كريم تمامًا، كما أصبح يونس ودكتور صالح أصدقاء مقربين، فكان يونس كُلما اعتذرت عن مُقابلته ذهب لصالح يؤنس وحدته بعدما استقال وترك التدريس، كما أنهما قد اجتمعا على زيارة سليم بصفة دورية حتى استجاب الأخير للشفاء أخيرًا، بل إنه ربما يعود للعمل بالكلية من جديد، وتحدث المُعجزة.

كُنت أقاوم شرودي في كل ما حدث بين الحين والآخر، أريد استعادة حياتي من جديد، لا أريد أن أفكر كيف تستمر الحياة أو تنتهي، فقط أريد أن أحيا اللحظة الحالية وأسعد بكل ما تحمله لي، أفقت على صوت يونس وهو يقول أثناء تلبية دعوة عشاء بمنزل الدكتور صالح الذي بدا مُتأنقًا وكأنه على موعد هام..

- أتعلمين من كتب «ليس كل ما نراه حقًّا، قد يرتدي

الباطل ثوب الحق، ابحثي عن الحقيقة»! على هامش النوتة الموسيقة «النوم الأسود»؟

التفتّ وسألته في لهفة فقال وما زال مُتعجبًا..

- شمس.. لقد ميّز سليم خطها وقال إنها كانت تتدرب عليها كثيرًا ولا تفارقها لأنها مشروع تخرجها، وكانت تكتب كثيرًا من خواطرها على الهامش!

ربطت كل الأحداث ببعضها وتعجبت ولم أتوقف عن التسبيح لله العليم، نظر يونس لدكتور صالح وأردف..

- هل تنتوي الخروج يا دكتور؟ لا أريد أن أفسد خطة يومك..

أجاب الدكتور:

- اليوم أردت أن أتأنق وحسب، أيجب أن نتأنق من أجل الخروج فقط؟ أردت تجربة هذا الشعور الليلة.. لا أعلم لماذا، لكنني ممتنّ لأرى فريدة تعود إلى الحياة مرة أخرى، أردت أن أراك اليوم يا يونس لأعلمك بأمر هام، اليوم كتبت كل ما أملك حتى هذه الشقة لسليم، لا أحد يعلم حتى الآن حتى هو..

نظرنا إليه في ذهول وقاطعه يونس..

- أطال الله في عمرك يا دكتور.. بالطبع أنت حر فيما تفعله.. لكن..

قاطعه الدكتور صالح مُمازحًا وجادًّا في نفس الوقت..

- وماذا أفعل بعد مماتي بكل هذا يا يونس؟ أنا لست

فرعونًا.. إن لي الكثير من الأقارب بالدم فقط، لا تربطني بهم أية صلة، أنتم أقاربي الآن، لكن سليم المسكين لا يمتلك شيئًا على الإطلاق وهو ليس كبير السن أيضًا، عندما يخرج من المشفى غدًا إن شاء الله سوف أعطيه غرفة نوم ليعيش معي إلى أن يحين موعدي مع الله، لقد رتبت كل شيء.

ثم مد يده بظرف صغير ليونس وقال..

- هذه نسخة من وصيتي والأصل مع المحامي.. أنت بمثابة ابن لي.. لا تفتحها قبل أن أغادر.

يبدو أنني لن أستطيع الهرب منه.. لأنني تذكرت عبرة الموت من جديد وتساءلت.. «ما العبرة التي يقدمها لنا الموت على طبق رائق شفاف؟ أن تبني نفقًا مُنيرًا في حياتك الأولى يساعدك في الرجوع إلى الله آمنًا مطمئنًا».

***

(٣٧)

جاءنا صوت الشيخ «محمد محمود الطبلاوي» من كاسيت السيارة يخاطب قلوبنا الحزينة، وانطلق يونس بسيارته يجلس بجانبه سليم وأنا وحنين في المقعد الخلفي إلى مسجد «السيدة نفيسة»، حيث أوصى الدكتور صالح بصلاة الجنازة هناك؛ لمحبته الشديدة للمكان، ذكريات البارحة تأكل عقلي، هل حقًّا نموت هكذا بكل بساطة؟ الرجل تأنق واستعد وودعنا بل وكتَب وصيته وكل ما يملك قبلها بيوم واحد! لم يتمالك سليم نفسه فأخذ يبكي ويقول..

- لقد سلّم روحه لله بعد انتهائه من صلاة الجمعة مُباشرة في المسجد، لقد أثلجت صدري حُسن خاتمته.. الشيء الوحيد الذي يعتصرني ألمًا أنني لم أودّعه، كُنت أتمنى لقاءه وشكره على كل ما فعله من أجلي لسنوات كثيرة.. الحمد لله على جميع قدره.

وصلنا ورأيت عم سيد وكثير من الطلبة وطاقم التدريس، وتذكرت كل ما مررت به من مراسم جنازة ودفن وعبرة يوم وفاة أبي، لماذا نسميه يوم الوفاة ولا نسميه يوم اللقاء؟ يوم لقاء الله، هذا يهون الأمر كثيرًا، وتفكرت قليلًا.. أليست ملاقاة الله بالشيء الطيب؟ أليس هو الرحمن الرحيم؟ لماذا لم نقُل بسم الله

القدير المُتعال؟ أو بسم الله المُنتقم الجبار؟ لماذا كانت البسملة بالرحمن الرحيم؟ لأنه رحمن رحيم بعباده في حياتهم ولقائهم.. فالأجدر بنا ألا نخاف الموت لأنه لقاء مع الرحمن الرحيم. لكن قبلًا يجب أن نتجهز بما يليق بلقاء خالقنا.

بعد مرور عدة أيام ذهبنا لمقابلة سليم بناء على دعوته باكرًا، للمرة الثانية أزور نفس المنزل لكن بغير وجود صاحبه الأصلي، في كل خطوة أتذكر الدكتور صالح رحمه الله، يكفيني أنه في مكان أفضل من دنيانا هذه، فتح لنا الباب سليم وقد بدا متأنقًا كأنه على ميعاد! خفق قلبي وسألته..

- هل أنت على ميعاد؟

أردف..

- نعم لكن بعد ساعات.. تفضلا..

دخلنا وجلسنا في نفس غرفة المعيشة، لم يتغير شيء، حفظ سليم كل شيء في مكانه وحافظ على نظافته وترتيبه، كنا في حالة شغف لمعرفة السر وراء الدعوة، أشعل سليم السبرتاية وقد سيطر الصمت علينا ننتظره أن يبدأ، انتهى من صُنع القهوة وجلس وبدأ في حديث لم نقطعه..

- أعلم أنكما تريدان معرفة سر هذا اللقاء الباكر، وأنا على استعداد الآن، لم أكن كذلك طيلة السنوات الفائتة، لكنني أشعر أن روحي يجب أن تتحرر من ثقل وزرها، أنتما أصحاب فضل عليّ بعد فضل الله تعالى في شفائي، فقد أنهكت يونس كثيرًا

والدكتور صالح رحمه الله.

نظرنا إلى بعضنا وفهمنا أنها مقدمة لشيء هام وأكمل:

- عندما أحببت شمس علمت أن الأمر مستحيل، فهي من عائلة ثرية وأنا من عائلة فقيرة، لن يتركها أهلها أبدًا، لكنها حاربت بكل ما أوتيت من قوة لكي نبقى معًا، كانت قوية وكنت ضعيفًا، إلى أن تمت خطبتنا تحت ضغط كبير، حتى إنها ساعدتني بالمال لكي أبتاع خاتم الخطوبة، كان الأمر مؤلمًا بالنسبة لي كرجل، لكنني تجاوزته وعقدت العزم على فعل أي شيء لأتزوجها، حينها لاحظت إعجاب قابيل بها لكنها لم تخبرني قط، كان نرجسيًّا حاقدًا إلى أقصى درجة، ثم تبدلت معاملته معي من التجاهل والاحتقار إلى الاهتمام، اعتقدت أنه تغير بالفعل وبدأ علاجه من نرجسيته، بدأ يتحدث عن تكاليف الزواج وكيفية الحصول على المال، كان قابيل يختار من الآلات الباهظة الثمن أجودها فيُعيبها، تعلمون أن الأوتار لا بد أن تكون مضبوطة وسليمة لتنضبط النغمات، انضباط النغمات مُهم للغاية في تعليم الموسيقى، وإلا تعلم الطلبة النغمات الخاطئة، لذلك كان يُعيب الأوتار ويصنع بعض الأعطاب في تلك الآلات تحديدًا ثم يحيلها إلى مخزن الهالك، ثم يبيعها بعد فترة بمساعدة عم سيد.

نظرت إلى يونس وصحت:

- لقد ذكرت هذا الحديث عن الأوتار من قبل يا يونس في مخزن الهالك! وكانت نبرة صوتك غريبة وللحق أقول خِفت

منك وقتها.

حاول يونس أن يتذكر وقال:

- لا أتذكر أي شيء من هذا الحديث على الإطلاق!

نظرنا إلى بعضنا في ذهول لكن سليم أكمل:

- تورطت معه بعد أن أقنعني أن ما نفعله هو السبيل الوحيد لزواجي، لكن يبدو أن شمس قد كشفت حيله في التلاعب بالمال وواجهته، لا أعلم هل اكتشفت أمري أم لا، لكن أغلب الظن أنها كانت تنوي فضحه لإقالته من الكلية، وحينها دبّر لها المأساة.

أردفت في ذهول..

- هل كُنت على علم أنه الجاني؟

طأطأ رأسه إلى الأسفل وقال في أسف باكيًا:

- لم أتخيل يومًا أنه ينوي قتلها! لكنني كنت متأكدًا من إدانته.. قتلها الحقير ولم أستطع أن أتفوه بكلمة لأنني متورط معه، كنت أخشى الفضيحة، لم أفكر في العار الذي لحق بي أمام نفسي كل ليلة.. مع ذلك كُنت جبانًا أخشى المواجهة والعقاب، وبعد وفاة أخي وأمي لم يعد لديّ ما أخاف عليه، تغلّب ضميري على خوفي لكني لم أملك دليلًا واحدًا ضده؛ فبماذا أُدينه؟ ودفعت الثمن غاليًا من عمري، الآن.. أريدكما أن تساعداني مرة أخرى، أريد أن أفعل شيئًا يُرضي ضميري، أنا أرى شمس في كل ركن، في كل ليلة وصباح، إلى الآن أتذكر محاولات الجميع في الطابق الثاني وهم يملأون أواني المياه من المرحاض ويصعدون ليطفئوا

النار المشتعلة، صراخ شمس لا يهدأ في رأسي..

أردفت في أسف..

- يا الله.. لقد كانت تحاول إخباري بكل شيء!! لذلك لا تغادر روح شمس المسكينة المكان، لكن.. هل كان يعلم الدكتور صالح بكل هذا؟

قال سليم..

- لا.. لم يعلم بشيء؛ إنما كان يشعر بعدم ارتياح إزاء الأمر برُمته.

قال يونس في جدية..

- كيف نستطيع مُساعدتك؟

أردف سليم وهو ينظر إليّ..

- أولًا أريد منكِ يا فريدة أن تنضمي لطاقم التدريس؛ فأنا أثق في قدراتك، وثانيًا يا يونس أريد أن ألغي مخزن الهالك تمامًا؛ فسوف يكون مكتبي عندما أعود للتدريس بالكلية.

قال يونس:

- وأين نضع الآلات المُتهالكة؟

أردف سليم بصوت به خبرة من عمله القديم:

- تُعقد لجنة من خمسة أفراد لا شُبهة على سيرتهم المهنية والشخصية؛ لكتابة تقارير عن الآلات كلها وحالتها.. ولا تُفتح أو تُغلق إلا بحضور ثلاثة منهم على الأقل، أنت رئيسهم في كل الأحوال فأنا أثق بك أكثر من نفسي.

تنهد سليم طويلًا وأردف:

- رحمك الله يا دكتورصالح كان دائمًا يردد «افعل ما يُمليه عليك قلبك فإن القلب أبصر من العين»، الآن أرتاح من كل هذا الهم، أريد أن تعود الكلية في أبهى صورة لها، أريد أن أكفّر عن كل ما سكت عنه، عن كل ضعفي، فالحياة مهما طالت قصيرة، لا أحد يعلم متى يرحل.. أريد أن ألقى الله وأنا مطمئن.. فهل تساعداني؟

ساد الصمت قليلًا ثم بقي يونس يناقشه في أمور لا أفهم فيها، غير عابئ بما اعترف به للتو، فالرجل قد ندم وأفصح عما بداخله، كان هذا كافيًا ليونس.

لكنني بقيت أتذكر كيف مات قابيل، ولم أكفّ عن التفكير في تلك اللحظة الأخيرة التي نلقي فيها نظرة أخيرة على الحياة ولا نتحكم في وقتها ومكانها! تلك اللحظة الفارقة الحاسمة التي لا تعطيك حق الاختيار، تلك اللحظة التي تنقلك إلى العالم الآخر، هل نعبر بسلام؟

وبقيت أسأل قلبي من جديد.. هل أتصالح مع الموت؟ أم أعتبره شرًّا كباقي البشر؟ كيف أنظر إليه؟ هل يكون خيرًا مُستترًا؟ أم امتدادًا لحياة أخرى؟ حياة دون صراعات، دون مرض، دون أحقاد، دون ألم، دون ذكريات، حيث يتوقف اللهاث ونَنعم بالراحة والهدوء والسلام.

واكتشفت أن الخوف من الموت أمر غريب! لأن الموت

مُصاحب للحياة ومُناقض لها، فكلما اقتربت حياتنا من نهايتها اقترب ميلاد موتنا، وكُلما امتدت أعمارنا لم تُبعدنا عن الموت بل تُقربنا إليه، في حين نحتفل نحن بميلادنا كل عام! نحتفل باقتراب أجلنا! الموت يدنو أحيانًا فيُصيبنا الذُعر فيبتعد لنتعظ لكننا لا نفعل، الموت غير قابل للشك أو النقاش، الأمر محسوم، كل ما علينا هو التصالح معه والرضوخ له حين مقابلته كما قال نبي الله «موسى»:

«الآن من قريب».

* * *

(٣٨)

(البداية)

وقفت أتأمل مبنى الكلية في الصباح الباكر من الخارج، يبدو على أفراد الأمن الجدد الحماس، تنفست في راحة غريبة وابتسمت لهم ودخلت المبني، البهو المُزين بكثير من اللوحات الزيتية وخاصة اللوحة الكبيرة في المُنتصف للمرأة ذات العيون الواسعة الكحيلة التي أخافتني في الماضي تضيف الآن جمالًا، كما شعرت أن التماثيل تضحك لي وكأنها تستقبلني، النور المُنبعث من خلال النوافذ الزجاجية الملونة يشع أملًا وبهجة، وصل شعاع منه إلى خاتم زواجي فجعله يتلألأ في إصبعي، فتذكرت وجه يونس الجميل، أخيرًا التقيت ببعض نفسي التي فارقتني في الماضي.. أخيرًا نلتقي رغم الزحام.. حمدت الله على نعمته.

اليوم أول تدريب عزف لي بعد أن أصبحت مُعيدة بالكلية وزميلة لزوجي الحبيب، وأصبح سليم مديرها كأحد أفضل من أدار شئون المكان على مدار تاريخه، تأكدت من أنني أحمل النوتة الموسيقية في حقيبتي، المبنى خالٍ تمامًا، بدأت أصعد الدرج على مهل وأنا أشعر براحة في المكان لم أعهدها فيه، أتذكر لحظات كُنت أحسبها مُرعبة في الماضي، لكنها حدثت لسبب لم نكن

نعلمه، ولم يكن يخطر ببال أحد، لكن كل شيء في حياتنا يحدث لسبب يتضح لاحقًّا إذا ما صبرنا.

ما زلت أصعد الدرج في بطء أتعمده، صوت موسيقى يأتيني من بعيد.. يزداد علوًّا تدريجيًّا، وقفت مكاني مُنتبهة، الصوت يأتي من الأعلى، لم يجد الخوف طريقه لقلبي هذه المرة، أكملت صعودي والصوت يتضح أكثر فأكثر كُلما صعدت درجة بعد الأخرى، كان قلبي يقول إنها النوتة الموسيقية «النوم الأسود» مجهولة المؤلف.. عزف رائع مُتقن إلى أقصى حد يُذكرني بليلة تخرجي، لم أسأل نفسي عن العازف، لكنني بتلقائية شديدة تمايلت مع العزف وأنا أصعد وأدندن معه.

عندما وصلت الطابق الثالث وجدت العزف يأتي من الغرفة الثالثة التي كانت مُضاءة وحدها، مضيت في طريقي إليها دون رهبة،كان قلبي يطمئنني، مشيت في بطء إلى أن وقفت على عتبتها وأنا ما زلت أدندن النغمات مُبتسمة..

كانت شمس في ردائها الأبيض الأنيق تبدو كعروس ليلة عرسها، تجلس عند البيانو وأمامها وردة بيضاء نضرة، تُعيد العزف مرارًا حتى أنها لم تدرِ بوجودي، أخذت النوتة الموسيقية القديمة من حقيبتي وتقدمت منها في بطء كي لا أزعجها ووضعتها أمامها على الحامل.. توقفت للحظة وهي تنظر إلى في وداعة وابتسمت مُطمئنة، ثم بدأت العزف من جديد، وأشارت إليّ لأردد النغمات معها ففعلت في رضى.

مضت لحظات مُدهشة خارج حسابات العقل بيننا من العزف المبهر، لم تكن روح شمس تؤذينا بل كانت تستغيث بنا، شعرت وكأنها صديقة جديدة، ربما تسبح في الملكوت، وعند المقطع المُميز من اللحن.. سمعت وقع أقدام بالخارج وتصفيق! هرولت إلى الخارج فوجدت طالبة استنتجت أنها في الأغلب هي التي سوف أقوم بتدريبها اليوم.. كانت تقترب من الغرفة وتدندن خلف عزف شمس في فرحة وتقول..

- الله الله.. ما سمعت عزفًا بهذه العذوبة أبدًا.. سوف أكون عازفة ماهرة إذا ما تتلمذت على يديكِ..

في نفس الدقيقة رجعت مرة أخرى لأرى شمس فلم أجدها.. بل وجدت اليمامة البيضاء تقف عند النافذة الصغيرة تنظر إليّ كما كانت تفعل من قبل، دخلت الطالبة الغرفة فطارت اليمامة.. كانت الطالبة مُنتشية من روعة العزف وقالت وهي تنظر إلى النوتة الموسيقية على الحامل..

- ما كل هذا الجمال.. سوف أتدرب عليها.. «النوم الأسود». لمن هذه المقطوعة؟

لم أرد، بل ذهبت إلى الوردة البيضاء وأخذتها.. فقالت:

- أنا جاهزة للتدريب يا دكتورة فريدة.

كانت عيني مُعلقة على النافذة لعلي أرى اليمامة ثانية بينما أحمل الوردة في حرص، قاطعتني الطالبة:

- هل أنتِ بخير؟

أجبتها وقلبي مُخدر..

- نعم.. أنا بكل خير..

نظرت الفتاة إلى النوتة الموسيقية واقتربت منها أكثر وقالت..

- نوتة موسيقية قديمة محروقة الأطراف! مكتوب على هامشها «ما بين أول الرحلة وآخرها لحظات نظنها سنوات.. فلتستعد لها ولتسعد بها».. هذا يثير الاهتمام..

اقتربت بدوري وقرأت ما قالت ثم قلت في تعجب...

- شيء غريب.. لم أقرأ هذه الهوامش من قبل رغم احتفاظي بالنوتة!

لم تعلق الفتاة.. كنت على أتم استعداد لأول تدريب لي فقلت:

- هيا فلنبدأ الآن العزف.. أراكِ تعرفينني جيدًا.. لكنني لا أعرفك.. ما اسمك؟

أشرق وجهها ونظرت إلى عيني في فخر وقالت في وداعة:

- شمس.

***

تمت